سطور . من المنظور والمأثور
عن : بلاد التكرور

رحلة في مالي وحديث عن ماضيها المجيد، وحاضرها الجديد

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الطبعة الأولى

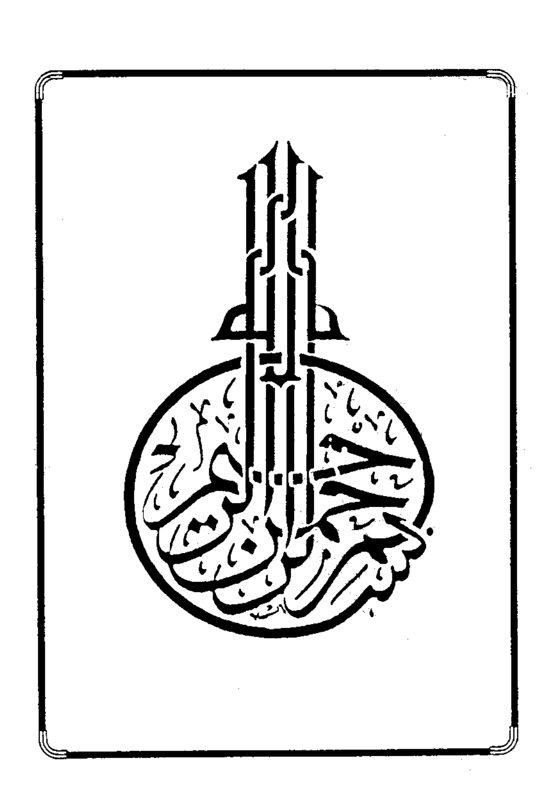
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر
سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - الرياض
٢٧٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٤ - ١٠٠ - ٣٦ - ٩٩٦٠
١ - إنتشار الإسلام - مالي ٢- مالي - تاريخ
أ- العنوان

ديوي ٩٦٦,٢٣ ٢٠/١٤٥٦

رقم الايداع ٢٠/١٤٥٦
ردمك : ٤ - ١٠٠ - ٣٦ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم. الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون والصلاة والسلام على خير الأنام خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعثه الله إلى الخلق اجمعين فاهتدى بدعوته ودعا إلى سنته أقوام من الأقوام الذين لايعرف قومه العرب أمرهم إلا ماسمعوه من كونهم من أهل الإسلام واما سائر مناحي حياتهم، ونواحي بلادهم فإنهم ليس لديهم عنها إلا أوهام تشبه الأحلام. وذلك لبعد بلادهم في الموقع وانقطاع الصلة مابينها وبين البلدان العربية إلا صلات قليلة ببعض البلاد العربية البعيدة.

ومع ذلك ساروا على الطريقة المحمدية، بل صاروا من أكبر الدعاة إلى دين الحنيفية. فصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله الكرام وصحبه الأعلام الذين عملوا على الدوام في نشر الإسلام من دون كلل أو ملل حتى نصر الله بهم الإسلام في بلدان الذين يلونهم من الكفار حتى إذا صارت تلك البلدان بلاد إسلام انطلقوا بالإسلام إلى من يلونهم من الأقوام حتى شمل الإسلام بظله بلاداً لم يكن أوائلهم يتصورون أن الإسلام يصلها. فضلاً عن أن يكونوا عرفوها وأهلها.

أما بعد؛ فإن زيارة (مالي) ومنطقة السودان الغربي كانت أمنية قديمة تحققت عندما طلبت مني رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة أن أذهب نيابة عنها في مهمة رسمية في بعض الأقطار الإفريقية الغربية للإطلاع على واقع أحوال المسلمين فيها والتوقيع مع حكوماتها على اتفاقيات لإنشاء مستوصفات على أراضيها تقوم الرابطة بتمويل إنشائها وإدارتها.

وكانت وظيفتي (الأمين العام للدعوة الإسلامية) وهي وظيفة حكومية مقرها الرياض يتلخص عملها في التخطيط والتنسيق والمتابعة ويراد بالتخطيط رسم الخطط للدعوة الإسلامية واقتراح اعتماد ما تحتاج إليه من

مال وبالتنسيق مابين الجهات العاملة في حقل الدعوة إلى الله في بلادنا، وبالمتابعة متابعة أعمال تلك الجهات ومعرفة كيفية انفاذها.

وكانت (مالي) إحدى البلدان الإفريقية تلك، فزرت عاصمتها (باماكو) ووقعت مع المسؤولين في حكومتها ماذكرته. ولكنني جريًا على عادة لي قديمة دونت ذلك مع ماشاهدته من أمور أخرى في هذه البلاد في مذكرات ألفت هذا الكتاب.

وقد حرصت على أن تشمل زيارتي لهذه البلاد ذات الأمجاد زيارة مدينة كانت مركزًا عظيمًا من مراكز الثقافة العربية الإسلامية في منطقة السودان الغربي على مدى دهور وهي مدينة (تنبكتو) فزرتها وتجولت في نواحيها وقارنت في ذهني بين ماذكره ابن بطوطة أثناء زيارته لها وبين ما هي عليه الآن فكان ما ستقرأه عندما يحين الأوان للوصول إليها بطائرة من طائرتها أهلها، كما ستقرأ ما ذكره ابن بطوطة عنها وعن أمور أخرى غيرها من أمور (مالي) بل من أمور مملكة مالي السودانية العظيمة في آخر هذا الكتاب.

وكان رفيق الرحلة وزميل السفرة الصديق النبيل أبا محمد السفير عبدالوهاب الدكوري وهو من أهل مالي، بل هو من الأسر العريقة فيها ومن الأشخاص العارفين بظاهرها وخافيها. والله أعلم.

مكة المكرمة :

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

جمهورية مالي

طريق درجة أولى
طريق درجة ثانية
طريق صحراوي

الجزائر
تاودني
تنقل الخريطة بعد التصحيح
موريتانيا
تيساليت
آراوان
كيدال
بوريم
تنبكتو
غوندام
نهر النيجر
غاو
مناكا
نيورو
بحيرة دابو
موبتي
نهر باكوي
سيغو
باماكو
ڤولتا العليا
(. بوركينا فاسو)
غينيا
ساحل العاج
غانا
توغو
بنين

تصدير

مالـي: بلاد الممالـك والسلـطنـات الإسلامـية الـعظيـمة بـل بلاد الأمـجاد التاريـخية العريـقة حتى ذكر بعـض المؤرخين العرب سـلطان مالي بـأنه من أعظم سلاطـين المسلمين، وكانـت سلطنة مالي تـسمى بهذا الاسم عـندهم ثم تـطور ذلـك حتـى صارت تـسـمى بـلاد السـودان، وسمـاهـا بعـضهـم ببـلاد التكـرور. قال أحد مؤرخـينا الكـبار: إن سلطـان السودان يسـمى في البـلدان العربـية بسلـطان التكـرور ولو سمع ذلـك لأنف منه لأن الـتكرور ليـست إلا جزءاً من بلاده.

ومع أنـنـا لا نعرف الآن بلداً بعـينه يسمـى بالتكرور وإنما ذكـرت المصادر العربية بلدة واحدة اسمها (تكرور) إنـدرست الآن، فإننا نعرف بعض القبائل التـي ترجع إلـى الفلانـيين بأنـها (تكـرولي) بمعـنى تكـروني عنـدهم أسمـاها الفرنسيون بذلك.

وظني أنهم أطـلـقوا عليها التسميـة القديمة التي كان يطلقـها الأجانب على بعض أهالـي السودان الغربي أو كلـهم، وإن كان أهل البلاد لايعـرفونها، ولا يعـرفون فـي بلادهم بـلاداً تسمـى (التـكرور) ولا أناسـا يسمـون التـكاررة أو التكارنة، كما قال الأمير العالم الشيخ مـحمد بيلو في كتابه (انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور) : اعلم أن هذا الاسم الذي هو (التكرور) علَم على الاقليم الغـربي مـن الجنوب الـسوداني، عـلـى مـا فهـمنـا مـن تعبـيرهم فـي التـواريخ والنقول.

وهذا الاسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة، ومندرس في محله، حتى لا يـعرفـه أهل هـذه البـلاد أصـلاً. وإنما يـتلـقونـه مـن الحجـاج الذيـن سمـوه بالحرمين ومصر.

ورأيت لمجد الدين الفيروز ابادي في القاموس أنه بلد بالمغرب. ورأينا لبعضهم أنه عبر عن (كنو) وكاشنا وما والاها ببلاد السودان، وعبر عن تنكيت وما والاها ببلاد التكرور. والله اعلم»[١].

ثم ذكر تحديد بلاد التكرور بما لا يبعد عن تحديد بلاد السودان الغربي كلها.

أما مدينة (تكرور) التي ذكرها أسلافنا المؤرخون العرب فقد قال عنها الحميري في الروض المعطار «تكرور»: مدينة في بلاد السودان، بقرب مدينة صنغانه على النيل، وهي أكبر من مدينة سلي وأكثر تجارة. إليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم. وطعام أهل سلي وأهل (تكرور) السمك؛ والذرة والألبان، وأكثر مواشيهم الجمال والمعز، ولباس عامة أهلها الصوف وعلى رؤوسهم كرازي الصوف، ولباس خاصتهم القطن والمآزر، ومن مدينة سلى و(تكرور) إلى مدينة سلجماسة أربعون يوماً بسير القوافل، وأقرب البلاد إليها من بلاد لمتونة الصحراء (أزقي) وبينهما خمس وعشرون مرحلة. ا هـ

وواضح أن المراد بالنيل الذي ذكره هو نهر النيجر أو نهر السنغال فكلاهما كان يعرف بالنيل نيل السودان عند المؤرخين القدماء.

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان: تكرور. برائين مهملتين: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب. وأهلها أشبه الناس بالزنوج.

وقد بلغت هذه البلاد السودانية الغربية في العصور الوسطى مبلغاً من الأمن والرخاء وحسن الإدارة لم تبلغه الدول الأوربية في ذلك الوقت.

---

(١) انفاق الميسور ص٢٧.

والشـواهد التـاريخيـة على ذلـك عديدة. وسوف نـسوق أكثـرها عنـدما ننـقل كلاماً لبعض المؤرخين عن تلك البلاد ونعلق عليه بما يحتاج إليه من ايضاح، كما سوف ننقل كلام ابن بطوطة في آخر هـذا الفصل عن رحلته لتلك البلاد، التي تضمنـت معلومات لا توجد في كتاب آخر، بل إنـه لولا أن ابن بطوطة، سجلـها في رحلته لـكنا جهلنـا أشياء صارت الآن من الحـقائق التاريخـية في تلك البلاد.

لذلك لـن نستوفي كلام اسـلافنا المؤرخين هـنا وإنما سنسـير على سجيـتنا وعلى طريقتنا فـي تسجيل المشاهدات والتعليق عليهـا بما يوضح المراد منها، أو يجلـو الغـموض عـنها مـرجئين الـنقـل إلى آخر الـكتاب. مـاعدا كـلام ابن بطوطة رحمه اللـه فنذكره في أول الكتاب لكي يتصور القـارئ الكريم حالتها في الـقديم. وربما يشـوقه كلام ابـن بطوطة لمـا نسوقه مـن كلامنـا فيها والـلـه المستعان على كل شأن.

وتعتبر مـالي بمثابة القلب النابـض في تاريخ افريقية في العـصور الوسطى فقد عرفها الغرب في العصور الوسـطى عن طريق المؤلفين والرحـالين وعرب الشرق المـسلم باستـقباله لحجـيجها الثـري مثل الملك كـانكان موسى فـي القرن الرابع عـشر الميلادي الذي كـان ثرياً تقياً كريماً يـحتل منـزلة رفيعة بـين ملوك المسلمين الكبار من الناحية الدينية والثقافية والاقتصادية في كافة الأقطار.

وعرف اسلافـنا العرب نهـر مالي الذي اسـموه (نيل السـودان) وهو الذي يعرف الآن بـنهر النيجـر. وهو «النهر الكـبير» كما يـسميه بعض المـواطنين من أهل البلاد ويجري النهر في (مالي) بطول ١٨٠٠ كيلو متر من باناكورو في الجنوب الغربي لابزانجا جاو في الشمال الشرقي ويعتبر صـالحـاً للملاحة على مـدار السنة ويربـط بين طرفي الدولـة ويسهل تـبادل البضـائـع والرجال والآراء.

ويطلقون على هذا النهر اسم (جوليبا) في باماكو.

وقد شيدت المدن الرئيسة على جوانبه واصبحت ممالك اسلامية تفخر بها الثقافة الافريقية في مختلف العصور ومنها مدينة جنه في الجنوب الغربي وتنبكتو وجاو في الشمال الشرقي.

وتاريخ الممالك والإمارات في مالي يحتاج إلى مجلدات أما ازدهار العلوم الإسلامية فيها فشئ لم تسبقها إليه أية منطقة افريقية جنوب الصحراء، وقد تمر بك شواهد على ذلك أثناء هذا الكتاب مع أنه كتاب رحلة ومشاهدات في الأصل وليس كتاب دراسات وإحصاءات.

جمهورية مالي :

تعتبر جمهورية مالي من دول غرب إفريقية تحدها من الشمال الجزائر ومن الشرق النيجر ومن الشمال موريتانيا كما تحدها السنغال وغينيا غرباً، وساحل العاج وفولتا العليا جنوباً، وليست لها سواحل بحرية وتبلغ مساحتها نحو مليون ومائتين وأربعين ألف كيلو متر مربع.

ومعظم اراضيها مناطق صحراوية شاسعة تحتل شمال البلاد ويجري نهر السنغال في غرب البلاد ٤٤٠كم داخل أراضيها مكوناً مجرى سهلياً زراعياً خصباً.

كما يجري نهر النيجر في جنوب البلاد. كما توجد بعض الأنهار الرافدة في النهرين المذكورين.

ومن أهم منتجاتها الزراعية الأرز والسكر والقطن والفول السوداني، كما تربى فيها الماشية بشكل واسع وتصدرها إلى عدة أقطار إفريقية.

ومن أهم الصناعات المنسوجات والتبغ وتجفيف السمك.

وفيها من المعادن الحديد والمنجنيز والفوسفات والملح والذهب.

ويبلغ عدد سكانها سبعة ملايين ونصفا ٩٠٪ منهم مسلمون والبقية فيهم وثنيون ومسيحيون كاثوليك. ويرجع السكان في أصولهم إلى عناصر سودانية وعربية وبربرية.

ومعظم سكان مالي مزارعون ورعاة والأقلية في المدن. ونسبة الأمية مرتفعة بين صفوفهم كما أن المعيشة ذات مستوى منخفض ، ولكن تتفاوت بين أغنياء وفقراء. وتستخدم اللغة العربية في بعض المدارس، وخاصة في مواد الدين بينما الفرنسية تعتبر اللغة الرسمية.

ومالي دولة إسلامية إفريقية عضو في منظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الوحدة الإفريقية وهيئة الأمم المتحدة.

وتنقسم البلاد إلى عدد من الأقاليم والمناطق الإدارية. وتشرف الحكومة على وسائل الإعلام والصحافة وتمتلك الإذاعة ومعظم الصحف.

وللبلاد علاقات وارتباط ثقافي وتجاري وعسكري مع فرنسا بصورة خاصة. أما علاقتها السياسية بالعالم فإنها دولة غير منحازة ولها تمثيل دبلوماسي مع معظم الدول الإسلامية والعالمية.

وهذا نص كلام ابن بطوطة عن مالي وتعليقنا عليه.

قال محمد بن إبراهيم بن بطوطة المتوفى سنة ٧١٩هـ - ١٣٧٧م)

ولما عزمتُ على السفر إلى مالي[١]، وبينها وبين ايوالاتن[٢] مسيرة أربعة وعشرين يومًا للمجد، اكتريت دليلاً من مسوفة[٣]، إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق، وخرجت في ثلاثة من أصحابي.

وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها عادية ضخمة، تستظل القافلة

---

(١) هي مالي بلغة (آزير) التي هي أصل لغة السراقولي الموجودة حاليًا، وهي من اللغات القديمة في هذه المنطقة، وتتعاقب فيها الراء واللام والدال فمالي هي (ماري) و(ماندي) فيها وهي اسم على المنطقة والعاصمة وقد سمى ابن بطوطة العاصمة (مالي) كما سمى السلطنة سلطنة مالي.

(٢) (ايولاتن) واقعة في جنوب موريتانيا الشرقي وتسمى الآن (ولاتا) كما قال الشيخ محمد بن عمر الدكوري في أرجوزة له اسمها: «عقود الجمان، في رد البدع وتبيين سنة رسول المنان».

والملتقى وشرحه لجعفر ... حبر (ولاتة) الإمام الأكبر

والمراد بالملتقى كتاب: ملتقى الأصول «في الفقه. وقوله :

وشاع هذا القصر في البوادي ... إذ ليس في أعيانها من هادي

أما (ولاتة) ففي وثاق ... عنه، بإذن المالك الخلاق

وتبعد (ولاتة) عن باماكو بنحو خمسمائة كيلو متر.

(٣) مسوفة قبائل تتكلم العربية الآن ولكن ذكر المؤرخون أن أصلهم من البربر، والمعتقد أن أصولهم عربية.

بظلّ الشجرة منها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق، لكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان، وبعض تلك الأشجار قد أستأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر[١]، فكأنها بئر، ويشرب الناس من الماء الذي فيها. ويكون في بعضها النحلُ والعسلُ فيشتاره الناس منها. ولقد مررتُ بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكًا قد نصب بها مرمته وهو ينسج. فعجبت منه.

قال ابن جزي: إن ببلاد الأندلس شجرتين من شجر القسطل في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب. إحداهما بسند وادي آش، والأخرى ببشارة غرناطة.

وفي أشجار هذه الغابة التي بين ايوالاتن ومالي، ما يشبه ثمرة الإجاص والتفاح والخوخ والمشمش، وليست بها. وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق، فيطبخونه ويأكلونه ويُباع بالأسواق[٢].

ويستخرجون من هذه الأرض حبَّات الفول[٣] فينقلونها ويأكلونها. وطعمها كطعم الحمّص المقلو، ورُبما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج، وقلوه بالغرتي[٤]. والغرتي هو ثمر كالإجاص شديد الحلاوة، مضر بالبيضان إذا أكلوه، ويدق عظمه فيستخرج منه زيت، لهم فيه منافع، فمنها أنهم يطبخون به، ويسرجون السرج، ويقلون به هذا الاسفنج، ويدَّهنون به، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور، كما تسطح بالجير. وهو

(١) تعرف هذه الشجرة الآن في لغة السراقولي باسم (كيدي) وفي البامبرا (تيرا) وعند الموريتانيين (تتدوم، واوراقها تطبخ كمرق.

(٢) يسمى الآن (كاري).

(٣) هو الفول السوداني

(٤) يسمى الآن في هذه المنطقة (قرتي) بلغة السراقولي، ويسميه الموريتانيون أيضًا (قرتي) وقوله: مضر بالبيضان: لا يعرف الآن أنه مضربهم: إلا إذا كانوا أكلوه غير ناضج. وهو معروف عندهم الآن بأنه يمنع الرطوبة وتأثير المطر، إذا طلبت به السطوح والجدران.

عندهم كثير متيسر، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار[1] تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا.

والقرع ببلاد السودان يعظم، ومنه يصنعون الجفان، يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين، وينقشونها نقشاً حسناً، وإذا سافر أحدهم يتبعه عَبيدُه وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع.

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم، وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسرغنت[2]، وهو بخورهم. فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بأنلي[3]، واللبن، والدجاج، ودقيق النبق،

أواني القرع

(١) يعرف هذا النوع من القرع الآن عندهم بالقلة. لأنه لا يؤكل وإنما يستعمل أواني وهذه التسمية (القلة) هي في لغة السراقولي الشائعة في المنطقة.

(٢) يسمى الآن عندهم سرغتانه وهو نوع من بخور العود يخلط بالمصطكى.

(٣) يقال له اليوم (يلّي) بتشديد اللام وهو اسم لطائفة من الحبوب كالدخن والذرة الصغيرة وهذا بلغة السراقولي إحدى اللغات الشائعة في المنطقة.

والأرز، والفوتي[١]، وهو كحب الخردل يصنع الكسكسو والعصيدة، ودقيق اللوبياء، فيشتري منهن ما أحب من ذلك، إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان والفوتي خير منه.

وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن وصلنا إلى قرية زاغري[٢]. وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسمون «ونجراته»[٣]، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج، ويسمون ضغنغو[٤]. والسنيُّون المالكيُّون من البيض يسمّون عندهم توري[٥]. ومن هذه القرية يجلب أنلي الى ايوالاتن.

ثم سرنا من زاغرى، فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو[٦]. والنيل ينحدر منها إلى كابرة[٧]، ثم إلى زاغة[٨]. ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي.

وأهل زاغة قدماء في الإسلام، لهم ديانة وطلب للعلم. ثم ينحدر النيل من

---

(١) الصحيح (الفوني) بالفاء والنون ويسمى الآن عندهم (فونيو) وقد أكلته مراراً في مالي وهو حب دقيق يشبه الخردل يصنعون منه ما يشبه الكسكسو عند المغاربة.

(٢) استظهر الشيخ عبدالوهاب الدكوري أنها التي تسمى الآن (جارا) ذاكراً أنها تقع في الغرب من (ولاتا) في مالي، وربما كانت قد خربت وزالت من الوجود لأن قراهم كانت تبنى من الطين والقش فلا تصمد مبانيها على الزمن إلا بالصيانة والترميم.

(٣) يقول الشيخ عبدالوهاب الدكوري: إنهم السراقوليون وأن كلمة (وانقري) تطلق على السراقوليين في تنبكتو ويلاحظ أن ابن بطوطة كان يقص رحلته بعد عودته إلى بلاده ومروره بتنبكتو.

(٤) غير معروفين الآن.

(٥) الظاهر أن هؤلاء البيض قد أصبحوا سوداً الآن. بسبب الجو والمصاهرة وربما يكون جماعة (توري) من بقاياهم ومنهم الرئيس أحمد سيكو (توري) وسيكو: شيخ. لأن أصل تسميته (شيخ توري).

(٦) كارسخو، ربما كانت هي (سيقو) الآن وان (سخو) أصلها فيه (سبقو) فحرفت وظاهرانه يتكلم على مجرى النيل الآن.

(٧) لم يتغير اسمها فهي تسمى الآن (كبره) وتبعد عن مدينة تنبكتوتسعة كيلو مترات.

(٨) الظاهر أن في كلامه تقديماً وتأخيراً، لأن (زاغة) يوصل إليها من سيقو قبل كبره، وكلاهما الآن في مالي، كما هو معروف.

زاغة إلى تنبكتو، ثم إلى كوكو[1] - وسنذكرهما -، ثم إلى بلدة مولي، من بلاد الليميين، وهي آخر عمالة مالي، ثم إلى يُوفي - وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم، ولا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول اليها -، ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة، وهم على دين النصرانية، ثم إلى دُنْقُلة - وهي أكبر بلادهم، وسلطانها يُدعى بابن كنز الدين، أسلم على أيام الملك الناصر - ثم ينحدر إلى جنادل، وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر[2].

ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل، بالقرب من الساحل، كأنه قاربٌ صغير. ولقد نزلت يوماً إلى النيل لقضاء حاجة فإذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر. فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه. وذكرتُ ذلك لبعض الناس فقال: إنما فعل ذلك خوفاً عليك من التمساح، فحال بينك وبينه.

ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة[3]، وهو على نحو عشرة أيام من مالي[4]. وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بإذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد ابن الفقيه الجزولي، وشمس الدين

---

(١) كوكو هي (جاو) الآن - بجيم مصرية - ويظهر أن ابن بطوطة قد تابع المؤرخين العرب الذين كانوا يكتبون الجيم المصرية كافاً. وأصل تسميتها (قاو قاو) بجيم مصرية مكررة.

(٢) هذا يدل على أن ابن بطوطة قد توهم أن نهر النيجر هو نيل مصر وأن منبعه في هذه البلاد ولم يعرف أن هذا النهر الذي كان يسمى في الكتب العربية القديمة (نيل السودان) يصب في المحيط الأطلسي عند ساحل نيجيريا وأنه لا علاقة له بنيل مصر.

(٣) هي (سنكرن) في الوقت الحاضر واقعة في مالي. وهي على نهر اسمه (سلينفي) أقيم عليه سد أسهمت المملكة العربية السعودية في الإنفاق عليه.

(٤) يريد بمالي هنا عاصمة مملكة (مالي) وتوجد الآن في أراضي جمهورية غينيا، على بعد نحو عشرة كيلو مترات من حدودها الحالية مع جمهورية مالي.
ومعلوم أن حدود مملكة مالي القديمة كانت واسعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى بلاد الكانم في تشادوالبرنو في شرقي نيجيريا الشمالي.

ابن النقويش المصري، ليكتروا لي داراً. فلما وصلت إلى النهر المذكور جزت في المعدية، ولم يمنعني أحد، فوصلت إلى مالي حضرة ملك السودان.

فنزلت عند مقبرتها، ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمداً بن الفقيه، فوجدته قد اكترى لي داراً إزاء داره، فتوجهت إليها، وجاء صهره الفقيه المقرئ عبدالواحد بشمعة وطعام، ثم جاء ابن الفقيه اليّ من الغد، وشمس الدين ابن النقويش وعلي الزودي المراكشي، وهو من الطلبة، ولقيتُ القاضي بما لي عبدالرحمن جاءني، وهو من السودان حاجٌ فاضل له مكارم أخلاق بعث اليَّ بقرة في ضيافته، ولقيت الترجمان دوغا، وهو من أفاضل السودان وكبارهم. وبعث اليّ بثور. وبعث الي الفقيه عبدالواحد غرارتين من الفوتي[1]، وقرعة من الغرتي[2]. وبعث اليّ ابن الفقيه الأرز والفوتي. وبعث اليّ شمس الدين بضيافة، وقاموا بحقي أتم قيام. شكر الله حسن أفعالهم.

وكان ابن الفقيه متزوجاً ببنت عم السلطان. فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس يسمى القافي[3]. وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام، فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا ستة، فمات أحدنا. وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشي علي فيها، وطلبت من بعض المصريين دواء مُسهلاً، فأتى بشيء يسمى بَيْدَر، وهو عروق نبات، وخلطه بالانيسون والسكر، ولَتَّه بالماء، فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة. وعافاني الله من الهلاك ولكني مرضت شهرين[4].

---

(١) هو (الفونيو) كما يعرف الآن. وتقدم ذكره.
(٢) هو القرتي كما تقدم أيضاً.
(٣) الظاهر أنه (الكسافا) الذي يسمى الآن بلغة البامبارا في مالي (قو) بقاف وواو.
(٤) ربما كان قد حصل لهم تسمم أو تلوث جرثومي واصيبوا مع ذلك بحمى الملاريا لكونهم غرباء عن المنطقة بدليل أن الأخرين يأكلونه ولا يضرهم.

ذكر سلطان مالي

وهو السلطان منسى سليمان. ومنسى معناه السلطان، وسليمان اسمه.

وهو ملك بخيل لا يُرجى منه كبير عطاء. واتفق أني أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي ثم إنه صنع طعاماً برسم عزاء مولانا أبي الحسن، رضي الله عنه، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب، وحضرت معهم، فأتوا بالربعات وختم القرآن، ودعوا لمولانا أبي الحسن(١)، رحمه الله، ودعوا لمنسى سليمان. ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسى سليمان، وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي، فأجابهم بلسانهم. فقالوا لي: يقول لك السلطان: اشكر الله. فقلت: الحمد لله والشكر، على كل حال.

ذكر ضيافتهم :

ولما انصرفت بعث اليَّ الضيافة فوجهتْ إلى دار القاضي، وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه. فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافي القدمين، فدخل عليَّ، وقال قم! قد جاءك قماش السلطان وهديته. فقمت وظننت أنها الخلع والأموال. فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز، وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتي، وقرعة فيها لبن رائب. فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم، وتعظيمهم للشيء الحقير(٢).

ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك واحسانه اليَّ :

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل اليَّ فيهما شيء من قبل

---

(١) هو أبو الحسن المريني سلطان المغرب في زمن ابن بطوطة.

(٢) هذا من تحامل ابن بطوطة لاعتياده على أخذ الهبات والصلات من ملوك الأرض وسلاطينها وإلا لماذا أصدر هذا الحكم العام على الجميع، مع أن بعض موظفي السلطان أهدوا إليه بقرة وثوراً حسب اعترافه.
والظاهر أن هذه الضيافة التي أرسلها له السلطان – إن صح كلامه – إنما هي ضيافة رمزية أو يكون أحد الموظفين اختلس منها شيئاً قبل وصولها إليه. لأنه أقر بعد ذلك بأن السلطان أعطاه ذهباً كثيراً.

السلطان. ودخل شهر رمضان. وكنت خلال ذلك أتردد الى المشور[1] وأسلم عليه، وأقعد مع القاضي والخطيب. وتكلمت مع دوغا الترجمان، فقال: تكلم عنده وأنا أعبّر عنك بما يجب.

فجلس في أوائل رمضان، وأقمت بين يديه وقلتُ له: إني سافرت بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها، ولي ببلادك أربعة أشهر، ولم تُضفْني ولا أعطيتني شيئًا، فماذا أقول عنك عند السلاطين؟

فقال: إني لم أرك، ولا علمتُ بك.

فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه، وقالا: إنه قد سلم عليك، وبعثت اليه الطعام.

فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجرى عليَّ، ثم فرَّق على القاضي والخطيب والفقهاء مالاً ليلة سبع وعشرين من رمضان، يسمونه الزكاة، وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثًا، وأحسن الي عند سفري بمئة مثقال ذهبًا.

ذكر جلوسه بقبته :

وله قبةٌ مرتفعة، بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات، ولها من جهة المشور طيقان ثلاث من الخشب، مغشاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاث مغشاة بصفائح الذهب، أو هي فضة مذهبة، وعليها ستور ملف.

فإذا كان يوم جلوسه بالقبَّة رُفعت الستور، فعلم أنه يجلس، فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري

(١) المشور: مجلس السلطان أو الحاكم، ربما كان أصل الكلمة من كونه مكانًا للاجتماع العام الذي قد يجري فيه التشاور في شؤون البلاد.

مرقوم. فإذا رأى النـاسُ المنديل ضربت الأطبال والأبواق، ثـم يخرج من باب القصر نحو ثلاث مئة من العبيد في أيـدي بعضهم القسي، وفي أيدي بعضهم الرمـاح الصـغار والـدَّرَق، فيقف أصـحاب الـرماح مـنهـم ميمنـة وميسرة، ويجلس أصحاب القسيّ كذلك. ثم يـؤتى بفرسَيْن مُسْرَجَيْن ملجمين، ومعهما كبشان، يذكرون أنهما ينفعان من العين.

وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين، فيدعون نائـبه فنجا[1] موسى، وتأتي الفرارية، وهم الأمراء. ويأتي الخـطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسرة، في المشور، ويقف دوغا الترجمان على باب المشور، وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواشٍ لـهم فـي تعـميمها صـنعة خاصـة، وهو متـقلدٌ سيفًا غمـده من الذهب، في رجليه الخف والمهاميز، ولا يلبس أحدٌ ذلك اليوم خفًا غيره، ويكون في يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضَّة وأسنتهما من الحديد.

ويجلس الأجنادُ والولاة والفتيان والمسوّفة وغيرهم خارج المشور في شارع هنـاك متسـع فيه أشـجار، وكل فـراري بين يـديه أصحـابه بالـرماح والقسي والأطبال والأبواق، وبوقاتـهم من أنياب الفيلة، وآلات الطـرب المصنوعة من القصـب والقرع، وتضرب بالسطاعة، ولها صوتٌ عجيب. وكـل فراري له كنـانةٌ قد علـقها بـين كتفيـه، وقوسه بيـده، وهو راكب فـرسه، وأصحابـه بين مشاة وركبان، ويكون بداخل المشـور تحت الطيقان رجل واقـف، فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا، ويكلم دوغا لذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان.

---

(١) الصحيح (كانجا ماسا) ومعناه بلغة البامبارا: لسان حال السلطان، وبلغة السراقولي (فنجا ماسا) وعمله بمثابة عمل رئيس الوزراء.

ذكر جلوسه بالمشور :

ويجلس أيضاً في بعض الأيام بالمشور، وهناك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البَني[1]، وتفرش بالحرير وتجعل المخادّ عليها، ويرفع الشطر[2]، وهو شبه قبة من الحرير، وعليه طائر من ذهب على قدر البازي.

ويخرج السلطان من باب في ركن القصر، وقوسه بيده، وكنانتُه بين كتفيه، وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب، لها أطرافٌ مثل السكاكين رقاق، طولها أزيد من شبر. وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس. ويخرج بين أيديه المغنون بأيديهم قنابرُ الذهب والفضة، وخلفه نحو ثلاث مئة من العبيد أصحاب السلاح، ويمشي مشياً رويداً، ويكثر التأني، وربما وقف. فإذا وصل إلى البنبى وقف ينظر في الناس. ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر، وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفار، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون النائب والفرارية، فيدخلون ويجلسون، ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما، ويقف دوغا على الباب، وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار.

ذكر تذلل السودان لملكهم وتتريبهم له.

والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم، وأشدهم تذللاً له، ويحلفون باسمه فيقولون: منسى سليمان كي. فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً خَلَقَةً، ونزع عمامته، وجعل شاشة وسخة، ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، وتقدم بذلة ومسكنة، وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً، ووقف كالراكع يسمع كلامه.

---

(١) تسمى الآن (بامبلي) وهي بناء من الطين مرتفع يجلس عليه هذا هو اسمه الآن بلغتي السراقولي والبامبارا.
(٢) لايعرف هذا الآن في هذه البلاد حسبما وصل إليه علمي.

وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره، ورمى بالتراب على رأسه وظهره، كما يفعل المغتسل بالماء، وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم.

وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام. وربما قام أحدهم بين يديه، فيذكر أفعاله في خدمته ويقولُ: فعلت كذا يوم كذا، وقتلت كذا يوم كذا. فيصدقه من علم ذلك. وتصديقهم أن ينزع أحدهم وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى، فإذا قال له السلطان: صدقت أو شكره، نزع ثيابه وتَرّب. وذلك عندهم من الأدب.

قال ابن جُزَيّ: وأخبرني الصاحب العلامة أبو القاسم بن رضوان، أعزه الله، أنه لما قدم الحاج موسى الونجراني[1] رسولاً عن منسى سليمان الى مولانا أبي الحسن، رضي الله عنه، كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفَّة من تراب، فيترَّبُ مهما قال له مولانا كلاماً حسناً، كما يفعل ببلاده.

ذكرُ فعله في صلاة العيد وأيامه :

وحضرتُ بمالي عيدي الأضحى والفطر. فخرج الناس إلى المصلى، وهو بمقربة من قصر السلطان، وعليهم الثيابُ البيضُ الحسان، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان، والسودان لا يلبسون الطيلسان الا في العيد، ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء، فإنهم يلبسونه في سائر الأيام، وكانوا بعد العيد بين يدي السلطان، وهم يهللون ويكبّرون، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير، ونصب عند المصلي خباء، فدخل السلطان إليه وأصلح من شأنه، ثم خرج إلى المصلى. فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي

(١) الونجراني: منسوب إلى (ونجره) وهم السراقوليون يسمون بهذا في تنبكتو كما تقدم.

السلطان وتكلم بكلام كثير. وهنالك رجلٌ بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب، وذلك وعظ وتذكير، وثناءٌ على السلطان، وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه.

ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البَنْبى، ويأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب، والفضة، والسيوف المحلاة بالذهب، وأغمادها منه، ورماح الذهب والفضة، ودبابيس البلور، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب، وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج. ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة، ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه، وهن نحو مئة، عليهن الملابس الحسان، وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة، فيها تفافيح ذهب وفضة، وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه، ويضرب بالآلة التي هي من قصب، وتحتها قريعات، ويغني بشعر يمدح السلطان فيه، ويذكر غزواته وأفعاله، ويغني النساء والجواري معه، ويلعبن بالقسيّ.

ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه، عليهم جبابُ اللفّ الحمر، وفي رؤوسهم الشواشي البيض، وكل واحد منهم متقلدٌ طبله يضربه، ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في الهواء، كما يفعل السنديّ. ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة. ويلعبون بالسيوف أجمل لعب. ويلعب دوغا بالسيف لعبًا بديعًا، وعند ذلك يأمر السلطان له بالاحسان، فيؤتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر، ويذكر له ما فيها على رؤوس الناس، وتقوم الفرارية فينزعون في قسيّهم شكرًا للسلطان، وبالغد يعطي كلٌّ واحد منهم لدوغا عطاء على قدره. وفي كل يوم جمعة بعد العصر، يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه.

انشاد الشعراء للسلطان :

وإذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء، ويسمون الجلا[1]، وأحدهم جالي. وقد دخل كلٌّ واحدٍ منهم في جوف صورة مصنوعةٍ من الريش تشبه الشقشاق، وجعل لها رأس من الخشب له منقارٌ أحمرٌ كأنه رأس الشقشاق. ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم. وذُكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان: إن هذا البَنْبي الذي عليه، جلس فوقه من الملوك فلان، وكان من حسن أفعاله كذا، وفلان وكان من أفعاله كذا، فافعل أنتَ من الخير ما يذكر بعدك، ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبى، ويضع رأسه في حجر السلطان، ثم يصعد إلى أعلى البنبى فيضع رأسه على كتف السلطان اليمنى، ثم على كتفه اليسرى، وهو يتكلم بلسانهم، ثم ينزل. وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الاسلام، فاستمروا عليه[2].

السلطان يتبرأ من الظلم :

وحضرتُ مجلس السلطان في بعض الأيام، فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاماً كثيراً. فقام القاضي فصدقه، ثم صدقهما السلطان، فوضع كل واحدٍ منهما عمامته عن رأسه، وترّب بين يديه. وكان إلى جانبي رجلٌ من البيضان فقال لي: أتعرف ما قالوه؟

فقلتُ: لا أعرف.

---

(١) الواحد منهم الآن يسمى (جالي) والجمع (جالّو) والمؤنث: (جالمتو).

(٢) لا تزال هذه العادة موجودة بالنسبة إلى الكبراء والأثرياء وسوف يأتي في اليوميات أن أحدهم فعل ذلك عند غرفة كبار الزوار في المطار عندما قدمت أنا ورفيقي السفير عبدالوهاب الدكوري.

فقال: إن الفقيه أخبر أنَّ الجراد وقع ببلادهم، فخرج أحدُ صلحائهم إلى موضع الجراد، فهاله أمره، فقال :

– هذا جراد كثير.

فأجابته جرادةٌ منها وقالت:

– إن البلاد التي يكثُر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها. فصدَّقه القاضي والسلطان. وقال عند ذلك للأمراء.

– إني بريء من الظلم. ومن ظلم منكم عاقبته. ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسيبه وسائله.

ولمَّا قال هذا الكلام وضع الفرارية[1] عمائمهم عن رؤوسهم وتبرؤا من الظلم.

حكاية عن عدل السلطان :

وحضرت الجمعة يومًا، فقام أحد التجار من طلبة مسوِّفة[2] ويسمى بأبي حفص فقال :

– يا أهل المسجد! أشهدكم أن منسى سليمان في دعوتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له :

– من ظلمك؟ من أخذ لك شيئًا؟

(١) الفرارية محرفة عن لغتهم أصلها فيها (هرو) بمعنى حُر (هورو) في لغتهم المعاصرة.

(٢) مسوفة: قبائل بربرية الأصل. تعربت أو تعرب أكثرها الآن كانت على حدود الصحراء ومنها قبيلة (مسوفة) التي يقال إنها هي التي أسست في الأصل مدينة (ولاتا) الواقعة في موريتانيا في الوقت الحاضر، وتقدمت الإشارة إلى ذلك.

فقال :

– منشاجو[1] ايوالاتن، يعني مشرفها، أخذ مني ما قيمته ست مئة مثقال وأراد أن يعطيني في مقابلته مئة مثقال خاصة.

فبعث السلطان إليه للحين، فحضر بعد أيام، وصرفهما للقاضي. فثبت للتاجر حقه، فأخذه. وبعد ذلك عُزل المشرف عن عمله.

زوجة السلطان وبنات عمه :

واتفق في أيام إقامتي بما لي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا. ومعنى قاسا عندهم الملكة. وهي شريكته في الملك على عادة السودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر، وسجنها عند بعض الفرارية، وولَّى في مكانها زوجته الأخرى بنجو، ولم تكن من بنات الملوك، فأكثر الناس الكلامَ في ذلك، وأنكروا فعله، ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالملكة، فجعلن الرماد على اذرعهن ولم يتربْن رؤوسهن، ثم إن السلطان سرَّح قاسا من وثافها[2]؛ فدخل عليها بنات عمَّه يهنئنها بالسراح، وترين على العادة. فشكت بنجو إلى السلطان ذلك. فغضب على بنات عمه، فخفن منه، واستجرن بالجامع، فعفا عنهن واستدعاهن.

وعادتهنَّ إذا دخلن على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن، ويدخلن عرايا، ففعلن ذلك، ورضي عنهن، وصرن يأتين باب السلطان غُدُوّا وعشياً مدة سبعة أيام. وكذلك يفعل كلّ من عفا عنه السلطان.

وصارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعقيدها[3]، وعلى رؤوسهم

(١) منشاجو هي (منساجو) بالسين المهملة، ومعناها في الأصل عبدالسلطان، أو نائب السلطان، لأن كلمة (جو) معناها: عبد في الأصل بلغة البامارا التي كانت ولا تزال شائعة في هذه المنطقة. و(منسا) الملك، وكانوا يسمون ملوكهم (منسا فلان) ومن أشهرهم (منسا موسى) أي الملك موسى.

(٢) لعل صوابها : وثاقها.

(٣) الصحيح : عبيدها.

التراب، وتقف عند المشور متنقبة لا يُرى وجهها، وأكثر الأمراء الكلام في شأنها، فجمعهم السلطان في المشور، وقال لهم دوغا على لسانه :

إنكم قد أكثرتم الكلام في أمر قاسا، وإنها أذنبت ذنبًا كبيرًا.

ثم أتى بجارية من جواريها مقيَّدة مغلولة، فقيل لها:

- تكلمي بما عندك.

فأخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرني[1]، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه، وقالت له:

- أنا وجميع العساكر طوع أمرك.

فلما سمع الأمراء ذلك قالوا :

- إن هذا ذنب كبير، وهي تستحق القتل عليه !

فخافت قاسا من ذلك، واستجارت بدار الخطيب، وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد، وإن لم يمكن فبدار الخطيب.

وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله.

وكان قبله منسى مغا.

وقبل منسى مغا منسى موسى، وكان كريمًا فاضلاً يحبّ البيضان ويحسن اليهم. وهو الذي أعطى لأبي اسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال. وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف في يوم واحد. وكان جده سارق جاطه[2] أسلم على يدي جدّ مُدرك هذا.

(١) لعلها التي تعرف اليوم باسم (كيرينا) وتقع جهة الشمال من مدينة باماكو عاصمة مالي. وهي الآن قرية معروفة بهذا الاسم.

(٢) هذه مؤلفة من كلمتين كما تعرف الآن هما (سوقولا) وجاطه. فسوقولو: اسم امه وجاطه - بالطاء المهملة - معناها الأسد بلغة البامبارا فمعناها إذًا: جاطة بن سوقولو.

حكاية الحسنة بعشر أمثالها :

وأخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلاً من أهل تلمسان، يُعرف بابن شيخ اللبن، كان قد أحسن إلى السلطان منْسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث، وهو يومئذ صبيّ غير معتبر. ثم اتفق أن جاء اليه في خصومة وهو سلطان، فعرفه وأدناه منه حتى جلس معه على البنبي. ثم قرره على فعله معه، وقال للأمراء :

- ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟

فقالوا له :

- الحسنة بعشر أمثالها، فأعطه سبعين مثقالا !

فأعطاه عند ذلك سبع مئة مثقال، وكسوة، وعبيدًا، وخدما. وأمره أن لا ينقطع عنه.

وأخبرني بهذه الحكاية أيضاً ولد ابن شيخ اللبن المذكور، وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالي.

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان :

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم. فهم أبعدُ الناس عنه، وسلطانهم لا يُسامح أحدًا في شيء منه.

ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب[1].

---

(١) لا تزال (مالي) تتمتع بنعمة الأمن هذه وتتميز بها عن الأقطار الافريقية التي كانت مثلها قد ابتليت بالاستعمار الفرنسي كساحل العاج التي لا يأمن الغريب أن يسير في شوارع عاصمتها عندما يحين الظلام إلا في سيارة أو بصحبة مرافق قوي، وأما (مالي) فإن الغريب الذي لا يستر غربته شيء لبياضه يمكنه أن يتجول في عاصمتها في أية ساعة شاء من ليل أو نهار لا يخشى سارقا ولا غاصبا، كما أنه يستطيع أن يسافر في أريافها وبواديها وهو آمن من ذلك.

ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة. إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه.

ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان إلى المسجد لم يجد أين يُصلِّي لكثرة الزحام.

ومن عادتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحفظه بها، حتى يذهب إلى المسجد. وسجَّادتهم من سعف شجر يشبه النخل، ولا ثمر له.

ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلَق، غسله ونظفه وشهد به الجمعة.

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم. وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيَّدون، فقلتُ له :

- ألا تسرّحهم ؟

فقال :

- لا أفعل حتى يحفظوا القرآن.

- ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة، عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل. فقلت لمن كان معي :

- ما فَعَلَ هذا؟ أَقَتَلَ ؟

ففهم عني الشاب وضحك، وقيل لي :

- إنما قُيّد حتى يحفظ القرآن.

ومن مساوئ أفعالهم كونُ الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات. ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة[1]، فإن عادة الفرارية أن يُفطروا بدار السلطان، ويأتي كلّ واحد منهم بطعامه، تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه، وهنّ عرايا.

ومنها دخولُ النساء على السلطان عرايا غَيْرَ مستترات، وتعرِّي بناته. ولقد رأيتُ في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مئة جارية خرجْنَ بالطعام من قصره عرايا، ومعهن بنتان له ناهِدان، ليس عليهما ستر[2].

ومنها جعلُهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدّبا.

ومنها ما ذكرتُه من الأضحوكة في إنشاد الشعراء، ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير[3].

ذكر سفري عن مالي[4] :

وكان دخولي إليها في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين، وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرَّم سنة أربع وخمسين. ورافقني تاجر يُعرف بأبي بكر بن يعقوب. وقصدنا طريق مسيمة[5]. وكان لي جمَلَ أركبه لأن الخيْلَ غالية الأثمان يُساوي أحدُها مئة مثقال.

---

(١) كانت هذه العادات موجودة كما ذكرها ابن بطوطة إلي ما قبل عهد قريب، ولا تزال بعض القبائل غير المسلمة أو الحديثة العهد بالإسلام في الجنوب الشرقي في مالي حيث تقطن قبائل من غير أهل مالي الأصلاء ذوي الماضي العريق كذلك وأكثر تلك القبائل في الأماكن الواقعة على حدود فولتا العليا.

(٢) بعض الفتيات كن إلى عهد قريب لا يرين بأساً في أن يسيرن في الشوارع دون أن يسترن صدورهن مادمن لم يتزوجن وإنما يقتصرن على ستر العورة المغلظة.

(٣) بالنسبة إلى أكل الكلاب والقرود فإن غير المسلمين من مالي هم الذين يأكلونها وأما المسلمون فلا، وبالنسبة إلى الحمير فإنه لا يعرف في (مالي) الآن من يأكلون لحومها سواء، كانوا كفاراً أم مسلمين.

(٤) يريد بذلك خروجه من عاصمة (مالي) وليس خروجه من مملكة مالي. كما هو ظاهر.

(٥) الظاهر أنها (ما سنة) وأن ابن بطوطة كتبها (مسينة) فحرفها النساخ أوانه التبس عليه النطق بالنون في اسمها فنطق بها ميما وكتبها هكذا.

فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل، لا يُجاز إلاَّ في المراكب، وذلك الموضع كثير البعوض، فلا يمرّ أحد به إلاَّ بالليل. ووصلنا الخليج ثلث الليل، والليلُ مُقمر[١].

ذكر الخيل التي تكون بالنيل :

ولمَّا وصلنا الخليج رأيتُ على ضفّته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة، فعجبتُ منها، وظننتُها فِيَلَةَ لكثرتها هناك. ثم إني رأيتُها دَخلت في النهر. فقلت لأبي بكر بن يعقوب: ما هذه الدوابّ؟ فقال: هي خيل البحر، خرجت ترعى في البرّ، وهي أغلظُ من الخيل، ولها أعرافٌ وأذناب، ورؤوسها كرؤوس الخيل، وأرجلُها كأرجل الفيلة[٢].

ورأيتُ هذه الخيلَ مرَّة أخرى لـمَّا ركبنا من تُنْبُكتو إلى كَوْكَوْ[٣]. وهي تعوم في الماء وترفع رؤُوسها، وتنفخ. وخاف منها أهل المركب فقربوا من البرِّ لئلا تغرقهم. ولهم حيلةٌ في صيدها حسنة، وذلك أن لهم رماحًا مثقوبة قد جُعل في ثقبها شرائط وثيقة، فيضربون الفرس منها، فإن صادفت الضربةُ رجله أو عنقَه انفذته، وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه. ومن عظامها بالساحل كثير.

لا سارق في تلك البلاد :

وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان، حاجّ

---

(١) لا تزال (ماسنة) معروفة بكثرة البعوض فيها حتى الآن.

(٢) يعني بذلك أفراس النهر، ولا تزال أفراس النهر موجودة في نهر النيجر حتى في أماكن قريبة من العاصمة (باماكو).

(٣) كوكو هي (قاو) في الوقت الحاضر الواقعة في شرق (مالي) حذف المتأخرون نصف اسمها الذي كان مؤلفًا من كلمتين مكررتين. ولا تزال بعض القبائل من الطوارق تسميها حتى الآن (قاو قاو) بجيم مصرية وبتكرار اللفظ كما كان القدماء، يسمونها.

فاضل، يُسمَّى فَربا مغَا[1]. وهو ممَّن حجَّ مع السلطان منسى موسى لما حجَّ.

أخبرني فَربا مغَا أنَّ مَنْسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج كان معه قاضٍ من البيضان يُكنى بأبي العباس، ويُعرف بالدُكَّالي. فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال سُرِقَتْ له من داره. فاستحضر السلطان أمير ميمة[2]، وتوَّعده بالقتل إن لم يُحضر مَنْ سَرَقَها. وطلب الأميرُ السارق فلم يجد أحداً. ولا سارقَ يكون بتلك البلاد. فدخل دار القاضي واشتدَّ على خُدَّامه، وهدَّدهم. فقالت إحدى جواريه: ما ضاع له شيءٌ، وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع. وأشارت له إلى الموضع. فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان، وعَرَّفه الخبر. فغضب على القاضي ونفاه إلى بلاد الكُفَّار الذين يأكلون بني آدم. فأقام عندهم أربع سنين. ثم ردّه إلى بلده. وإنما لم يأكله الكفار لبياضه، لأنهم يقولون: إن أكل الأبيض مُضرٌ. والأسود هو النضج بزعمهم.

تنبكتو :

.. ثم رحلنا إلْى بلدة ميمة فنزلنا على آبار بخارجها.

ثم سافرنا منها إلى مدينة تُنْبُكْتُو[3]، وبينها وبين النيل أربعة أميال. وأكثر سكَّانها مسوفَّة أهلُ اللثام. وحاكمها يُسمى فربا موسى[4]. حضرتُ عنده يوماً وقد قدم أحد مسوفة أميراً على جماعة، فجعل عليه ثوباً وعمامة

---

(١) تكررت كلمة (مغا) ومعناها: حاكم البلدة و(فربا) معناها: الأمير من أسرة غير مالكة.

(٢) هي (ميما) كما تعرف في الوقت الحاضر وهي قرية واقعة بين (ولاته) وسيقو إلى الشمال من سيقو.

(٣) يلاحظ هنا أن ابن بطوطة يكتب هذا الاسم كتابة صحيحة بالنون، وليس كما أصبح الكتاب من العرب وغيرهم يكتبونها بالميم (تمبكتو) فهذا التحريف مرجعه إلى سهولة إدغام النون في الأصل حتى صارت تنطق ميما وقد تكرر هذا في أعلام عربية كثيرة في أسماء الأماكن مثل ممباسا في ساحل كينيا فاسمها القديم (منبسه) ذكرها بذلك الإدريسي وابن بطوطة وياقوت ومثل (كولمبو) عاصمة سيلان أو (سري لنكا) أصله في النطق العربي القديم (كلنبو).

(٤) أي الحاكم موسى.

وسروالاً كلّها مصبوغة. وأجلسه على درقة، ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم.

وبهذه البلد قبر الشاعر المفلق أبي اسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطُوَيْجن[1]. وبها قبر سراج الدين ابن الكويْك أحدُ كبار التجار من أهل الاسكندرية.

وكان السلطان منسى موسى لما حجّ نزل بروضٍ لسراج الدين هذا، ببركة الحبَش، خارج مصر. وبها ينزل السلطان. واحتاج الى مال فتسلفه من سراج الدين. وتسلَّف منه امراؤُه أيضاً. وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال. فأقام بمالي. فتوجَّه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله، ومعه ابنٌ له، فلما وصل تنبكتو أضافه ابو اسحاق الساحلي. فكان من القَدَرِ موته تلك الليلة. فتكلَّم الناس في ذلك، واتَّهموا أنَّه سُمَّ. فقال لهم ولدُه: إني أكلتُ معه ذلك الطعام بعينه، فلو كان فيه سُمٌّ لقتلنا جميعاً، لكنه انقضى أجله. ووصل الولد إلى مالي، واقتضى ماله، وانصرف إلى ديار مصر.

أمير عنده المدهش لابن الجوزي :

ومن تُنْبكتو ركبتُ النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة، وكنا ننزل كلّ ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريَّات وبحلي الزجاج، ثم وصلت إلى بلدٍ أنسيتُ اسمه، له أمير فاضلٌ، حاجٌ، يُسمَّى فربا سليمان، مشهور بالشجاعة والشدَّة. لا يتعاطى أحدٌ النزع في قوسه. ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسماً. واحتجتُ بهذه البلدة إلى شيءٍ من الذرة، فجئتُ إليه، وذلك يوم مولد رسولِ

---

(١) أذكر بهذه المناسبة أننا عرفنا شاعراً مفلقا من أهل هذه المدينة تنبكتو كان زارنا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما كنت أعمل فيها واسمه (محمد محمود القاضي).

الله صلى الله عليه وسلم. فسلَّمت عليه. وسألني عن مقدمي. وكان معه فقيه يكتب له، فأخذتُ لوحًا كان بين يديه، وكتبتُ فيه: يافقيه! قل لهذا الأمير إنَّما نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد، والسلام. وناولتُ الفقيه اللوح يقرأ ما فيه، ويكلم سرًا الأمير في ذلك بلسانه. فقرأ جهْرًا. وفهمه الأمير. فأخذ بيدي وأدخلني إلى مشْوَره، وبه سلاح كثير من الدَّرَق والقسيّ والرماح. ووجدتُ عنده كتاب المدهش لابن الجوزي[1]، فجعلتُ أقرأ فيه. ثم أتى بمشروب لهم يسمَّى الدَّقْنو[2]، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن، وهم يشربونه عِوَض الماء، لأنهم إن شربوا الماء خالصًا أضرَّ بهم، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن. ثم أتى ببطيخٍ أخضر فأكلنا منه، ودخل غلام خماسيٌّ فدعاه وقال لي: هذا ضيافتُك، واحفظه لئلا يفرّ. فأخذتُه وأردتُ الانصراف، فقال: أقمْ حتى يأتي الطعام. وجاءت إلينا جارية له دمشقيَّة عربيَّة فكلمتني بالعربي.

فبينما نحن في ذلك سمعنا صراخًا بداره. فوَّجه الجارية لتعرف خير ذلك. فعادت إليه فأعلمته أن بنتًا له قد توفيت، فقال: إنِّي لا أحب البكاء، فتعال نمشي إلى البحر، يعني النيل، وله على ساحله ديار. فأتى بالفرس فقال لي: اركب. فقلتُ: لا أركبه وأنت ماش. فمشينا جميعًا. ووصلنا إلى دياره على النيل. وأتى بالطعام. فأكلنا وودعتُه وانصرفت. ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل. والغلامُ الذي أعطانيه باقٍ عندي الآن.

(١) رأيت أنا كتابًا مخطوطًا في مركز أحمد بابا للبحث العلمي في تنبكتو يرجع تاريخ كتابته إلى ما قبل وصول ابن بطوطة بسنين طويلة وإن كنا لا ندري متى وصل ذلك المخطوط إلى المدينة، وسيأتي ذكر ذلك عند الكلام على زيارتنا لمدينة تنبكتو.

(٢) أصل هذه الكلمة عند البيضان ومنهم الموريتانيون في الوقت الحاضر. التسمية بالدخن، أي كما يعرف (الدخن) في بلادنا وهو حبوب صغيرة تشبه في حجمها حبوب السمسم كان الناس عندنا يأكلونها في أوقات المساغب وشدة الحاجة. فلعلها كانت قد حرفت في لغة هؤلاء الأخوة السودانيين إلى (الدقن) ثم مدت نونها بواو في آخرها على عادتهم في إشباع الضمة في أواخر بعض الكلمات مثل أحمدو و(محمدو) في اسم أحمد ومحمد.

مدينة كوكو[1] :

ثم سرتُ إلى مدينة كَوْكَوْ، وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان، وأكبرها، وأخصبها. فيها الأرز الكثير، واللبن، والدجاج، والسمك. وبها الفقّوس العناني الذي لا نظير له. وتعامُلُ أهلها في البَيْع والشراء بالوَدَع. وكذلك أهلُ مالّي. وأقمتُ بها نحو شهر.

وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة، وكان ظريفًا مزاحًا فاضلاً. وتوفي بها بعد خروجي عنها. وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي، وهو ممَّن دخل اليمن، والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان.

انتهى كلام ابن بطوطة

(١) هي (قاو) كما تعرف الآن وقد سبق ذلك. كما سيأتي عند كلامنا في تنبكتو.




اليوميات
المالية



يوم السبت: ١٤٠٢/١٢/٨هـ

من بوبو جولاسو إلى باماكو:

قامت الطائرة الفولتاوية الصغيرة من مطار مدينة (بوبو جولاسو) في فولتا العليا التاسعة إلا ربعًا من هذا الصباح بعد أن أمضت في مطارها خمسًا وأربعين دقيقة.

وقد امتلأت بالركاب بعضهم قد ركبوا من هذا المطار بدلاً من الذين نزلوا فيه قادمين من واغادوغو العاصمة ولم يبق فيها من الأوربيين إلا واحد.

وعندما ركبنا الطائرة وزعوا علينا قبل قيامها كيسًا من اللدائن يحتوي على شراب من التمر الهندي الذي ينتج ثمره في هذه المنطقة: منطقة السودان الغربي ويصنع الشراب فيها أيضًا وكان له وقع في نفوسنا لأننا كنا نعاني من العطش ولم نجد ما نشربه في المطار، وكنا نشعر بالحر حتى في هذا الصباح.

أما الإفريقيون الذين معنا فأكثرهم ينتمون إلى سكان منطقة السودان الغربي الذين هم ليسوا بالزنوج ولا يمثلون سكان المناطق الاستوائية الذين يسميهم الأوربيون بالبانتو أو الزنوج. وإنما أصولهم ترجع إلى سكان الصحراء الإفريقية التي كانوا يعيشون فيها قبل التصحر أي عندما كانت بلادًا مطيرة لم تصبح صحراء بعد. اضطرهم تصحرها إلى النزوح جنوبًا طلبًا للخصب والكلأ فتغيرت ألوانهم إلى السواد بسبب موقع البلاد فتغلبوا على سكانها السود أو اضطروهم إلى الذهاب عنها جهة الجنوب.

عندما نهضت الطائرة ولت وجهها شطر الشمال المائل قليلاً إلى الغرب قاصدة (باماكو) عاصمة جمهورية (مالي) الفتية، فقابلها سحاب كثيف انعكست على أعاليه أشعة الشمس التي لم ترتفع بعد في كبد السماء فغدا

كذوب الفضة الذي يأخذ منظره بالألباب. ونوره يبهر الأبصار، فرفع الطيار طائرته حتى تتفادى الاصطدام فيه إلا أنها دخلت مرغمة في أعاليه، فاهتز كيانها وإن كان لم يزايلها اتزانها.

أمضت الطائرة نصف ساعة وهي تطير فوق أرض خضراء كثيفة الإخضرار ثم بدأت كثافة الأشجار الكبيرة تقل وتركزت كثافتها في الوديان وسفوح المرتفعات ولم نر من الأنهار إلا نهراً واحداً هو نهر (باني) القادم من ساحل العاج وينتهي في نهر النيجر العظيم الذي يأتي إلى مالي من غينيا المسلمة.

وقبل الوصول إلى (باماكو) صار منظر الأرض مدارياً أي: ذا خضرة غير كثيفة وأشجار نضرة، ووديان من مجاري السيول ليس فيها إلا الرمل الذي خلفته. ويلاحظ أن الرمل فيها أبيض وليس أحمر كما في المناطق الاستوائية.

ثم شاهدنا نهراً آخر من روافد النيجر هو (سان كرن) وهو يغذ السير إلى منتهاه في النهر العظيم، ثم نهيراً آخر لم اعرف اسمه متجهاً أيضاً إلى النيجر.

فوق مطار باماكو :

تدنت الطائرة إلى أرض يغمرها بخار الماء وترصع خضرتها من تحت الطائرة قطع من الغيم بيض تبدو مسرعة في سيرها لأنها معاكسة لاتجاه الطائرة.

ثم ظهر نهر النيجر العظيم وكأنه في اتساعه ومنظره العام نهر النيل بالفعل وهذا إلى غيره من الأسباب مما حدا بأسلافنا العرب إلى تسميته بنهر النيل ظناً منهم أنه هو نيل مصر بعينه وليس نهراً آخر ذكره بذلك الإدريسي وابن بطوطة ونصا على أنه يذهب إلى مصر. أما الآخرون فإنهم يسمونه

النيل تسمية قد توهم أنهم يريدون أنه نهر كبير كما أن النيل نهر كبير بدليل أن عددًا منهم سموا نهر السنغال (نيل غانة) وقالوا: إنه شقيق لنيل السودان يريدون بنيل السودان هذا النهر.

وفي الريف بدت بيوت الطين المسقفة بالصفيح ولكنها مغايرة لما شاهدناه في فولتا العليا تلك تكون على هيئة مجمعات سكنية للقرويين، وهذه على هيئة بيوت متفرقة في مزارع واسعة مما ذكرني بمنظر البيوت في المزارع الأمريكية في الولايات المتحدة مع وجود الفوارق الكثيرة بينها بطبيعة الحال.

وتجلى الريف هنا مزروعًا معمورًا كله بزراعة ما بين حقول نضرة وأشجار كبيرة خضر وقطعان من الأبقار البيض ساعد لونها في هذا الجو المعشب الأخضر في موسم الربيع على أن ترى من البعد.

وذهبت أبحث عن المدينة: مدينة باماكو من الطائرة فلم تكن واضحة من المطار بسبب غيم فوقها.

في مطار باماكو :

بعد ساعة وخمس دقائق من الطيران هبطت الطائرة في مطار (باماكو) وهو جيد السفلتة فيه عناية ظاهرة وبدت أبنيته في حالة جيدة من النظافة والعناية.

وإلى موقف الطائرة تقدم عدد من إخواننا الماليين، أهل مالي بملابسهم الوطنية الواسعة ومعهم الأخ الكريم (عبدالعزيز أحمد زكي) القائم بالأعمال في سفارة المملكة العربية السعودية في باماكو وقد جاؤا لاستقبالي جزاهم الله خيرًا فقد كان أخبرهم زميلي السفير الدكوري بموعد وصولنا بالهاتف لأنه من أهل (مالي) أما أنا فإنه ليس من عادتي أن أخبر أحدًا بموعد قدومي من أجل أن يستقبلني، وإنما أفضل أن أصل كما يصل بقية المسافرين، حتى أطلع على حالة الاستقبال المعتادة للمسافرين.

وفي قاعة كبار الضيوف في المطار أو (صالون الشرف) كما يسميها عامة الكتاب أو كتَّاب العامة على التعبير الصحيح كان اجتماع المستقبلين وتقديم الضيافة السخية من المشروبات الباردة والحارة وبخاصة القهوة التي كانت بنا إليها حاجة.

ولفت نظري ونحن نستقر في قاعة الاستقبال أن أحد الأشخاص وقف عند بابها الخارجي وأخذ يتكلم بصوت مرتفع يشبه الإنشاد بشيء لا أفهمه بطبيعة الحال، فسألت الشيخ الدكوري عن ذلك؟ فقال: إنه الشاعر الذي ذكر ابن بطوطة وغيره أنه يقوم بين يدي سلطان السودان وينشده القصائد وأنه له منزلة كبيرة في المجتمع عندهم.

وقال الشيخ الدكوري: إن هذه العادة لا تزال لها بقية عند بعض الناس إذا أرادوا أن يرفعوا من قدر بعض الأعيان وكبار القوم - وإن تكن السلطنة قد ذهبت - فإنهم يفعلون ذلك يسترزقون به لأنهم يعرفون أن جهدهم الشعري لن يذهب هباءً.

وطبيعي أن هذا الشاعر لا يعرفني، وإنما وجَّه مدحه وإنشاده إلى زميلي السفير الدكوري الذي تبين لي فيما بعد أنه رجل معروف بالمكانة الرفيعة في نفوس الناس في بلاده وبالبذل والسخاء من ماله.

كان من بين المستقبلين في المطار عدد من الموظفين في الحكومة منهم مستشار رئيس الجمهورية للشؤون السياسية وممثل لوزارة الخارجية الذي ذكروا أنه سوف يرافقني مدة بقائي في مالي وعدد من الدعاة إلى الله الذين تدفع المملكة رواتبهم لقاء تفرغهم لشؤون الدعوة واثنان من المشايخ الذين كانوا تخرجوا من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة أثناء عملي فيها. ويعمل أحدهم الآن في السفارة السعودية في (باماكو).

في مدينة باماكو :

سار عدد من السيارات فيها الإخوة المستقبلون وفي إحداها الأستاذ عبدالعزيز زكي القائم بأعمال السفارة السعودية وأخ (مالي) من المستقبلين قاصدين مدينة باماكو من المطار الذي يبعد قليلاً عن العاصمة ولذلك كان المنظر بعد مفارقة المطار منظر الريف المعمور المزروع بحقول الذرة والمغروس بأشجار الفاكهة المثمرة في منظر يشعرك أنك في بلد متقدم زراعياً بل لا تتخيل أنك في إفريقية الخضراء يساعد على ذلك أنك ترى قطيعاً من الأبقار الضخام البيض أو التي التي يغلب البياض على لونها تقطع الطريق لولا أن السيارة تصل بك إلى محلة على الطريق منازلها مؤلفة من بيوت طينية وأكواخ هرمية. وطائفة من النساء اللائي يسرن في شارعها إضافة إلى سواد إفريقية فإنهن يحملن اطفالهن على ظهورهن بقماش مشدود إلى الظهر كما هي العادة الأصيلة التي تكاد تكون شاملة في إفريقية الخضراء.

فتعرف أنك في إفريقية الحقيقية ولكنك ربما تتذكر ثانية كما تذكرت أنا إذا كنت قد قرأت التاريخ القديم لهذه المنطقة بأنك في منطقة السودان الغربي ذات التاريخ القديم الحافل بالأمجاد الذي يعد مفخرة للسودانيين بل للإفريقيين أجمعين ومفخرة للمسلمين على مدى السنين. فتعرف أن اللون وحده لا يعطي دليلاً على عراقة الثقافة ولا على جوهر الشعب، سواء أكان ذلك اللون أسود أم كان أبيض أم أسمر فضلاً عن الأصفر.

ويمضي موكب السيارات قليلاً فيمر على يسار الطريق بمجموعة من البيوت الأسمنتية الحديثة المنظر الجميلة الموقع فيشير إليها الأخ عبدالعزيز زكي القائم بأعمال السفارة ويقول: هذه بنتها المملكة هدية لحكومة مالي.

ثم تمر على يمين الطريق ببناء كبير حديث فيقول الأخ عبدالعزيز زكي: إن هذا مركز لرعاية الأمومة والطفولة بنته المملكة العربية السعودية.

وتمضي السيارات مع الطريق الأسفلتي الجيد على جانبيه نبات الذرة العالي جداً حتى يبلغ طول رجلين اثنين من دون مبالغة.



جسر باماكو على نهر النيجر

ثم اجتزنا الجسر الرئيسي على نهر النيجر الذي هو في عرض نهر النيل تقريباً من هذه الناحية وأشار الأخ عبدالعزيز زكي جهة الشمال قائلاً: هذه المنارات البيض العالية إنها منارات جامع الملك فيصل وهو المسجد الكبير الذي قامت المملكة العربية السعودية ببنائه في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله وقدمته هدية لشعب مالي الشقيق. وأضاف: على ضفة النهر الشمالية هذا البناء الكبير إنه فندق الصداقة (اوتيل إميتي) بالفرنسية الذي ستسكنون فيه.

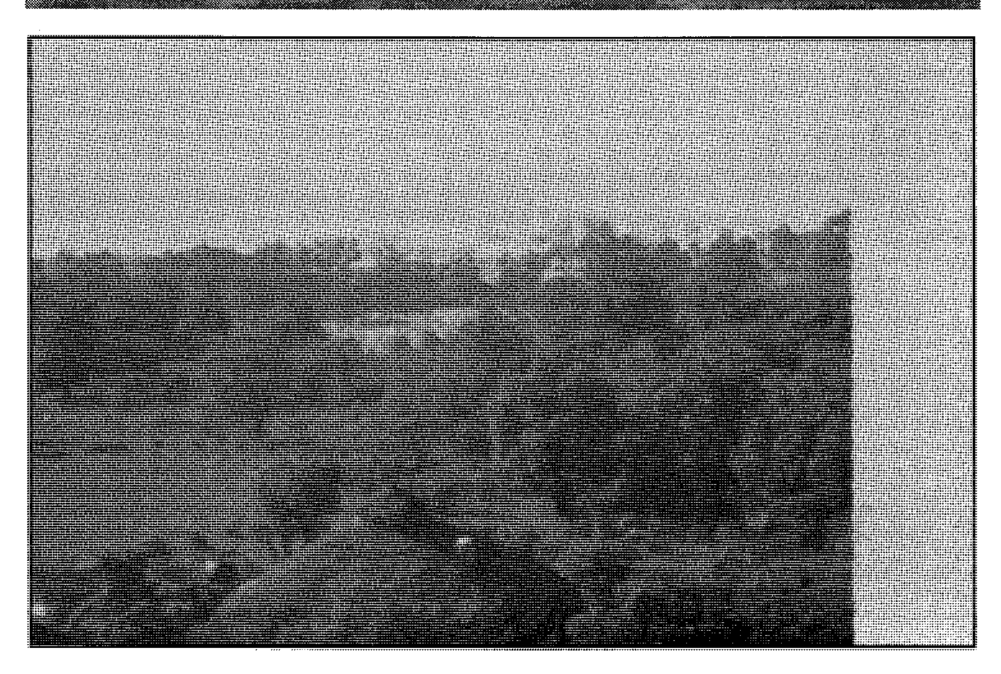
وهو الفندق الرئيسي الأحسن في باماكو وقبله كان الأول الفندق الكبير (قراند هوتيل) غير أن هذا قد تجاوزه في البناء والموقع فذاك في وسط المدينة وهذا في حديقة على حاشية نهر النيجر.

وجدنا الحكومة قد حجزت لنا غرفتين احداهما بقاعة استقبال (سويت) تطل على حديقة الفندق بل حدائقه وعلى مشرب في تلك الحديقة جميل في ركن منه بركة للسباحة بل برك وقد جعلوا الظلال حوله من اكواخ إفريقية على هيئة الخيام المنصوبة من دون أروقة، أو كالمظلات الواقية من الشمس والمطر ولعل الأصح أن نسميها شمسيات لأنها تقي من الشمس أكثر ما تحمي عن المطر. إضافة إلى ظلال الأشجار الكبيرة التي لا شك في أنها كانت موجودة قبل بناء الفندق وإنما نسقوا وجودها وقطعوا ما يعترض التنسيق منها. وفي هذه الحديقة طيور غريبة منها نوع يشبه الطواويس السود ونوع من الغرانيق وهي كاللقالق البيض. وقرد غريب أيضاً ولكنه ليس طليقاً، وإنما هو حبيس في قفص.

ومن خلف هذه الحديقة يقع البصر مباشرة على نهر النيجر أو النيل كما سماه أسلافنا العرب وهي تسمية جديرة بالايحاء إذا كان المراد بها أنه نهر كبير يماثل في كبره نيل مصر.

والغريب في الأمر أن المؤرخين الجغرافيين من العرب كانوا يسمون هذا النهر (نيل السودان) ولم يكونوا يسمون نيل مصر بهذا الاسم مع أنه الآن يقطع من أراضي القطر المسمى بالسودان في الوقت الحاضر أطول مما يقطع الأراضي في مصر، ولكن تسمية القطر السوداني الشرقي بهذا الاسم السوداني هي حديثة بالنسبة إلى تسمية السودان الغربي في الكتب العربية القديمة.

ومما يزيد منظر النيل هذا شبهاً بنيل مصر وجود الجسر الوحيد الذي يربط بين الضفة الشمالية حيث المباني الرئيسة بل حيث المدينة في معظمها يشاهده المرء عامراً بالسيارات الذاهبة والآيبة وبين الضفة الجنوبية ذات المنظر الريفي لأن المساكن فيها قليلة، وخلف ضفة النهر أماكن مرتفعة



حديقة فندق الصداقة في مالي (باماكو) ونهر النيل والجسر عليه

ارتفاعًا قليلاً يشاهدها المرء خالية من المنازل مثل رواب مرتفعة خضرة تحيط بشمالي العاصمة فتغلق الأفق البعيد بستارة خضراء جميلة.

فالعمارة إذًا في جنوب النهر أقل بكثير من شماله. وفي شرقه هي قليلة جدًا على الضفتين وإذا وجدت فهي ليست واقعة مباشرة على النهر، لأن ضفاف النهر تحتاج إلى إصلاح الضفاف حتى تصمد للمد وقت زيادة النهر وحتى تتحمل الأبنية والطرق، وحكومة (مالي) الحاضرة مازالت حكومة ضعيفة الموارد، فقيرة في العملات الأجنبية اللازمة.

والأهم من ذلك أنها مثل غيرها من الدول القليلة النمو لا تستطيع استغلال مواردها المتاحة استغلالاً كاملاً وحتى شعبها فإنه ليس منتجاً بالقياس بالدول المتقدمة وإن كان يعد متقدماً في هذا الأمر بالنسبة إلى أكثر جيرانه في القارة وزملائه في الوقوع تحت الاستعمار الفرنسي في السابق حاشا الجمهورية الجزائرية.

بعد الاستراحة في الغرفة نزلت مع صديقي السفير الدكوري إلى مطعم الفندق للغداء فكان ما لفت نظري في قاعة الاستقبال فيه وجود أعداد كبيرة فيها من الناس الذين يظهر أنهم ليس لهم عمل معين وإنما ينظرون إلى المارة وإن كانوا قد يستفيدون من ذلك في أشياء أخرى من عمل غير مباشر في الفندق مثل صفقة تجارية أو تعرف على شخصية مهمة، حتى إن بعضهم ينتظر أن يصادف أو يلاقي شخصاً من الأسر العريقة من أهل مالي فينظر إلى يده لتمتد إلى جيبه في حركة لا تتطلب الاستجداء باللسان ولكنها يقتضيها العرف. فأهل مالي لا تزال فيهم من العادات القديمة عادة النظر إلى أن ذوي المقامات فيهم يجب أن تكون أيديهم ندية، وأنفسهم أريحية، وبعض الناس قد يكون في الفندق له قريب أو قريب لقريبه من ذوي الثراء فالثري عندهم لا يبخل بالعطاء على من يمتون إليه بالصلة ولو كانت بعيدة.

وهذا الكلام بطبيعة الحال هو على الأعم الأغلب وليس قاعدة عامة مطردة.

وقد ذكرني منظر القوم المجتمعين في قاعة الاستقبال الخارجية في الفندق أو في المقهاة القريبة منها منظر أخوة لنا آخرين في فندق (جوبا) الذي كان الفندق الأول في مدينة مقديشيو بالصومال فقاعته كانت كما عهدتها لا تخلو من أناس جالسين أو متحدثين ليس لهم إلا مطالعة الغادين والرائحين أو تتبع أخبار القادمين والمغادرين.

كان الطعام في مطعم الفندق جيد النوع، وافر الكم، والمطعم نظيفاً، أما السعر فإننا لا نعرفه لأننا ضيوف الحكومة علينا التوقيع وعليها الدفع.

وبعد الغداء قضيت فترة للراحة اشتدت فيها كثافة السحب فأظلمت السماء، واشتد قصف الرعد حتى كان هذا الفندق المكون من خمسة عشر

طابقًا يتأثر كيانه عند هزيم الرعد فتتحرك أبواب النوافذ والحوائط بين الجدران.

ثم انهمر المطر بكثرة غريبة ففرح القوم بذلك لأن موسم الأمطار على وشك الانتهاء وذلك في آخر شهر سبتمبر مثله في ذلك مثل فولتا العليا التي قدمنا منها لأنهما جميعًا في منطقة واحدة من هذه الناحية والمراد بذلك من مالي ما كان في إفريقية المدارية، أو ساحل الصحراء كما يعبرون عنه. وعماد هذه البلاد على الزراعة وتربية الماشية وبخاصة تربية الأبقار.

كان موظفوا الاستقبال قد وضعوا لنا سيارتين جديدتين لكل واحد سيارة وعينوا مرافقًا ملازمًا من المراسم في وزارة الخارجية اسمه واكر أي أبو بكر بابا وسائق سيارتي اسمه (دابا كونيه) ولا يحتاج الأمر إلى القول بأنهما مسلمان لأن اسم الأول مسلم ولأن مالي بلاد مسلمة تبلغ نسبة المسلمين فيها حوالي ٩٠٪ وغير المسلمين فيها أغلبهم من القبائل البدائية في الجنوب.

لذلك إذا اطلقت كلمة (مالي) التي يراد بها مواطن من جمهورية مالي فإنها تعني في أذهان الناس مسلمًا عريقًا في إسلامه، وهذا حق كما سيأتي في الكلام على تاريخ مالي القديم في آخر الكتاب.

كما أمر الزميل الشيخ الدكوري أحد موظفي مكتب الرابطة بأن يكون ملازمًا معي في كل وقت احتاج فيه إلى خدمة من ليل أو نهار، وهو الشيخ أيوب مختار متوكلي أصله من الجنوب الشرقي من موريتانيا وتكاد تعرف ذلك من لهجته بالعربية ولو لم يخبرك به مع أن لونه هو لون سكان مالي، وليس لون الموريتانيين.

والشيخ أيوب يعرف العربية جيدًا بل يعشق الأدب العربي عشقًا ويحفظ كثيرًا منه ينشدني إياه في المناسبات وإذا أنشدته شعرًا غريبًا عليه استكتبه مثل قول الشاعر :

شربنا شرابا طيبا عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

جولة لم تتم :

صحبني الشيخ أيوب مختار وصحبنا مندوب المراسم على السيارة الحكومية للقيام بجولة على سوق باماكو إذْ لم استطع مغالبة الصبر عن ذلك إلى صباح غد.

كان المطر لا يزال يهطل غير أنه كان قد خف فقدرت أنني استطيع أن أرى ما أريد رؤيته وقت العصر الذي لم يبق فيه إلا رمق من النهار لأن (امير النهار أوله) كما تقول العامة غير أنني لم أرد أن أقضي كل بقية النهار في الفندق بعد أن حبسني المطر عن ذلك بضع ساعات.

دخلنا السوق ولم استطع النزول من السيارة لأنه وإن كان المطر قد خف فإن أرضه الطينية قد أصبحت (حيص بيص) وحيص بيص البلاد المتخلفة في الإدارة غير ذلك الذي يكون في البلدان الأخرى المتقدمة، تلك قد يكون فيها الماء وحده ولكن هذه يكون فيها مع الماء أشياء لا يطهرها الماء أو تجعل الماء لا يطهر شيئًا.

وقنعت بأن أنزل من السيارة وأقف بالقرب من باب أحد الحوانيت لمشاهدة بعض المبيعات التي استغربتها. ومنها نوع من البسر سألتهم عن اسمه فأجابوا (تمارو) وقال الشيخ أيوب من دون حاجة إلى ذلك: إنه (تمر) نسميه (تمارو) فقلت: هذا أعرفه ولكن الذي أريد أن أعرفه هو منبت نخله لأنه طري غض فقال: إنه ليس في (باماكو) ولكن إلى الشمال منها، إن البلاد هنا وبخاصة بلدي التي أنا منها، والشيخ عبدالوهاب الدكوري منها (مرجي) على بعد مائة وثمانين كيلاً من باماكو إلى الشمال فيها نخل يطلع مثل هذا التمر ولكنه ليس جيدًا كالتمر الموجود في البلاد العربية. فاشترينا منه شيئًا في حدود الكيلو بمائة فرنك أي نصف ريال سعودي ولكنني عندما ذقته وجدته شيصًا لا بسرًا وقلت لعله طَلْعٌ لم يلقح فهو هكذا يكون في بلادنا.

ورأيت عروق اليام أو (المانيوك) بالفرنسية وهو الذي يشبه البطاطس على البعد إلا أنه أكثر خشونة منه وهو مستطيل استطالة غير مستقيمة فهو يشبه عروق الأشجار وهو غذاء لبعض الشعوب الافريقية.

وبدأ المطر يتساقط خفيفاً فمنعني من إخراج مذكرتي أو الكتابة فيها ومع ذلك فإن عدد الناس في السوق كان كثيراً جداً ولم يمنعهم الوحل أو الماء الناقع في الأرض من التجول فيه أو لعلهم لم يكونوا يقصدون التجول وإنما قصدوا قضاء حاجات لهم ضرورية.

وبعض البسطات أو البضائع الخفيفة منشورة على الرصيف منعها المطر من أن تنشر على جانب الطريق هي مع النساء كما هي العادة الإفريقية الأصيلة.

أما الحوانيت فإنها مع الرجال وهي حوانيت كبيرة متلاصقة إذا رأيتها ورأيت بضائعها تشعر بأنك في البلاد العربية أو الهند فهي كبيرة ومليئة بالبضائع وهم بذلك يفارقون بعض الأفريقيين أو لنقل أكثرية الأفريقيين الذين يفضلون أو هم قد اعتادوا على بيع بضائعهم منشورة على الأرض أو فوق عربات ولا يكون لديهم في الغالب حوانيت كبيرة فيها جمل من البضائع كثيرة.

ولم استطع التصوير بسبب الظلمة من السحاب لذلك عدنا إلى الفندق بسرعة بعد أن حاولنا أن نصور أحد المساجد التي مررنا بها فلم نستطع.

أما الانطباع عن شوارع المدينة فإنها غير جيدة بل الشوارع الداخلية في حالة سيئة فبطونها طينية وليست طيناً متساوياً بل فيها أخاديد وحفر ونقر حفرتها السيارات وزادها سقوط الأمطار سوءاً لأن السائق لا يعرف عمق الحفرة المليئة بالمياه في بعض الأحيان.

وأما الانطباع الأول عن عامة الشعب فإنه الشعب السوداني الأصيل وإن شئت بالتعبير العامي في الحجاز فإنه الشعب التكروني المعروف لدينا وليسوا بالبانتو ومن يسمون الزنوج سكان خط الاستواء في افريقية فأولئك لهم مظاهر أخرى من جسدية ونفسية وعادات وطبائع غير هؤلاء.

على أن المرء لا يخطيء بصره أقلية قليلة ممن بوحي منظر أفرادها بأنهم من الجنوب أي من خط الاستواء أو ما قاربه وليسوا من السودانيين، وهذا صحيح فهؤلاء كانوا في الأصل موجودين عند السودانيين أو التكارنة بمثابة العبيد أو الأرقاء.

وفي هذا الزمن الأخير جاء بعضهم إلى المدن يبحثون عن الرزق والعمل من الأماكن الجنوبية في البلاد فهم على هذا غير داخلين في مسمى السودانيين من حيث التعبير العام وإن دخلوا من حيث الاصطلاح القانوني مثل أهالي جنوب السودان الشرقي أي العربي - بالمهملة -.

ومن المناظر التي يلمحها البصر وتدله على أنه في بلاد السودانيين (التكارنة) مناظر نساء على رؤسهن آنية من القرع وأطفال صغار عراة. إلا أن هناك ما يشده ويثبت في ذهنه أنه ليس في بلاد الزنوج من ذلك البيوت من الأسمنت فيها حوانيت كبيرة وبيوت في أفنية بعضها نخلات عالية وإن كان النخل هنا لا يتمر تمراً ذا بال.

عندما رأيت زحام الناس وكثرتهم في هذا السوق رغم نزول الأمطار سألت مرافقنا الشيخ أيوب مختار عن عدد زوجاته؟ فأجاب: إنهن أربع ولو سمح لي الشرع بالزيادة لزدت أما أولاده فإنهم خمسة عشر فقط تسعة ذكور وست بنات.

الحبس في الفندق :

عدنا إلى الفندق قبل غروب الشمس بحوالي نصف الساعة ولم نغادره مضطرين بسبب نزول المطر الذي لم يدع لنا فرصة الاستفادة من آخر الوقت إلا في مشاهدة ما يجري في داخل هذا الفندق.

ومن أجمل المناظر الجلوس في شرفة الغرفة في الفندق ومراقبة المطر وهو ينزل كأنه ينشر أردية شفافة على نهر النيجر وضفافه الخضر لأن الشرفة واسعة بديعة والبصر يجول حراً طليقاً في المنطقة.

وبعد أن قضيت وقتًا في الغرفة نزلت إلى قاعة الاستقبال ثم مقصف هناك مجاور لها فرأيت من عامة هؤلاء الإخوة الماليين أنهم كالمغاربة والتونسيين في عادة التقبيل من حيث كثرته وكون الرجل يقبل الرجل تقبيلاً حقيقيًا على خديه عندما يقابله.

وكذلك قد يقبل الرجل المرأة على خديها والناس ينظرون كما يفعل الفرنسيون ولكنه تقبيل السلام الذي يكون على الخدين فقط ولا يكون طويلاً. وليس تقبيل الغرام الذي يعني الالتصاق والالتحام كما يكون في بلاد الإفرنج على وجه العموم.

ولاحظت أن هناك أعدادًا من الناس موجودون في الفندق إما للسلام على النزلاء أو لمجرد إزجاء الوقت ومما لاحظته أن عدد النزلاء في الفندق من المواطنين السودانيين كثير على خلاف العادة في كثير من البلدان الإفريقية حيث يكون نزلاء الفنادق الراقية من الأجانب.

يوم الأحد ١٤٠٢/١٢/٩ هـ

مناظر صباحية :

وقعت عيناي هذا الصباح على مجموعة من المناظر الجميلة أولها المنظر الطبيعي للنهر فوقه الجسر وبعده تمتد الروابي الخضر وعندما أغلقت الغرفة لأنزل إلى الإفطار مررت بمنظر طبيعي جميل للهضاب الشمالية الخضراء دونها تقف منارتا جامع الملك فيصل في بياض يرمز للطهر من الدنس وشموخ يرمز لعدم الخضوع أو التواضع إلا لله سبحانه وتعالى.

غير أنني عندما وصلت إلى المطعم رأيت مناظر غير جميلة ذلك لأنها تماثيل لقوم من الأفريقيين المحليين وقد بالغ رساموها في إبراز خصائص الجسم الأفريقي إلى درجة التشويه من ذلك نتوء الشفتين وعظم الاليتين وضخامة الصدر عند النساء وتقوس في الظهر وما شئت من مناظر يستحى منها لتماثيل من الخشب أو الصلصال لا أدري وهي عارية مما لا يجد الناظر إليه أي شيء من الجمال.

ولو كانت هذه التماثيل عندنا لاعتبرنا ذلك من باب الاستهزاء بنا والتشويه لمظاهر قومنا.

الأمن :

لم أرهم يحتاطون للأمن فليس في غرف الفنادق نشرات تحث النزيل على الاحتياط لما معه عن السرقة أو الانتهاب أو تبرئ جانب الإدارة مما قد يسرق له أو يفقد منه في الغرف، أو حتى مفاتيح الغرف فإن كثيراً من النزلاء يعطونها الخدم أو الرفاق ليحضروا منها شيئاً لهم.

وهذا بلا شك سببه قلة السرقة والانتهاب عندهم إما للتربية الدينية

للشعب وهذا هو الأقرب، وإما لشدة الشرطة في ذلك وربما كان هذا من بقايا العادات الحميدة في الأمن وعدم السرقة التي ذكر ابن بطوطة أنها كانت موجودة عندهم في القديم كما تقدم ذلك عند نقل كلامه في أول الكتاب. ولقد علمت بعد ذلك أن الأمن شامل في البلاد وأن الإنسان يستطيع أن يسير في الليل في الشوارع وحده لا يخاف من شيء.

وهذه مفخرة لهذا الشعب المسلم الذي لم يحمله فقره على أخذ ما لا يستحقه كما تفعل بعض الشعوب غير المسلمة التي هي أغنى منه فضلاً عن الشعوب الغنية كالولايات المتحدة الأمريكية التي لا يستطيع المرء ولو كان مواطنًا أن يسير وحده في الليل في أكثر شوارع المدن الكبيرة فيها لا سيما إذا كان يحمل شيئًا ذا قيمة.

جولة في مدينة باماكو :

معنى اسمها: (نهر التمساح) أو (جدول التمساح) باللغة البامبرية – لغة البامبارا – فكلمة (باما) فيها تعني تمساحًا و(كو) نهر صغير أو جدول. ويبلغ عدد سكانها ستمائة ألف نسمة.

وهي عاصمة دولة مالي التي يبلغ عدد سكانها سبعة ملايين وخمسمائة ألف نسمة، دخلها المستعمرون الفرنسيون في عام ١٨٨٤م. وجمهورية مالي أغلبها صحراء قاحلة وجزء منها ما يسمى بالساحل المراد به ساحل الصحراء يعني المنطقة الواقعة على شفير الصحراء وإلا فإنه ليس لها سواحل بحرية.

ومع ذلك فإن منطقة (باما كو) لا هي بالصحراوية ولا هي بالشبيهة بالصحراوية بل هي في منطقة مطيرة وإن كان مطرها له مواسم معينة كما في أكثر المناطق غير الصحراوية ويخترق تلك المنطقة نهر النيجر العظيم

فيزيدها ريا على ري، ويمدها بالماء العذب النمير الذي لا يعتمدون عليه في الزراعة لأنهم يجدون في الزراعة على المطر مصدراً للري الطبيعي السهل وأقل مؤونة من الماء المجلوب من النهر لأن النهر ذو ضفاف مرتفعة في بعض الأماكن وليس عند القوم استعداد لتوفير الآلات الزراعية الكبيرة ولا عندهم نقود وافرة يستطيعون بها أن يشقوا القنوات الاصطناعية الكثيرة إذا أخلفهم المطر قامت مقامه وإذا لم ينتظم نزوله إنتظمت مياهها انتظامه.

بدأت الجولة في التاسعة من هذا الصباح وكان الرفقاء فيها الشيخ أيوب مختار. والأخ واكر بابا موظف المراسم على سيارة وزارة الخارجية التي لا يعدم قائدها الأخ داباكو نيه أن يشارك في إفهامي بعض ما أريد إذا لم يكفني إفهام القوم وإن كان ذلك يتم بوساطة لغة أخرى ما بين لغتي العربية ولغته (البامبارية).

فمررنا بالسوق المزدحم الذي رأيناه أمس فرأينا زحامه قد زاد اليوم وذلك رغم أن اليوم الأحد عطلة رسمية فمثل هذه الأسواق لا تعترف بذلك لأنها أسواق قائمة في الأساس على عامة الشعب وعدد الموظفين في الدولة والشركات قليل جداً بالنسبة إلى غيرهم، كما أن أهل الحوانيت فيه والباعة الصغار لا يلقون بالاً للعطلة الأسبوعية فضلاً عن أن يتركوا العمل فيها. والجو في هذا الصباح بديع فهو صاحٍ بعد يوم ماطر لم يبق من مطره إلا لطف في الجو ومناقع في الشارع.

أوقفنا السيارة في ركن من السوق على حافة الشارع الرئيسي فكانت قرب مجرى للمياه القذرة التي تختلط بمياه الأمطار، وهذه عادة نعرفها من أكثر البلدان الاستوائية وبخاصة في أفريقية إلا أنهم هنا قد سقفوا جزءاً منها بألواح من الأسمنت المسلح وتركوا بعضها.

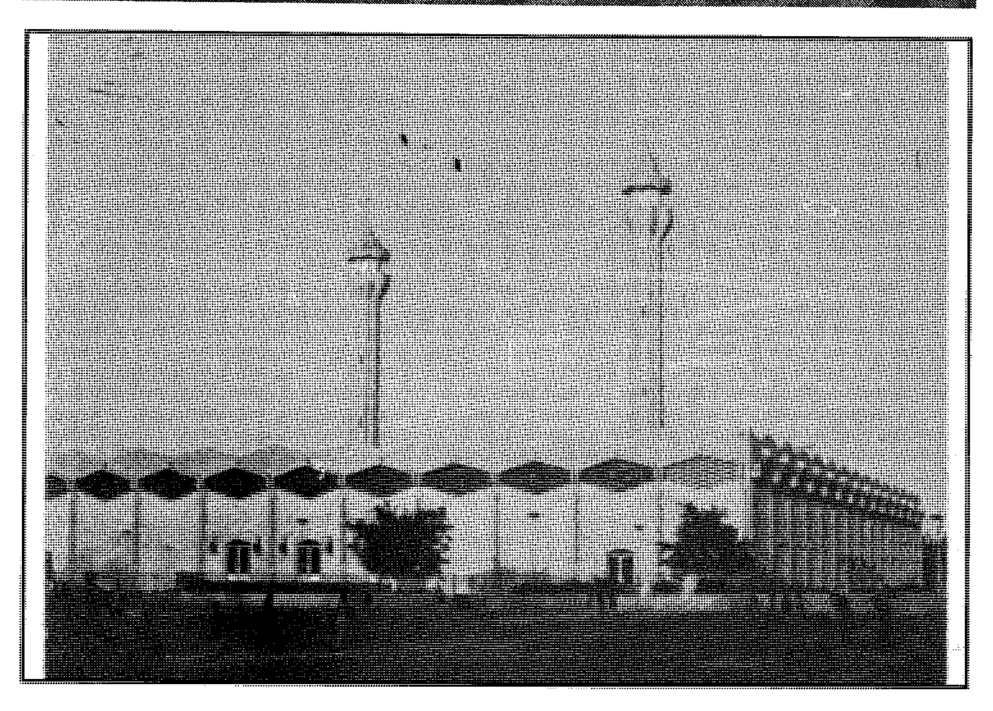
أول ما رأيت في السوق حمامات خضر مع أطفال يبيعونها فذكرني هذا بالماضي البعيد في بلادنا حين كان بيع الطيور من الحمام والدجاج مقتصراً على الأطفال واشباههم ولا يتعاطاه الرجال لأنه قليل ولأن ذلك يعتبر غير لائق فالرجل في ذلك الوقت يليق به أن يبيع بعيراً أو بقرة أو شاة أو حتى عنزاً أو حماراً ولكن لا يليق به أن يبيع أرنب أو دجاجة فضلاً عن الحمامة.

سألنا أحد الأطفال عن قيمة هذه الحمامة الخضراء فأجاب: ثمانون فرنكاً ويساوي ذلك قرابة ثلث ريال، وعلى وجه التحديد ثمانية قروش سعودية وهي عندنا تساوي عشرة ريالات.

جامع الملك فيصل :

يقع جامع الملك فيصل غير بعيد من الأسواق الرئيسية وسموه بذلك لأن المملكة العربية السعودية قامت ببنائه حسب أمر الملك فيصل -رحمه الله-.

وهو الجامع الرئيسي في المدينة ويبدو واضحاً من أكثر أنحاء المدينة لسموق في مناره، وارتفاع في موقعه تحيط بالجامع حديقة جيدة منسقة واسعة وبعدها رصيف عريض جيد قد غرست فيه بعض الأشجار وقد شغل هذا الرصيف العريض في هذا الصباح الذي لا يؤم المسجد فيه مصلون جماعة من الناس فيهم عدد من الحجامين الذين يحجمون المارة ورأيت أحدهم قد أثبت أربع محاجم في عاتق رجل ضعيف الجسم يبدو من منظره أنه بحاجة إلى أن يعطي دماً لا أن يؤخذ منه الدم والمحاجم أي أدوات الحجامة هي من قرون الحيوان يضع الحجام جانبها الغليظ على المكان المراد حجامته بعد أن يقطع بالموسى الجلد الأعلى قطعاً خفيفاً على هيئة شرطين أو ثلاث ثم يبدأ بمص الطرف الدقيق من القرن حتى يجذب الدم من داخل الجلد إلى المحجم.



جامع الملك فيصل في باماكو

وهي وسيلة من وسائل العلاج التي كانت منتشرة في القديم ترجع فائدتها إلى أنها تخفف من ضغط الدم تخفيفًا مؤقتاً وترجع أضرارها إلى أشياء كثيرة منها تلوث الجرح، واستنزاف دم من شخص قد يكون محتاجًا إليه إضافة إلى خطر نقل الحجام وأدواته المرض من شخص إلى آخر.

وقد رآني أحد الحجامين أنظر إليه فرفع محاجمه وقال لي بالعربية: تعال؛ إذ تبين أنه يعرف قليلاً من العربية أما الحلاقون على رصيف المسجد الذي هو بالنسبة إليهم بمثابة الحانوت المجاني فإنهم كثير.

وبينما كنت أتحدث مع هؤلاء وانظر إليهم إذا بسيارة للشرطة وأناس مجتمعين حولها ثم بشخص مصاب يحمله اثنان على أيديهما إلى السيارة وتبين أنه كان يركب الدراجة فصدمته سيارة وذلك في مكان قريب من الجامع كنا فيه قبل دقيقتين، ولم يكن الحادث قد وقع مما يدل على سرعة نقل

المصاب وعدم إهماله ولما سألت الشيخ أيوب مختار عن ذلك لأتأكد منه قال: إن الناس حنانًا منهم يحملون المصاب إلى السيارة أو المستشفى ولو لم يكن ذلك من اختصاصهم.

وذكرت بهذه المناسبة حادثة شاهدتها بنفسي في مدينة إبادان في نيجيريا ظل فيها شخص مصاب متروكًا على قارعة الطريق دون أن يسعفه أحد. وعلمت بعد ذلك أنه يحدث أن يترك المصاب فلا تنقل جثته من الطرق السريعة حتى تتعفن.

عندما أردنا الدخول إلى الجامع أسرع الحارس واسمه (سوفو بابا مبلي) بفتح الباب فرأينا المسجد واسعًا ذا أعمدة مربعة في داخلها أماكن لوضع المصاحف وكلها مكسوة بالرخام الجيد من أسافلها إلى قرب السقف، وسقفه قباب صغيرة على هيئة الخيام المسترخية.

والمسجد الداخلي ذو قسم أمامي عالي السقف بعده رحبة مكشوفة يحيط بها رواقان غير واسعين وخلف ذلك قسم آخر مسقوف في نصف ارتفاع الامامي لأنه جعل طابقين الأعلى منهما لصلاة النساء يوم الجمعة.

والحقيقة أن هذا المسجد هو من الأمثلة المشرقة في التعاون بين المسلمين على البر والتقوى إذ قامت المملكة العربية السعودية ببناء هذا المسجد للإخوة المسلمين الذين هم في حاجة إلى مثله وقد عمروه بطاعة الله وذكره وبقي شاهدًا حيًا على ذلك التعاون وسوف يبقى كذلك إلى ما شاء الله من الدهر من غير أن يترتب على ذلك التعاون أي نوع من أنواع التدخل في الشؤون الداخلية لهؤلاء الإخوة سواء فيما يتعلق باستعمال هذا المسجد وادارته أو غير ذلك.

وخرجنا من هذا المسجد الجامع الحديث لأرى على الباب الخارجي لحديقته عددًا مما يسمى عندنا بالأزيار جمع زير وهو الجرة الكبيرة من

الفخار التي يوضع فيها ماء الشرب ليبرد حتى يشرب منه من يحتاجون إلى ذلك من المصلين.

وهذا كان مستعملاً في بلادنا قبل وجود الأنابيب الكهربائية التي تبرد الماء.

عود إلى السوق :

ثم عدنا إلى السوق الذي لم يكن بعيداً من الجامع بل كان مجاوراً له من جهة الغرب فوقفت على رجل كلمني بعربية فصيحة وهو أسود اللون قال إنه من موريتانيا وإن اسمه (سيد إبراهيم) ويبيع البخور والمصطكى وأرانا شيئًا عنده شبيهاً بالحجارة الرخوة قال: إنه دواء للحوامل عن الوحم.

وشيئًا ذا حب أسود كحبوب البن قال: إنه للبخور وهو غير معروف في بلادنا.

وهذا الأخ الذي يعرف العربية هو موريتاني في الأصل كما قال ولذلك لم نعجب حين قال إنه يعرفها ولكن جاراً له في متجر آخر تبين أنه يعرف العربية مع أنه مالي الأصل والفرع وحين سألناه عن المكان الذي تعلم فيه العربية؟ أجاب بأن ذلك كان في مالي ولكن كان قد زار الخرطوم واسمه (أحمد محمود فوتابو).

ورأينا جانباً من السوق قد بني على طراز البناء المالي القديم له شرفات واقفة وقوفًا حاداً غير مجوفة حتى تشبه أن تكون المنارات الدقيقة الصغيرة التي توضع على المساجد في بعض أنحاء الهند إلا أنها هنا متقاربة وأما الباعة فإنهم الشعب المالي المسلم ولذلك لا مجال للاستدلال بالقميص الطويل والطاقية على أن الشخص الذي يرتديهما من المسلمين فالملابس هنا متنوعة ولكنها كلها ملابس وطنية أصيلة، أما الملابس العالمية المسماة بالإفرنجية

فإنها لا تناسب الجو في هذه البلاد إلا القميص القصير الأكمام والسروال وهو موجود بالفعل ولكن على قلة.

والسيارات التي تمر في الشوارع معتدلة العدد بالنسبة إلى الحالة الاقتصادية في البلاد فلا هي بالكثيرة ولا بالقليلة وأما الدراجات فإنها قليلة، لا سيما عند المقارنة بكثرتها في (واغادوغو) عاصمة فولتا العليا التي قدمنا منها إلى باماكو.

والمرور يسيره رجال المرور بالإشارات من أيديهم فإشارات المرور الضوئية قليلة وما عدا ذلك فإنه متروك لذوق السائقين وحسن تصرفهم فيما بينهم ولقد لاحظت أنهم يتمتعون بذوق رفيع في هذا المجال وقلما توجد بينهم مماحكات أو مخاصمات عند أفضلية المرور والناس يعرفون كيف يتصرفون في الشوارع التي تمر بها السيارات مما يدل على ذوق عام رفيع.

أما إتجاه السيارات فإنه إلى يمين الطريق كما هو في أكثر بلاد العالم في الوقت الحاضر هذا مع أن حالة الشوارع والأزقة رديئة إلى درجة تلقي على سائق السيارات عبئاً نفسياً، إذ هي مليئة بالحفر والنقر ولا سيما بعد نزول المطر فلابد للسائق من التأني والذهاب بسيارته يمنة الشارع ويسرته لتفادي الحفر الأعمق والعوائق الأشد، وإلا فإنه لابد من العوائق إذ الشوارع المسفلتة قليلة، وبعضها قد سفلت سفلتة رديئة لم ترمم فأصبح أسوأ من الطرق التي لم تسبق سفلتتها.

أول مسجد في باماكو :

طلبت أن أرى مسجداً من أقدم المساجد في مدينة (باماكو) التي هي في الحقيقة لا تعتبر مدينة قديمة إذ يقال إن عمرها لا يرقى إلى أكثر من ثلثمائة سنة ولكن المراد هو مشاهدة طراز بناء المساجد فيها قبل وصول الأوروبيين

إلى البلاد لأن ذلك يعطي صورة أو فكـرة عن البناء الذي هو أقدم من ذلك لا سيما في هذه البلاد التي تتسم طبيعتها بالمحافظة على القديم.

ذهبنا إلى حي قديم اسمه (نيارى) على إسم قبيلة أو فصيلة من قبيلة كانت مـن أوائل مـن سكـنوا فـي بامـاكو. فكـان أول من قـابلـنا عـند المسجـد الأخ (سليمان نيارى) وهو من القبيلة نفسها فكان معه مفتاح المسجد.

فـرأينـاه مبـنيًا بـالطـين المطـلـي بالجـص والنـورة الزرقـاء ماعـدا أساسـه فبالحـجارة، وأعمدته غلـيظة جداً تكـاد من غلظهـا أن تشغل نصف مـساحة المسجـد لأنها من الطين المـطلي بالنورة وسـقفة من الخشب الـذي طلاؤه من النورة أيـضاً، وقد وضعوا بـين الأخشاب الكـبيرة التي يـعتمد عـليها الـسقف أخشاباً صـغـيرة. بمثابة الجريـد الذي كنا نضعـه في أسقف المنازل عـندنا في القديم.

وقد قالوا لنا: إنه أول مسجد جمـعة في (باماكو) ولا أدري صحة ذلك غير أن القرائن تدل على أن ذلك صحيح لأنه قـديم البناء غريب الطراز، ويقع في حي من أقدم أحياء العاصمة. واسمه (مسجد نيارى لا).

وذكروا أن صلاة الجمعة تقام فيه منذ أربع وسبعين سنة.

ولـلمسجـد محراب مـتطامـن السقف غـير متـسع علـى خلاف العـادة في غرب إفريقية حيث تكون المحاريب في العادة واسعة وفي جانب من المحراب شيء يضع مثله أهل الـهند في مساجدهم وهو علبة صـغيـرة يتفل فيها الإمام إذا احتـاج إلى ذلك ولا أدري لـم لا يتفـل في منـديل، أو خـرقـة معتـادة مما لا يحتاج إلى تنظيف من خادم المسجد.

كان قـد اشترك معـنا في الحديـث عن المسجـد وهو يتجـول معنا فـيه الأخ (عبدالرحمن المساوو) من أهل الحي.

ونظرًا لغلظ الأعمدة فإن الذي يكون في أي مكان منه لا يستطيع أن يرى أكثر من ربع من في المسجد لأنها تحول بينه وبين رؤية بقية المصلين حتى الإمام لا يستطيع أن يرى كل المأمومين وإنما يستطيع المأموم أن يرى الصف الذي هو فيه وجزءًا صغيرًا من الصفوف التي أمامه بقدر ما تسمح به المسافة بين العمودين.

وعدا المظهر القديم جدًا للبناء، فإن هناك مظهرًا قديمًا آخر فيه وهو أنه مفروش بحصر قديمة من خوص بعض الأشجار.

قبر الإمام :

خرجنا نتمشى في فناء خارجي للمسجد فرأينا قبرًا عليه شاهد بالعربية. بادرونا بالقول إنه قبر الإمام إمام المسجد فقرأت الكتابة العربية عليه وهي بخط سوداني واضح:

(توفي الإمام (مسري كرمغ) رحمه الله ليلة الثلاثاء الحادي عشر من شهر صفر سنة الثانية والعشرين بعد الثلثمائة والألف».

أي: منذ ثلاث وسبعين سنة، ولا يعرف ما إذا كان هو أول إمام لهذا المسجد، وكان قبله غيره والمعتقد أنه ليس الأول، والقبر خارج المسجد وليس في جهة القبلة كما أنه من الواضح أنه أقيم بعد بناء المسجد بمدة طويلة.

أما منارة المسجد فإنها عجيبة لأنها تشبه الشرفة الواقفة العالية غير المجوفة فهي لا يصعد إليها وإنما هي لمجرد الرمز لوجود المسجد وقد بنوها فوق المحراب.

وفي فناء المسجد أشجار من أشجار الظل ذات زهور صفر لا تثمر ولكنني رأيت بعض الناس قد استظلوا بظلها عندما وصلنا وكان المسجد مغلقًا لأن الوقت ليس وقت صلاة.

في أحياء شعبية :

عندما دخلنا في الحارات الداخلية من المدينة تبين أن أكثرها لا يلقى عناية كافية، بل ربما لا يلقى أية عناية من المسؤولين الذين اعتذر عنهم بعض مرافقينا بضعف امكاناتهم فالمجاري في الشوارع والأزقة مكشوفة بادية للعيان بلونها الأخضر القبيح، وإذا اعترضت شارعًا رئيسًا وضعوا عليها حجرًا كبيرًا معترضًا أو لوحًا من الأسمنت بقدر عجلات السيارة الواحدة.

وأما البيوت نفسها فإنها على قسمين أحدهما بيوت مبنية بالطين المطلي بالجص الأبيض والثاني: البيوت المبنية من لبن الأسمنت.

والعربات التي تجرها الخيل موجودة هنا وهي وسيلة لركوب الأسر الكبيرة العدد أو لحمل الأثقال.

كما أن حزم الحطب المعدة للبيع ظاهرة في أكثر الأماكن.

أما أكثر المفروشات عرضًا في هذه الأحياء الشعبية فإنها الحصر البيض التي هي فراش كثير الاستعمال لعامة الناس وأكياس الملح البيضاء ذلك الملح الذي كانت له في نفوس الأقدمين في هذه البلاد منزلة عظيمة حتى كانوا يقايضون به الذهب في بعض المناطق وكانت القوافل التي تحضره من الصحراء مشهورة بل ذات أثر في تاريخ هذه البلاد.

واللون الأبيض ليس مقتصرًا على الحصر -جمع حصير- ولا أكياس الملح أو ثياب كثير من المواطنين بل إن الغنم هي بيض ناصعة البياض ليس على جلدها شعر وألياتها خالية من الشحم. بل هي تشبه أليات الغنم التي نسميها سواكن أو هي أدق منها وأكثر نحولاً.

أما مناظر النساء وهن بتعريف مختصر اللائي نعرفهن في المملكة

بالتكرونيات إلا أن فيهن هنا طائفة من ميسورات الحال ونسبة كبيرة من الشابات فإنهن كلهن سافرات بدون استثناء ولا يوجد الحجاب أصلاً. وإنما الاختلاف هو في الدرجة التي هي بين السفور والتبرج فالسفور هو الشائع والتبرج قليل.

وأكثرهن يلبسن الملابس الوطنية الفضفاضة ويضعن على الرؤس غطاء غير سابغ كثيراً ما يكون منديلاً له أكثر من طية واحدة.

إلا ما كان من أمر الشابات فإن أكثرهن يرتدين قمصاً أجنبية (فساتين) وتكون نحورهن ظاهرة مع بروز صدورهن في العادة.

وهذا اللباس بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه لباس المرأة المسلمة يعتبر غير لائق غير أنه بالنسبة لما كانت عليه نساء أهل هذه البلاد في القرون الوسطى حسبما نقل إلينا ابن بطوطة وغيره فإنه يعتبر لباساً ساتراً محتشماً وقد استمر الأمر بعد ابن بطوطة عدة قرون والعرف عندهم لا يستنكر أن تخرج الفتاة الشابة عارية الصدر وبخاصة قبل أن تتزوج وهذا بالنسبة إلى المسلمين وأما غير المسلمين وبخاصة الوثنيين في جنوب البلاد فإن كثيراً من نسائهم لا يسترن من أجسادهن إلا النصف الأسفل إلا ما كان من سكان المدن أو من نساء المتعلمين.

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم سؤال عن حظهن من الجمال أو يقول: هل رأيت في وجوههن طلاوة أو فيهن جاذبية للنظر.

والجواب أن الجمال أو عدم الجمال أمر نسبي ورب جميلة في عين رجل لا يراها رجل آخر كذلك أو ربما رآها عكس ذلك.

ولكن إذا كان لابد من تطبيق مقاييس الجمال التي يعتبرها الأوربيون ومن يوافقونهم في الذوق أو يتبعونهم في المقاييس فإن اللواتي تنطبق تلك المقياس عليهن غير كثيرات.

إلا أننا نكرر أن مقاييس الجمال نسبية وأن الجنس الأصفر بعامة والجنس الصيني بصفة خاصة قد يرى في مقاييس الجمال غير مايراه الأوربيون وكذلك القول في الجنس الأسمر والأسود.

ولكني كثيرًا ما كنت أرى في إفريقية في عدة بلدان من شرقها وغربها ووسطها فتيات سوداوات مع رجال بيض وهم يعاملونهن كما يعامل الرجل عشيقته فيما رأيته من أمرهم في المطاعم والمشارب وأما ما وراء ذلك من المكامن والمسارب فإنني به غير عليم.

حي بغداد :

نعم إنه (حي بغداد) في باماكو أسموه على اسم بغداد عاصمة العراق وهو حي متوسط فيه أربعة مساجد. وليس هو بالحي الوحيد الذي يوحي اسمه بالتمسك بأسماء المدن الإسلامية. بل في مدينة باماكو (حي المدينة) على اسم المدينة المنورة وحي دار السلام وحي مصر، وحي (حمد الله). جلسنا فيه عند حانوت صغير يبيع الشراب البارد لأن الجو قد اشتد حره، بعد أن ارتفعت الشمس فشربنا شرابًا محليًا من الفاكهة مصنوعًا في هذه البلاد وكانت الإذاعة تذيع برنامج (ما يطلبه المستمعون) من الأغاني فكانت الأسماء كلها بدون استثناء أسماء إسلامية شائعة مثل محمد وفاطمة وآمنة وإبراهيم.

وكانت جلسة ممتعة لولا أن الحانوت ليس على المستوى المطلوب من النظافة بل هو إلى أن يقال إنه غير نظيف أقرب من أن يقال إنه متوسط.

ومن الملاحظ في هذا الحي أن أغلب أبواب البيوت فيه مفتوحة بحيث يرى من يمر من الشارع داخل البيت وهذا بلا شك سببه أن بعض البيوت تتألف من عدة غرف في كل غرفة أو مجموعة من الغرف سكان مختلفون

يستعملون مرافق واحدة فتكون ساحة البيت بالنسبة لهم كالزقاق أو المرفق العام. إلى جانب كون بعض الناس لضيق منازلهم أو لعادات وأعراف عندهم قديمة يعملون بعض أعمالهم في الشوارع لا سيما نساؤهم فترى بعضهن يطبخن أو يغسلن ملابسهن في الشارع، وما دام لا يوجد عرف يمنع المرأة من أن يراها الرجال الأجانب في الشارع فأولى بها أن يكون الأمر كذلك في المرافق العامة كأفنية البيوت الداخلية.

وطبيعي أن هذا القول ينبطق على عامة الناس من الفقراء ومتوسطي الحال. أما الأغنياء الذين يملكون بيوتًا واسعة خاصة بهم فإن الأمر مختلف ولكن عددهم قليل وتكاد تكون لهم أحياء خاصة بهم.

ثم ذهبنا لرؤية مسجد (كان زمبو) وبعضهم يسميه مسجد السلفيين لأن إمامه (أحمد حماه الله) من السلفيين المعروفين في هذه البلاد.

لم نجد الإمام لأن الوقت ليس وقت صلاة وإنما وجدنا سائق سيارته عليه لباس عربي حتى غطاء الرأس (غترة) كالتي نلبسها واسمه (محمد كمارا) يعرف شيئًا من العربية تعلمه في باماكو.

ووجدنا عند المسجد الأخ (أحمد وكانتي) وهو فراش في المسجد قال إنه يفعل ذلك احتسابًا للأجر من الله في خدمة المسجد لأنه موظف متقاعد رأى أن أفضل ما يقضي به وقته خدمة بيت الله وكان يعمل قبل ذلك موظفًا في مصلحة الهاتف.

والمسجد مبني من الأسمنت المسلح بناءًا حديثًا لا طابع له. ولا ينتمي إلى طراز معين في البناء. قال لنا مرافقونا أن الذي بناه رجل واحد اسمه (بكرو باتنكرو) محتسبًا في ذلك الأجر من الله تعالى. مع أن نفقات بنائه كبيرة لأنه كبير، وفي آخره شرفة واسعة لصلاة النساء وقد بني قبل أربع عشرة سنة.

أما فراشه فإنه من بسط مصنوعة في هذه البلاد.

وعندما ابديت عجبي من تبرع هذا الأخ المتقاعد لخدمة المسجد احضروا إليّ شخصاً آخر وقالوا: إنه مع خمسة أشخاص آخرين أحدهم (أحمد وكانتي) كلهم يتبرعون بالعمل في المسجد لوجه الله وقال الشخص الذي احضروه وهو شيخ كبير السن اسمه (إبراهيم ساغو) إنه كان مزارعاً ولكنه الآن متبرع بالعناية بالماء في المسجد فهو يملأ الأواني للشرب ويلاحظ ما يتعلق بالماء فيه.

إلى السفارة السعودية :

ذهبنا إلى حفلة غداء اقامتها السفارة السعودية بناء على رغبة من الأخ الكريم (عبدالعزيز زكي) القائم بالأعمال في السفارة وهو أعلى شخص فيها رأيته، لأنه لايوجد في مالي سفير سعودي منذ فترة طويلة ربما كان ذلك لكون وزارة الخارجية السعودية لا ترى في مالي بلداً أجنبياً يحتاج التعامل معه اتباع أمور شكلية بل إن العلاقات مع مالي علاقات أخوية ودية لا تحتاج إلى شكليات.

توجهنا في الساعة الواحدة ظهراً إلى الحي الذي فيه السفارة فاخترقنا الجسر الطويل الجيد الذي يكاد يكون الجسر الوحيد على نهر النيجر الذي يصل قلب المدينة في الشمال بضاحيتها الجنوبية.

ووصلنا إلى الحي الذي فيه السفارة السعودية وعدد من السفارات الأخرى منها سفارتا مصر والعراق. واسم الحي (بدل ابو) قال الشيخ الدكوري أن معناها الحرفي (العشة وراء النهر) بلغة البامبارا.

وهو مؤلف من دارات (فيلات) ممتازة غارقة في الجنات غير أن شوارعه على سعتها طينية خالية من الأسفلت وقد قامت السفارة السعودية

نفسها بفرش الأسفلت فيما حاذاها من الشارع ولكن ما دونها وما بعدها أرض طينية موحلة بسبب الأمطار التي هطلت في الأيام السابقة.

حضر الغداء الحاج عمر لي رئيس جمعية الإتحاد الإسلامي في مالي التي هي الجمعية الإسلامية الرئيسية في البلاد وهو أول محافظ لمدينة (باماكو) بعد الاستقلال، والشيخ أيوب والشيخ محمد فودي وهو (مالي) أنهى تعليمه العالي في مصر ويعمل الآن سكرتيراً للعلاقات الخارجية بالجمعية والشيخ أحمد حماه رئيس أنصار السنة والأخ محمد سامو أحد التجار الذين يتبرعون بسخاء للمشروعات الإسلامية.

ومما يستحق التنويه به أن الأخ الحاج (عمر لي) حضر المأدبة ولكنه لم يطعم شيئًا لأنه صائم صوم تطوع في هذا الجو الحار أثابه الله.

كما حضر المأدبة أيضاً بعد انصراف رئيس الجمعية إمام المسجد الجامع الشيخ (موسى بلاكلي) ولم يأكل أيضاً لأنه صائم. والمهندس عبدالله الزهراني من وزارة الأشغال والإسكان في المملكة وقد حضر إلى (باماكو) للنظر في أمر بناء ملاحق للمسجد الجامع الذي بنته المملكة وتقدم ذكره.

ومبنى السفارة جيد وهو ملك للسفارة ومع ذلك ذكر لنا الأخ عبدالعزيز أن السفارة تملك أرضاً واسعة في مكان آخر تنوي أن تقيم عليه مقراً أوسع للسفارة.

كان المجلس في أول الأمر في قاعة الاستقبال في السفارة ثم انتقلنا إلى المائدة في الحديقة الواسعة في غداء شاعري تحت ظلال الأشجار وبالقرب من ازهار متفتحة جميلة مختلفة الألوان، ترفرف على (فسقية) أي بركة للسباحة صافية الماء.

وكان مما زاد الموقف شاعرية أن جهازاً كبيراً لاستقبال الإذاعة (راديو)

كان ينقل مشاعر الوقوف بعرفة وذلك قبل غروب الشمس بنحو الساعة إذْ نحن كنا في الساعة الثانية والنصف لفارق التوقيت إلا أن الذي كان ينقص من متعة هذا الاستماع وشاعريته بالنسبة لنا نحن الغرباء عن هذه البلاد أن (مالي) رغم تمسكها بالدين الحنيف وعراقتها في اعتناقه بل السعي إلى نشره واعتزازها بذلك فإن يوم العيد فيها غير يوم العيد في بلادنا فاليوم عندنا هو يوم الوقوف بعرفة (التاسع من ذي الحجة) وغداً الأحد هو يوم العيد على حين أن اليوم عندهم هو يوم التروية أي الثامن من ذي الحجة وبعد غد الاثنين هو يوم العيد عندهم.

وتكرر في ذهني السؤال الذي طالما تكرر على أذهان كثير من المفكرين في التقارب بين الشعوب الإسلامية وهو لماذا لا توحد الأعياد والمواسم الدينية بين البلدان الإسلامية؟ وإذا كان في ذلك صعوبة نسبية فيما يتعلق بدخول شهر رمضان ودخول عيد الفطر فلماذا لم يبدأ بتوحيد عيد الأضحى الذي هو عيد النحر وعليه يترتب أداء مناسك الحج في أوقاتها المحددة التي لاتكون إلا في مكة المكرمة ومشاعرها؟ فعلام يخالفها المسلمون في تلك الأوقات وقد اصبحت معرفتهم الآن بمواعيد تلك الأوقات سهلة ميسرة؟ ويمكن أن تتم معرفة ذلك في كل أنحاء العالم في ساعات معدودة؟

اشتملت مائدة السفارة على خروف كامل محشو ومع ذلك كان الطباخون يعدون شواء جيداً من لحم البقر يقدمونه لمن يشاؤون من الآكلين.

حديقة الحيوان :

ذهبنا في الساعة الرابعة من بعد الظهر إلى حديقة الحيوان في (باماكو). وذلك على أمل رؤية حيوانات غريبة أو نادرة فيها.

كان أول مايلفت النظر في الحديقة سعة مساحتها واتساع أقفاص

الحيوانات فيها ولكن تبين أن ذلك ربما كان الشيء الوحيد الجيد في الحديقة التي دلتنا الجولة فيها على أنها قد ذلت بعد عز، وقلت بعد كثرة.

وتقع في موقع جميل من تلة جميلة متدرجة الإرتفاع تنزل إليها من اعالي التلة عين أو نهير مائي يكسبها منظراً جذاباً ويساعد على تنظيفها.

أول ما رأيناه فيها مجموعة من السلاحف الكبيرة تتمشى وئيداً وهي تجر أرجلها بكسل وتخاذل في ساحات واسعة من الفراغ.

ثم ظُباء قليلة العدد في أقفاص واسعة تتسع لعشرات منها.

وقرود معتادة صغيرة ونوع من الغوريللا أسود نحيف ربما كان ذلك لنقص في تغذيته، وقرود أخرى متوسطة الحجم عندها صبية يعاكسونها فتجأر بالصراخ من غير أن ينهاهم أحد عن ذلك. ونيص كبير وهو نوع يعده بعض الناس من أنواع القنافذ الكبيرة ذو شوك طويل مخطط بأبيض وأسود وهو بمثابة أداة الدفاع له يطلقه إذا هوجم؛ وهو مثل الموجود عندنا في القصيم تماماً واذكر أننا كنا ونحن صغار نبحث عن ذلك الشوك في الأرض لنستعمله بمثابة القلم في الكتابة. وفيها نعام معتاد.

ومن الطريف من الناحية اللغوية أني رأيت ثلاثة من سكان شمال مالي أحدهم في لون الموريتانيين أو البعض من الطوارق واثنان لونهما السواد وكنا عند ظبى فسألتهم عن اسمه عندهم فقالوا: إنهم يسمونه (وحش). وهذا يذكرنا بما كان بعض الشعراء عندنا يسمون الظباء به إذ كانوا يصفون المحبوبة بأن عينها كعيني الوحش - بفتح الحاء - لأنه ثلاثي يحركون وسطه كما يحركون الهاء في وسط كلمة (فهد) وعهد. أو يقولون: إن عنقها كعنق الوحش.

ولكن عندما وصلنا إلى قفص فيه خنزير بري سألتهم عن اسمه عندهم قالوا إنه (عرّ) وأخذوا يكررون هذه اللفظة.

علماً بأنهم يتكلمون فيما بينهم بعربية تشبه اللهجة الموريتانية ولما سألت الأبيض منهم من أين عرف العربية؟ قال: من أبوي وجدي. غير أنهم ذكروا بعد ذلك أنهم تعلموها تعلماً وربما كانوا يريدون أنهم تعلموا العامية من أهليهم والفصحى من المعلمين في المسجد والمدرسة.

وأخذنا نصعد في هذه التلة الجبلية ونحن نمضي في الحديقة مما ذكرني بحديقة الحيوان في مدينة (سانتياجو) عاصمة تشيلي في أمريكا الجنوبية إذْ كانت على نمط فريد قد أقاموها على مدارج في جبل منحدر فكان مدخلها في أعلاها ويظل المتفرجون يشاهدون الأقفاص والحيوانات فيها وهم ينزلون حتى يبلغوا منتهى الحديقة عند نقطة في آخر سفح الجبل مما يلي المدينة إلا أنها أكثر تنظيماً وعناية بالحيوان وأكثر معروضات من هذه الحديقة بكثير.

الفيل المرحوم :

لاحظت بأسف أن أعداداً من الأقفاص خالية من الحيوان مع أنّ آثار وجود الحيوانات فيها ظاهرة. فسألنا دليلاً أبكم هو في الوقت نفسه خادم الحيوانات الذي كان موجوداً عندما دخلنا الحديقة. وذلك بطريق الإشارة، وقد تساويت عنده مع الأخ الشيخ أيوب الذي كان قد رافقني للترجمة فأصبحت أنا وأياه بالنسبة إلى هذا الأخ الأبكم سواء إذ كان لا يفهم إلا بالإشارة.

قال الأبكم وهو يشير إلى بعض الأقفاص إنها قد أصبحت خالية من الحيوان الذي كان موجوداً فيها ثم مررنا بقفص كبير واسع يظهر أن الحيوان الذي كان فيه غادره منذ فترة غير طويلة فأخذ الأبكم يشير بيديه ورجليه وفمه وحاجبيه إلى عظم الحيوان الذي كان موجوداً فيه ومات وإلى أن له خرطوماً طويلاً وبينما كنا نحاول فهم كلامه حضر صبي من المواطنين وقال. هذا مكان فيل ولكنه توفي. هكذا سمعت ترجمة كلامه.

ولكن هذا الفيل المتوفى ألم يخلف نسلاً وذرية؟ وإذا كان لم يفعل لماذا لم يحضروا بعض أبناء عمومته أو حتى أقاربه الأبعدين ليحل محله في جلب المعرفة والسرور إلى مواطني باماكو الذين يحبون أن يتفرجوا على عالم الحيوان؟

كان الصعود إلى بقية الأقفاص في عرض التلة فيه صعوبة إذْ كان درجًا طويلاً مبنيًا في الصخر، وبعضه أملس ولكن الماء الذي يأتي من الأماكن المرتفعة ويتبدد في الممرات يضيف صعوبة في الصعود.

فكان من الأشياء التي تستحق رؤيتها هذا الصعود رغم الصعب صقر كبير قد يمكن القول إنه في ضعف الحجم المعتاد للصقور في بلادنا ثم ثلاثة أنواع من الضباع أحدها نوع كبير ادهم اللون قالوا إنه يأكل ابن آدم إذا جاع فقلت لهم: إن المتنبي يقول :

وليس يأكل الا الميتة الضَّبُعُ

فقالوا لعله يعني بذلك هذا النوع الرمادي الصغير الذي قلت إنه موجود في بلادكم فقلت: ربما كان الأمر كذلك.

والنوع الثالث رمادي اللون ولكنه في نصف حجم الضبع الأول وليس معنى ذلك أنه صغير السن بل إنه نوع آخر مخالف للنوعين الأولين. وذئب صغير أقصر قوائم وأكثر ضآلة من الذئب المعروف في بلادنا ولكن الذين معنا وبخاصة من أهل شمالي مالي الذين هم أهل ماشية قالوا لنا: هذا ذيب. هذا الخبيث الذي يأكل الغنم.

وعندما خرجنا من الحديقة متعبين من وعورة موقعها وقلة الحيوانات فيها نقدنا الدليل الأبكم مائتي فرنك حلوانًا (بقشيشًا) فشكر ذلك بالإشارة مع أن هذا المبلغ يساوي ريالاً واحدًا فقط.

يوم الاثنين ١٠/١٢/١٤٠٢هـ

عيدنا وعيدهم ؟

هذا اليوم هو يوم العيد لنا في المملكة غير أنه اليوم التاسع في مالي، ويوم العيد عندهم يكون غداً .. وطبيعي أننا مادمنا في مالي فإن حكمنا أو حكم العيد بالنسبة إلينا هو حكم أهل مالي وإنما نوهت بهذا من أجل التاريخ الهجري لهذه اليوميات.

ولذلك أيضاً فإن هذا اليوم هو يوم عمل بالنسبة إليهم لأنهم يعطلون الدوائر يومين هما يوم العيد واليوم الذي يليه أما اليوم الذي يسبق العيد فإنه يوم عمل عندهم.

مقابلة وزير الخارجية :

يشتمل البرنامج في هذا الصباح على مقابلة وزير الخارجية (علي بلوندين).

وقد رغب في أن يكون اللقاء الأول بيننا في بيته إمعاناً منه في أن يشعرنا بأنه يستقبلنا بعيداً عن الرسميات كما يستقبل إخوانه الأدنين لا يتكلف في استقبالهم.

وصلنا إلى بيته الذي هو دارة (فيلا) جميلة في حي تكثر فيه الدارات أمثالها وعلمت بعد ذلك أنها مملوكة للدولة يقطنها الوزراء ماداموا في مناصبهم الحكومية فإذا ما تركوا المنصب أو تركهم تبعته (الفيلا) فشغل خلفهم المنصب وشغل (الفيلا) أيضاً.

عندما دخلنا إلى فناء البيت تقدم مندوب المراسم المرافق الأخ (أبوبكر) فأخبر الوزير الذي خرج من البيت وبادرني بالعناق الحار والترحيب

المتواصل الذي أحسست أنه بالفعل نابع من أعماق قلبه. ثم قادنا إلى غرفة الجلوس ذات الأثاث الحديث.

وابتدأ الحديث قائلاً أرجو أن يكون استقبالكم لائقًا وأرجو المعذرة لأني لم أتسلم (التلكس) بشأن قدومكم إلا قبل يوم واحد وكنت خارج باماكو مع وزير خارجية الكنغو.

ثم دخل إلى مايريد قوله فقال: نحن أهالي مالي عريقون في الإسلام ونعتز بذلك كما نعتبر بأن اسلافنا دخلوا في الإسلام طوعًا وليس بالسيف ثم أصبحوا دعاة إلى الإسلام.

ولذلك نحن عندما نسعى إلى تقوية العلاقات مع إخواننا المسلمين في الأقطار العربية فإنه من الواضح أن الدافع إلى ذلك ليس هو كونهم يملكون النفط والثروة كما تفعل بعض الدول وإنما ذلك بدافع شعور الأخوة الإسلامية القوي. ومن هذا المنطلق نحن نرحب بك في بيتك في (باماكو).

ثم قال: نحن لسنا رأسماليين لأننا فقراء ولا شيوعيين ولا يوجد بيننا وزير ولا مسؤول شيوعي والرئيس رجل مسلم متواضع من عامة الشعب ونحن جميعًا نفخر بأننا مسلمون.

وقال إن الإسلام قوة عظيمة يعرفها الناس في خارج البلاد الإسلامية ولكن يجهلها المسلمون فربما كان المسلمون هم أقل الناس معرفة بقوة الإسلام.

والإسلام أعمق واصفى عقيدة تجلب الأمن للإنسان.

وقال: إن الرسول ﷺ هو أعظم مصلح وقد جاء قبل أربعة عشر قرنًا بالإصلاح الذي لم يستطع الغربيون بلوغه الآن، وجاء الرسول ﷺ بالعقيدة

واضحة وبالسلوك ظاهرًا ما على المسلمين إلا أن يأخذوا به ويقودوا أمتهم إلى السعادة.

فقاطعه رنين الهاتف فرد عليه ثم أراد أن يستأنف كلامه فرن جرس الهاتف أيضًا. وبعد أن فرغ من الحديث فيه تركه لموظف عنده وعاد يكرر قوله:

إنك في بيتك تستطيع أن تقابل في هذه البلاد من تشاء، وتذهب إلى أي مكان تريد. وكل ما شئت تحت يديك.

وهنا استثار كلامه الشيخ أيوب مبارك الذي لم يحضر المقابلة غيره وغير الشيخ الدكوري فأنشد بيتين من البردة بصوت عال فخم وهما:

بشرى لنا معشر الإسلام. إن لنا   من العناية ركنًا غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته   يا أكرم الرسل كنا أكرم الأمم

فرددت عليه بكلمة أوضحت فيه ماضي هذه البلاد الحافل بالأمجاد الإسلامية التي هي موضع فخر لجميع المسلمين وليس للمسلمين في هذه البلاد وحدهم.

وقلت: إن تاريخ مالي الزاهر قد جعلني اشتاق إلى زيارة هذه البلاد وأرى خَلَفَ ذلك الشعب العظيم الذي أرجو أن يكون خلف خير لسلف خير.

وقلت: إن ابن بطوطة رحمه الله زار مالي فانفق خمسين يومًا على الإبل في قطع الصحراء والطريق ما بين بلاده طنجه وهذه البلاد. ولذلك أشعر بأنه لو لم يمكني الوصول إلى مالي إلا بالوسيلة التي وصل فيها ابن بطوطة إليها لما كان ذلك كثيرًا لدي.

وقلت: إن الشعوب العريقة مثل مالي ذات مستقبل زاهر حتى ولو لم يكن

حاضرها يوحي ظاهره بذلك لنقص بعض الامكانات، ولوجود بعض الظروف التي تمنع من ذلك.

وقلت: ذلك بأن (مالي) كانت لديها إدارة حكومية منتظمة كفلت الأمن والعدل لأبناء البلاد وللطارئين عليها في وقت لم يكن فيه في أكثر الأقطار الأوربية إدارة متكاملة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة. ثم تكلمت على العلاقات الأخوية التي تربط بين جمهورية مالي والمملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر.

ثم تبادلنا وثائق فتح مكتب الرابطة وإتفاقية إنشاء مستوصفات خمسة في مالي تبدأ بمستوصف واحد كمرحلة أولى.

وكان أثناءها يفيض في حديث عميق يدل على فهمه للأوضاع الإسلامية وحرصه على تقوية العلاقات بين الأقطار الإسلامية.

وكان سريع الحديث متلاحق الكلمات رغم عمق معانيها مما يدل على ذكائه وكفاءته لمنصب وزير الخارجية وفي الختام قال: إن عالمًا مثلك لابد أن يقابل رئيس الجمهورية وعددًا من الوزراء.

وقال: سنعطيك طائرة الرئيس الخاصة لتذهب عليها إلى (تنبكتو) فشكرته على ذلك وقلت له: إنه لا داعي للطائرة الخاصة ولدي تذاكر سفر جاهزة لكل الرحلة التي منها تنبكتو.

ثم قال: إنني سأعمل على أن تكون هذه الاتفاقيات جاهزة قبل سفرك حتى توقع عليها بنفسك معنا.

ثم قال: إننا أولى من غيرنا من البلدان باحتضان مكتب الرابطة ولذلك فإن فتح مكتب للرابطة في (باماكو) هو أمر نسعى إليه ولا نقتصر على مجرد الموافقة عليه.

وقد خرجنا من عنده وأنا أبحث في ذهني عن وزير أتذكره متحمساً لإعادة المجد الإسلامي لبلاده مثله فلم أجد.

وفي الطريق إلى الفندق لمحت منظرين غير مألوفين عندي أولهما: منظر فتاة سوداء تحمل على ظهرها طفلاً أبيض لاشك في أنه لوالدين أوربيين ربما كانت خادمة عندهما والمنظر المألوف هو منظر الإفريقيات يحملن أطفالهن على ظهورهن.

والثاني: منظر شاب أبرص قد جعله البرص أبيض اللون تماماً وهو فيما يظهر من شكله من جنوب مالي أو من البلاد التي تقع عنها جنوباً أي ممن يسمون البانتو وليس من السودانيين وقد غدا منظره غريباً إذْ المألوف في مثل تقاسيم وجهه أن يكون اللون أسود.

لدى وزير الدولة للشؤون الاقتصادية :

الساعة الحادية عشرة قبل الظهر كانت موعد زيارة وزير الدولة للشؤون الاقتصادية والاجتماعيات وهو شخص قوي من أقوى الشخصيات الحزبية الحاكمة في هذه البلاد حسبما أخبرونا.

كان معنا الرفقاء المعتادون السفير الدكوري والشيخ أيوب مختار، ومندوب المراسم قبل الدخول إلى مكتبه استقبلتنا سكرتيرة له فأدخلتنا إليه فكان في الاستقبال عند الباب الخارجي للمكتب.

بدا الرجل شخصاً رزيناً قوي الشخصية وقد يكون هذا الانطباع عنه حقيقياً وقد يكون لما حدثونا عنه من قبل دخل في ذلك لأنهم قد وضعوا زيارته في البرنامج بعد زيارة وزير الخارجية وأكدوا على أهمية مقابلته.

قال الوزير: إنه كان قد زار الرياض وسُرَّ لما رآه فيها من التقدم والعمارة.

فتكلمت معه عن مهمتنا في مالي وعن شعوري الخاص وأنا أدخلها وأقابل الإخوة فيها من مسؤولين ومن عامة الناس فأشعر بأنهم سلالة الشعب السوداني العظيم ذي التاريخ الإسلامي المجيد. فرحب بافتتاح مكتب لرابطة العالم الإسلامي في باماكو وكذلك افتتاح مركز ومستوصفات وقال: إن هذا يتفق مع خطة الحكومة في العمل على التقارب مع البلدان الإسلامية كما يتفق مع طموحنا في تعميم المستوصفات في البلاد، وقال: إن الوزراء الذين ستقابلونهم ستلقون منهم الترحيب بهذه الفكرة.

ثم كرر ترحيبه وودعناه شاكرين مع شعوري بأنه عميق الفكر قوي الشخصية ولكنه دون مثالية وزير الخارجية. واسمه (عمر كولوبلي).

في أحياء شعبية أيضًا :

خرجنا من عنده ولا يزال في الوقت بقية لأننا لم نطل المكث في مكتبه فذهبنا مع السفير الدكوري إلى حي شعبي اسمه (كنز نبقو) فوقف عند بيت شعبي مبني بلبن الأسمت يملكه وقد وكلَّ عليه جارية كانت مملوكة لأهل بيته تؤجره وتقبض له أجرته، وفيه إحدى وعشرون غرفة تبلغ غلتها الشهرية مائتي ألف فرنك مالي ويساوي ذلك ألف ريال سعودي. واسم الجارية (معتوقة فاطمة) وتبلغ السبعين من العمر. وهذا الحي إفريقي حقًا من المناظر التي رأيناها فيه تؤكد ذلك عجوز مسنة لم تستر نصف جسمها الأعلى وامرأتان تتناوبان الهرس في مهراس في وسط الشارع وأخريات يطبخن طعامهن في جانب منه وأخرى رأيناها تغسل أوانيها في الشارع أيضًا وثالثة تغسل ملابسها فيه.

ومجاري المياه المستعملة على جانبي الشارع مكشوفة.

ومن ألطف المناظر منظر رجل ينسج قماشًا فيه تحت مظلة من القش وهو

منهمك في صنعته الدقيقة في جانب الشارع ربما كان فعل ذلك لضيق في بيته شأن أكثر البيوت في هذا الحي وأمثاله، أو من باب الدعاية والإعلان حتى يراه من يريد أن يشتري منه، أو يتفق معه على أن ينسج له.

ورأينا رجلاً آخر معه قطعة من القماش يبيعها في ركن من الشارع أيضاً.

ويمكن وصف هذا الحي بأنه ذو شوارع متسعة ولكنها متسخة وبيوت ضيقة ليست جيدة موادها من الأسمنت والطين.

وكنا نتمشى في شوارع هذا الحي حيث أوقفنا السيارة لصعوبة السير في الشوارع الداخلية منها.

وقد لمست وأنا بملابسي العربية طيبة هذا الشعب وحسن تصرفه تجاه الغريب فلم أقابل فيها من سألني أو استجداني شيئًا بل ولا من تبعني بنظراته التي قد يكون فيها إحراج أو قد يلمس منها التفكير بالاستغلال.

مما زاد من انطباعي عن أخلاق هذا الشعب الأصيل ذي الماضي الحضاري الإسلامي العريق. كما أنني لاحظت أيضاً هدوٴ طبائعهم في معاملتهم فيما بينهم فالحدة وسرعة الغضب فضلاً عن المخاصمات لانراها ظاهرة.

بل إنك لتعجب من الفروق في هذه الأمور بينهم وبين شعوب أخرى واقعة تحت خط الاستواء إلى الجنوب من ذلك إذْ تجد (الماليين) هم الأرقى والأعلى في مثل هذه الأمور مع أن القياس أن يكون العكس هو الصحيح لأن تلك الشعوب التي لا ماضي لها قد عمل المستعمرون على تعليم طائفة من أبنائها تعليماً عصرياً حتى كادوا يجعلونهم نسخاً أوربية (متمدينة) على زعمهم في تلك البلاد.

نهر الصياح والعويل :

في الساعة الخامسة عصراً ذهبت مع الشيخ عبدالوهاب الدكوري إلى مزرعة له خارج باماكو كان رئيس مالي السابق (موديبو كيتا) قد أعطاه إياها مثلما أعطى عدداً من ذوي القدرة المالية قطعاً من الأراضي الزراعية حتى يعمروها.

فكان أن مررنا بجدول أو نهير صغير منحدر من الهضاب الشمالية متوجهاً إلى نهر النَّيجر. فسألت الشيخ الدكوري عن اسمه؟ فأجاب أنه (وي وي ان كو).

ولما كانت هذه الإجابة تحتاج إلى تفسير كان تفسيرها أن معنى هذا الاسم نهر الصياح أو العويل إذْ كلمتا (وي) (وي) تعنيان حكاية صوت العويل و(كو) نهر صغير وهي هي الكلمة الواقعة في آخر اسم (باماكو) العاصمة.

وإذا يكون المعنى (نهر الصياح والعويل) فما الذي جعله كذلك؟.

في عام١٨٨٤ الميلادي أي: قبل مائة سنة إلا سنتين كان أحد القادة من المستعمرين الفرنسيين يتقدم لاحتلال بعض الأماكن في منطقة العاصمة وكان بعض المسلمين الغيورين قد اجتمعوا لقتاله في هذا المكان إلا أنه لا وجه في الاستعداد المادي للموازنة بين الفريقين وبخاصة أن الفرنسيين كانوا في ذلك الوقت في قمة المخترعين المستفيدين من المخترعات المستحدثة ومنها آلات السلاح التي تقتل عن بعد مثل المدافع والبنادق.

فكان أن التقى الجمعان وحصلت معركة عظيمة قتل فيها خلق من المسلمين أبناء البلاد وتمت السيطرة للمستعمرين الفرنسيين واحتلوا مدينة باماكو.

وكانت المصيبة في هذه الموقعة فادحة بقياس الخسائر المادية والبشرية وليس ذلك فقط وإنما أيضًا في إظهار تفوق هؤلاء المارقين الكفرة على المسلمين فاكتسب هذا الموقع هذا الاسم في ذلك التاريخ.

ونهر الدم :

ليس غريبًا على هذا النهر الصغير أن يسمى بنهر الصياح والعويل في اللغة البامبارية إذا عرفنا أن اسم نهر النيجر العظيم الذي كان اسلافنا العرب يسمونه نهر النيل إما لشبهه بنيل مصر، وإما لكونهم يعتقدون أنه هو نيل مصر يأتي من هذه البلاد كما ظن ذلك ابن بطوطة وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

فاسم نهر النيجر في اللغة البامبارية التي هي لغة أصيلة في هذه البلاد المالية هو (جوليبا) ومعناه نهر الدم عللوا ذلك بكونه قد وقعت على ضفافه وقائع ومعارك دامية على طول التاريخ وقال بعضهم: إن ذلك يشير إلى أنه يغذي الأرض كما يغذي الدم الجسم، فجولي معناها: الدم، (با): النهر بهذه اللغة. على أن النهر له أسماء عديدة عند أهل البلاد منذ ابتدائه من أراضي غينيا حتى يخرج من بلاد السودان إلى نيجيريا تبلغ عشرة أسماء.

ففي الزمن القديم كان نهر النيجر يعرف باسم «نيل السودان». يخرج من الأراضي الغينية، ويسمى جوليبا (أي نهر الدماء). ثم يمر في بلاد «البامانان» فيعرف هناك «با» أو «با - با» أي «النهر» أو «النهر الكبير» إذ أن أحد روافده يسمى «بانين» أي «النهر الصغير».

ويطلق الفلانيون على نهر النيجر اسم مايو دانسيحبو، أي «النهر الأبيض»، بينما يطلقون على «بانين» اسم مايو باليبو، أي: «النهر الأسود»، وبعد أن يخرج من «ماسينا» أي «جنة الثيران»، يصبح نهر النيجر، بعد اغتنائه بمياه بانين. «ايشابير»، أي «النهر الكبير» عند

السونغاي، و«غير نغيرين»: «نهر الأنهار» عند الكل تامجاك (الطوارق). بينما تطلق عليه في جنوب البلاد في أراض زرما (في النيجر) تسمية بسيطة فيدعى «ايسا» أي «النهر». أما الأقوام التي تعيش على ضفتيه وتتكلم لغة الهوسا فهي تسميه كوارا – أوال رواكوارا، أي «أم المياه»، أو كوارا فقط. ويطلق عليه آخرون اسم «بابان غولبي» أي النهر الكبير.

سرنا في ريف أخضر كله مزروع بالذرة ذات النبات العالي بل البالغ العلو حتى إن بعضها يزيد على طول قامة رجلين اثنين وهي تخفي الناس الذين يدخلون فيها تماما. وفي هذا الريف أشجار من أشجار العمبة (المانقو) والليمون والبرتقال.

والأرض ندية والريف أخضر والسبب في ذلك أننا الآن في آخر موسم الأمطار الذي كان جيداً في هذه المنطقة القريبة من باماكو وإن لم يكن كذلك في المناطق الملاصقة للصحراء. أما الطريق فإنه معبد غير مسفلت.

ومثله يكون في العادة مصدراً للغبار عندما تمر عليه السيارات مسرعة إلا أن المطر كان قد جاءه اليوم فخفف من ذلك على أن الأهالي وبخاصة من نساء الفلاحين رأيناهن يسرن على حافة الطريق وقد حملن امتعتهن وأحياناً الأشياء الثقيلة الأخرى على رؤوسهن فالحمل على الرأس هو الطريقة الشائعة في هذه البلدان الإفريقية.

وفي هذا الريف يشاهد المرء قطعاناً من البقر الجيد ومن الأغنام الكبيرة الحجم.

وأما البيوت فيه فإنها من الطين بعضها قد بني بطريقة جيدة وطلي بالأسمنت حتى لا تستطيع أن تعرف أنه مبني بالطين إلا إذا تفحصته وإنما تخال أنه من الأسمنت كله وبعضها من الطين المعتاد. إلا أن السقوف الهرمية القشية –نسبة إلى القش– موجودة هنا بكثرة وذلك لوفرة الأشجار

والأعشاب ولأنـها تقي الشمـس ويزل عنها المطـر وهما أهم العوامـل الجوية التي يتخذون لها البيوت في هذه البلاد.

أما البرد فإنه خفيف إذا حان موسمه لا يستدعى الاستعداد.

وتقـع مزرعة الشـيخ الدكـوري على بعـد ١٨ كيلاً مـن أطراف العاصـمة باماكو وفيهـا أشجار مثمرة تعيش بدون سـقي منها المانقو والليـمون والبرتقال وأشجـار برية كـبيرة مـن أشجار (الـقرتـي) التي ذكـرها ابن بـطوطة بـل نوه بذكرهـا وبفوائدها وقد نـبتت ونمت برية دون غـرس في الأصل لأن الأرض نفسها كانت أرضاً برية.

وفيـها أشـجار من الـبابـاي والجوافا وكـلهـا خضـرة نضرة بـدون سقـي من الأرض وإنما هو ماء السماء. وفيها ذرة مزروعة وحشائش وحشية متشابكة.

وقد استقـبلنا في الأرض ثلاثـة من أبناء الفلاح فـسألناهم عن عـدد اخوانهم واخواتهم فلم يخبرونا وكنت قد جـربت سؤال بعض الإخوة الأفارقة في المنطقة فلم أرهم يسرعون إلى إخباري عن ذلك فقال الشيخ الدكوري: إن بعض الناس يخفون أسماء أولادهم خوفاً من اصابتهم بالعين أو ما هو قريب من ذلك.

وفيها بئر معطلة حفرها الشيـخ الدكوري خلال سني قلة الأمطار ولكنه لم يستعملها إذْ أعجله سقوط الأمطار أو وفرتها عن استعمالها.

ثم سلكنا عند العودة طريقاً آخر مع ريف مزروع بالذرة التي ارتفعت حتى كادت تغـلق الأفق بطول قـصبها العـجيب، وكلهـا لا تسقى وإنما تـشرب من الأمطار. ولم يكن الطريق مسفلتاً ولا حتى معبداً بل كان غاية في السوء إلى أن وصلنا إلـى المطار القديم الذي كان أقـرب إلى العاصمة من المـطار الحالي فوجـدناهم قـد استفادوا مـن بنائـه القديم فـحولوه إلـى فندق كمـا استفـادوا من طريقه المسفلت لهذا الغرض وغيره.

ومررنا بحي اسمه (حمد الله) وهو إما أن يكون سمي على اسم (حمد الله) المدينة الإسلامية القديمة التي كانت موجودة في منطقة (ماسنا) في مالي غير بعيدة من بلدة (موبتي) ولكنها قد دثرت الآن. أو أن يكون سمي به ابتداء من باب الشكر والحمد لله على التوفيق لإيجاده.

كانت الشمس توشك على الغروب وقالوا لنا إن الإذاعة قد أذاعت وصولنا ومقابلتنا لوزير الخارجية وموافقة الحكومة المالية على فتح مكتب الرابطة والمستوصفات التي ستقيمها هناك.

ثم وقفنا في حي اسمه (درايفلا) على اسم وادٍ في المغرب لأن أهله كانوا قد جاؤا من المغرب في الأصل وهو مبني من الطين ذي اللون الأحمر وفيه مزارع ذات أسوار طينية أيضاً.

معهد الساحل :

بعض الكلمات في لغتنا العربية يكاد يمكن القول بأنها ذات حظ من الانتشار والذيوع تستعيرها لغة أجنبية من العربية فلا تلبث أن تصبح أصيلة في تلك اللغة حتى تمنحها إلى لغة أخرى وهكذا حتى تصبح شائعة في عدد من اللغات وإن كان فيما عرفنا وفيما نعرفه من لغتنا أنها عربية فقط. إلا أن مدلولها قد يتغير قليلاً بالاتساع أو التخصص بمعنى من المعاني عندما تنتقل إلى اللغة الأجنبية. ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بكلمة (خبر) بفتح الباء: واحد الأخبار، بمعنى الأنباء فهي موجودة بشكل أو بآخر في عدد من اللغات التي نعرفها مثل الفارسية والتركية والأوردية والسواحلية.

وكلمة (مسكين) بمعنى فقير أو ضعيف سمعتها بأذني في مكانين متباعدين ومن متكلمين بغير العربية وهما سرنيقار عاصمة ولاية كشمير التي تسيطر عليها الهند والتي تقع في جبال الهملايا الآسيوية الشهيرة، وفي

مدينة (تاتانا ريف) عاصمة مدغشقر. فهي قد دخلت في اللغتين الأعجميتين لهذين البلدين.

لقد ذكرت ذلك عندما مررت في هذا الحي حي (درايفلا) ببناء كتب عليه بالفرنسية (معهد الساحل) بلفظ (الساحل) وإن كانوا يكتبون حاءه هاءً مثلما يكتبونها في اسم (محمد) ولكنه لا يخرجه ذلك عن اصله العربي.

فعجبت لكلمة (الساحل) هذه فهي قد اثبتت وجودها اثباتًا لا يمحوه الدهر في منطقة شرقي افريقية ووسطها من حدود الصومال شمالاً إلى حدود جمهورية جنوب إفريقية العنصرية جنوبًا وذلك لأن اللغة الاقليمية الشائعة والمعروفة في تلك المنطقة سميت السواحلية على لفظ النسبة إلى السواحل: جمع ساحل.

فهي إذًا قد ثبتت أقدامها ثبوتًا راسخًا في شرقي افريقية ووسطها كما أنها أيضًا قد أثبتت وجودها في منطقة غرب افريقية أيضًا بحيث صدرت صحف سميت بالساحل في بعض أقطارها وهناك أماكن مثل هذا المعهد الذي سمي بمعهد الساحل.

غير أن معناها هنا قد اكتسب شيئًا من الجدة أو إن شئت قلت من النقل من معنى الكلمة العربي الأصيل للساحل الذي هو ساحل البحر إلى معنى آخر هو ساحل البر الذي يراد به هنا الصحراء التي هي في الحقيقة يمكن أن يقال في شيء من التجوز إنها في كثير من بقاعها بحر من الرمال.

فكلمة (الساحل) يراد بها هنا في هذه المنطقة من غرب إفريقية (ساحل الصحراء) التي هي الصحراء الإفريقية كبرى صحراوات العالم أجمع وليس ساحل البحر.

ولذلك تسمى عدة دول بدول الساحل مع أنه ليس لها أراض على البحر حتى يكون لها ساحل ومن ذلك فولتا العليا والنيجر ومالي.

وقد اشتهرت هذه الكلمة عندما أصاب الجدب وقلة الأمطار تلك الدول مع دول أخرى تجاورها فأخذت الهيئات الدولية وبعض الدول تتناقل أخبارها وتصفها بأنها دول الساحل.

ثم وقفنا في حاشية من حواشي هذا الحي على دارة (فيللا) يملكها الشيخ عبدالوهاب تزيد مساحتها قليلاً على ألف متر مربع فيها حديقة صغيرة من بينها نباتات من الذرة ارتفعت حتى تجاوز ارتفاعها ارتفاع سور حائط الدارة.

وعند العودة إلى باماكو لفت نظري جماعة من الفتيان يرقصون وبعضهم يغنون فأخبرونا أن ذلك سببه انتصار فريق مالي على فريق (زائير) في مبارة لكرة القدم اقيمت عصر هذا اليوم.

وعدنا إلى الفندق بعد غروب الشمس بقليل.

ولم يكن إلا بعض الوقت حتى حان موعد مأدبة العشاء التي اقامتها لنا جمعية الاتحاد الإسلامي لمالي وهي الجمعية الإسلامية الوحيدة المرخص لها بالعمل في مالي.

ودعوا إليها القائم بالأعمال في السفارة السعودية الذي هو أكبر الموجودين فيها رتبة الأستاذ عبدالعزيز زكي.

ومن العاملين البارزين في الجمعية الأمين العام لها وكان مديراً للداخلية ورئيساً لحجاج مالي عدة مرات وأمين الصندوق فيها أحمدو سي والسكرتير العام محمود كوجي. وآخرون.

يوم الثلاثاء ١١ ذي الحجة ١٤٠٢هـ :

هذا اليوم هو الحادي عشر بالنسبة إلى تقويم المملكة، فهو الثاني من أيام عيد الأضحى ولكنه اليوم العاشر من ذي الحجة حسبما سار عليه القوم في هذه البلاد.

وقد سرت في كتابة هذه اليوميات على التقويم الهجري المعتمد في المملكة وهو السائر على تقويم أم القرى الذي هو التقويم الرسمي فيها فعليه تحتسب الرواتب والمكافآت وبه تحدد أيام العمل والأجازات وما خالفه من تقاويم لا يعتد بها في هذا المجال.

وهو الذي ابتدأت القيد به عند خروجي من المملكة لأنني اعتبره صحيحاً ولأنني لا أعرف التقاويم الأخرى وهي -بعد- مختلفة فيما بينها ما بين شرقي العالمي الإسلامي وغربيه.

وكيف لا اعتبر تقويم أم القرى صحيحاً وأنا عضو في اللجنة المشرفة على اصداره وهي لجنة ملكية مؤلفة من أربعة أشخاص هم الشيخ عبدالله ابن خميس الأديب المعروف والأستاذ محمد بن صالح العميل وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني المساعد للشؤون المالية والإدارية. وكاتب هذه السطور وأضيف إليهم من الفنيين الأستاذ عبدالله بن سليم والدكتور فضل أحمد نور محمد من باكستان ومختص في علم الفلك والأستاذ محمد العماري مدير مطابع الحكومة.

موكب رئيس الجمهورية :

أبلغتنا المراسم في وزارة الخارجية أن ذهابنا إلى صلاة العيد سيكون في موكب رئيس الجمهورية وأنه ينبغي أن نكون في الساعة الثامنة صباحاً في قصر الشعب حيث ينطلق الموكب بعد ذلك عندما يحضر رئيس الجمهورية.

ويسلم على الموجودين فيه ويذهب إلى جامع الملك فيصل في باماكو لأداء صلاة العيد في الساعة التاسعة.

قبل الموعد المحدد جاء السائق وموظف المراسم وقد لبس كل واحد منهما لباساً وطنياً جديداً واسعاً بل فضفاضا، كما لبس زميلي السفير عبدالوهاب الدكوري حلة وطنية زاهية لم أرها عليه من قبل وانطلقنا إلى قصر الشعب مقر الحزب الحاكم المسمى الاتحاد الديمقراطي لشعب مالي.

واوقفنا السيارة في ساحة القصر المذكور ووقفنا عندها ولم يكن قد وصل إلا عدد محدود من الناس ثم توافد كبار القوم من الوزراء وسفراء البلدان الإسلامية أو رؤساء البعثات الدبلوماسية الإسلامية في باماكو.

كان الجميع قد ارتدوا الملابس الوطنية وكنت ارتدي الملابس العربية الكاملة وكذلك كان يفعل الأستاذ عبدالعزيز زكي القائم بالأعمال في السفارة السعودية في باماكو.

ومن العادة ألا يحضر من السفارات الإسلامية إلا شخص واحد هو رئيس البعثة كما أنه لا يحضر إلا الوزراء وكبار النواب وكبار أعضاء الحزب الحاكم.

وقد ظل الذين حضروا واقفين في الساحة لعدم وجود كراس ولأن الموضع موضع وقوف. وليس بموضع جلوس كما عرفت فيما بعد.

وكل شخصية من الشخصيات الكبيرة تحضر تسلم على الموجودين. وكان زميلي السفير الدكوري شخصية معروفة محبوبة فكانت له صلات متعددة بكبار القوم فكان يعرفني بهم ويعرفهم بي وكان سروري بالغاً بالاطلاع على هذا التقليد في الذهاب إلى صلاة العيد في هذا البلد الإسلامي العريق.

كان من الشخصيات البارزة التي احتفى بها القوم رئيس مجلس النواب (صديقي جرام) والعقيد أحمد بابجرا الرجل العسكري الثاني في الدولة. ومن السفراء ورؤساء البعثات السياسية الذين حضروا سفير الجزائر والسفير العراقي والسفير الغيني السيد (دوميا) والمصري (حسن سلامة) وممثل فلسطين.

ومعظم السفراء المسلمين هم من العرب، كما حضر شخص مغربي عليه الملابس المغربية وهو يرأس إحدى الهيئات التابعة للأمم المتحدة العاملة في مالي، وإلا فإنه لا يوجد سفير مغربي في باماكو بسبب مسألة الصحراء الغربية التي انحازت فيها مالي إلى جانب الجزائر مما أغضب عليها المغرب. وإن كان (الماليون) يقولون: إن السبب في ذلك هو مجاملة الجزائر وطلبا لحسن العلاقات معها نظرًا للحدود الطويلة التي تمتد بين الجزائر ومالي. ولأن الجزائر تقدم بعض المساعدات الاقتصادية لمالي وتشترك معها في الخط الأسفلتي الطويل الذي يخترق الصحراء الإفريقية الكبرى حتى الساحل الجزائري على البحر الأبيض المتوسط.

ولكن مالنا وللسياسة التي قد يفسد الخوض فيها جمال هذا الصباح المشرق البهيج. لأن أكثر أمور السياسة في البلدان العربية والإسلامية محزن ومن مظاهر ذلك أن القائم بأعمال السفارة الليبية في باماكو هو الشخص الوحيد الذي لم يسلم علينا رغم الملابس العربية الظاهرة التي ربما كانت هي المنفر الأول عن المجاملة بإلقاء تحية العيد في مجمع عام ضم صفوة القوم ومفكريهم فكان واقفًا منعزلاً عن بقية سفراء الدول الإسلامية الذين كانوا قريبين منا حتى أبعد بعضهم عنا في حركة غير مقصودة فوقف عند أحدهم.

وما عدا هذا المظهر الصغير الذي لا يزيد على أن يكون نقطة رمادية

صغيرة علـى بياض هذا اليـوم المشرق كنقاء قلـوب إخواننا الماليـين ونصاعة ملابسهم النظيفة فيه.

أما المكـان فإنه لا يعتـبر فاخرًا وإن كان جـميلاً إذْ هو فـناء متوسط الـسعة تتوسطه زهور مختلفة الألوان في دائرة صغيرة.

وتشاكل ألوان هذه الزهور النقوش المتنوعة الموجودة على الملابس الوطنية الفضفاضة التي يرتديها هؤلاء الإخوة جديدة قشيبة لمناسبة العيد.

وهي فـضفاضة إلـى درجة أن أكثرهـم قد رفع أكمـامها الطـويلة الواسـعة على كتفيه ليتفادى تركها تتدلى إلى جانبيه وقد تعيق حركة يديه.

ونقوش الثـياب تكون موجودة في الجـزء الأمامي من الثوب عـلى الصدر والنحر، وفي الخـلفي الذي على الظهر. ونقـوشها من خيوط حريرية مـختلفة الألوان، على ثياب أغلب لونها البياض على أجساد قد غلب عليها السواد.

السلام على الرئيس :

عندما قرب موعد وصول الرئيس أخذ موظفو المراسم يصفون الناس صفًا واحدًا على كثرتهم وطول الصف يتعرج مع تعرج المكان.

وقد لبـثنا هنيـهة ثم أقبـل موكب الرئيـس يتقدمه راكـبوا الدراجات الـنارية فوقـف في مـدخل فنـاء القـصر عنـد أول الصـف ثـم ترجـل وأخذ يسـلم عـلى الحاضرين الواقفين يصافحهم واحدًا بعـد واحد ولا يتلبث كثيرًا بل يسرع في الانتقال إلى الشخص الذي يليه.

والطريـف أن الأشخـاص الذين ينتهي الرئيـس من مصافحتهم يـنسحبون من الصـف في هدوء ويذهبون إلى حيث سياراتـهم يركبونها بحيث أنه عندما انتهى من مصافحة الشخص الأخير لم يكن قد بقي في الصـف واقفًا غيره.

ولقد جاملني الرئيس أو على الأدق جامل بلادي مجاملة خاصة إذْ أنه عندما وصلني واخبره الشيخ الدكوري باسمي وعملي وأنني من المملكة العربية السعودية شد على يدي بقوة وأخذ يسأل عن الحال وعن الوصول وعن الإقامة ولم يقف عند أحد في طول الصف الذي يضم وجهاء الأمة وسفراء الدول الإسلامية أكثر مما وقف عندي.

ثم ركب سيارته التي تتقدمها الدراجات النارية وسيارات الشرطة وتبعناه في موكب من السيارات ممتد طويل يتحرك بسرعة وذلك لأن الطريق الذي يمر به الموكب معروف قد نظم فيه رجال المرور السير لهذه المناسبة كذلك كنا نرى أفواج الشعب من رجال ونساء على جانبي الطريق والجميع قد لبسوا ملابس نظيفة أكثرها جديد إن لم تكن كلها جديدة فهم يحتفلون بملابس العيد أكثر مما نفعله نحن. ورأينا طائفة من الفتيات يرقصن على جانبي الطريق الذي مر به الموكب إظهاراً للفرح والسرور.

صلاة العيد :

وصل الموكب إلى جامع الملك فيصل فكان الآلاف المؤلفة من الناس قد حضروا لأداء الصلاة وكانت حديقته الفسيحة وأرصفته العريضة تغص بهم لا أشك في أنه لو اجتمع المصلون عليها دون سواهم، لكانوا يؤلفون جماعة مسجد جامع كبير من المساجد التي تؤدى فيها صلاة العيد في البلدان العربية.

حتى ما كان من الأرصفة والباحات أمام المحراب كان مشغولاً بالناس الذين ينتظرون الصلاة وهذا أمر غير معتاد بطبيعة الحال إذْ يخشى أن يتقدم أحد من المأمومين على الإمام في جهة القبلة خارج المسجد ولكن أحد الإخوة قال لي إنهم يتركون ما كان أمام موقف الإمام نفسه خالياً.

والحقيقة أن المرء يعجزه إذا كان قد قدم إلى الجامع وهو في صفته

الشخصية مُنفرداً أن يجد مكاناً يصلي فيه ولكننا في موكب رئيس الجمهورية وقد حجزوا له أماكن كافية في قلب الصف الأول وقلب الصف الثاني الذي يليه.

كنا في أول الداخلين مع الموكب فجلس الرئيس فيما تسميه العامة عندنا روضة المسجد أي قلب الصف الأول الذي خلف الإمام مباشرة ولم يجلس بجانبه عن يمينه ويساره أحد من الأشخاص البارزين الذين قدموا في موكبه وإنما أحاط به العلماء ورجال الدين.

وكان الذين معه في الموكب في قلب الصف الثاني فكنت في مقدمة الذين فيه يلينا على بعد قليل السفراء ورؤساء البعثات مختلطين بكبار القوم من الوزراء ورجال الحزب الحاكم.

وهذه عادة تشبه العادة المتبعة عندنا بأن يكون كبير علماء الدين بجانب الملك أو ممثله مقدماً على الوزراء والسياسيين.

وكان أحد الوعاظ يلقي موعظة بلغتهم الوطنية في مكبرات الصوت عندما وصل الموكب إلى الجامع وهو أحد المتخرجين من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. فالجامع هو جامع فيصل الذي بنته المملكة العربية السعودية والذي يعظ هذا الجمع الحاشد العظيم بلغته الوطنية هو أحد خريجي جامعات المملكة. وهذا أمر هزني وقلت في نفسي: هكذا ينبغي أن يكون التعاون.

فلما استقر المجلس بالرئيس قطع الواعظ خطبته وترك مكبر الصوت للإمام الذي أم الناس لصلاة العيد كما نفعل نحن من دون اختلاف. وكانت صلاة مطمئنة متأنية. ثم خطب بعد الصلاة خطبتين بالعربية قصيرتين لاشك في أنهما من الخطب القديمة المكتوبة ولا شك أيضاً في أن أكثر

الحاضرين لا يفهمون ما جاء فيهما وإنما كانوا يفهمون موعظة بلغتهم الوطنية قبل الصلاة.

كان الإمام يرتدي الزي القديم لزعماء القوم وعلمائهم وهو برنس مغربي أو كالمغربي بني اللون ويدير فوق رأسه عمامة ذهبية اللون ليس لها حنك إلا لفة واحدة دقيقة. وتحتها طربوش أحمر.

ومعه عصا طويلة ذات حلقات ذهبية اللون أيضاً.

وكانت الإذاعة تنقل الخطبة وسائر شعائر صلاة العيد وكان موظفوها يتنقلون أحياناً بالمكبر ويواصلون ذلك.

أما الخطبة فإنها قديمة كما ذكرت قد استلت من كتاب قديم، وفيها عبارات غير لائقة بل فيها منافاة لمذهب أهل السلف في إيراد عبارات لم يرد بها نص شرعي صحيح مثل قوله (الحمد لله الأول فليس له مثال. والآخر فليس له زوال) وإن كان معناها صحيحاً إلا أن وصف الله سبحانه يجب أن يكون بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ.

ومثل قوله فيها (بحرمة نبينا محمد ﷺ).

ومن ألطف ما في صلاة العيد أن الإمام كان يقول في تكبيرات الصلاة كلها (الله أكبر) يقف على الراء بالسكون كما يفعل غيره في أنحاء العالم إلا أنه في تكبيرة التشهد التي هي آخر تكبيرات الصلاة قال (الله اكبرُ) بضم الراء تمييزاً لها عن التكبيرات الأخرى التي سبقتها. وهو أمر كان يفعله بعض الأئمة بإخراج الجملة في هذه التكبيرة مخرجاً خاصاً يدل على قرب الانتهاء من الصلاة مثل مدّ لفظة الجلالة أو خفض الصوت في آخر الجملة.

كان مظهر علية القوم وأجلائهم في الصلاة مظهر الخاشعين الساكنين

وعلى رأسهم رئيس البلاد (موسى تراوري) فقد كان يرتدي ثياباً بيضا ناصعة البياض وكان يجلس وهو مطاطي رأسه في خشوع ولا يبدو فيهم، وفيمن يلونهم أي أثر للتشبه بالإفرنج مثلاً أو غيرهم من الكفرة في الزي ما خلا ملابس بعض سفراء الدول الإسلامية من العرب فقد كانوا يرتدون الزي الإفرنجي ماعدا المغربي.

وكان حرس الرئيس وأجلاء القوم موجوداً بأعداد غير كبيرة وقد اصطف على هيئة الهلال المفتوح على جهة المحراب قبلة المصلين.

وعندما فرغ الإمام من خطبتيه ترك المكبر وجلس بجانب الرئيس فنهض الشيخ خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وتسلم مكبر الصوت وأخذ يتكلم باللغة الوطنية قالوا لي بعد ذلك إنه كان يترجم خطبتي العيد اللتين القاهما الإمام بالعربية.

فبينما كان ماضياً في كلامه نهض نائب الإمام واسمه (ادريس حيدرة) فانتزع منه المكبر وقال شيئاً بلغتهم ثم أعاد المكبر إليه وعاد إلى مكانه في قلب الصف الأول ليس بينه وبين الرئيس إلا رجل واحد.

وبينما كان الشيخ يتكلم نهض شيخ كبير يزيد عمره على الثمانين فأخذ المكبر منه وتكلم بشيء لا نفهمه من لغتهم فترة قصيرة ثم أعاد المكبر إليه.

ثم نهض الأمام نفسه وأخذ المكبر منه وأخذ يتكلم بكلمات ترجمها الشيخ المتخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة إلى اللغة العربية وتتضمن الثناء على رئيس الجمهورية الحاج موسى تراوري. وأن الإمام ينتهز هذه الفرصة فيبلغ تحياته وتحيات إخوانه المسلمين من أهل هذه البلاد إلى أعضاء السلك السياسي الموجودين هنا بهذه المناسبة المباركة.

ثم قربوا مكبر الصوت أمام نائب الإمام (إدريس حيدرة) فأخذ يصلي على النبي ﷺ ويردد دعوات مباركة بالعربية أيضاً وكان الجميع يتابعون بالتأمين، بطريقة منسقة كانت ترتج لها جنبات هذا الجامع العظيم ثم ختم دعاءه بقراءة الفاتحة.

ثم انتقل المكبر إلى شيخ آخر جالس فأخذ بالدعاء بالعربية أيضاً وعندما فرغ من دعائه أعطاه شيخاً آخر كان جالساً بجانبه والجميع من أهل العلم والدين فدعا وقرأ الفاتحة. ثم لشيخ سادس ودعا أيضاً وأمَّن الناس خلفه وختم دعاءه بالفاتحة أيضاً.

بعد هذه الأدعية المستطابة التي قابلها القوم بالتأمين والخشوع. أخذ العلماء الذين يحفون بالرئيس يصافحونه يهنئونه بالعيد وهم جلوس وهو جالس أيضاً وظننت أن الأمر ستكون فيه مصافحة أيضاً للآخرين وذلك سيطول غير أن الرئيس نهض بسرعة وانطلق خارجاً من المسجد يتبعه الجمهور بسرعة وأخذ زميلي الشيخ الدكوري بيدي بسرعة أيضاً وهو يجنبها قائلاً؛ لنسرع ما استطعنا لأننا إذا لم نخرج الآن ضمن موكب الرئيس فإننا لن نستطيع التحرك إلا بعد وقت طويل لكثرة الناس وكثافة الزحام. ومع ذلك كاد الزحام يطبق عليها وكانت عباءتي تنشب في أثواب الآخرين لولا أننا أسرعنا إلى سيارتنا التي كانت قد وقفت عند باب المسجد متهيئة أمام سيارات السفراء وكبار القوم. وقد أعدها موظف المراسم للانطلاق السريع لمعرفته بهذا الأمر.

وكان أن أنقذ لنا وقتنا من الضياع مما استدعى الأمر أن أقدم له (عيدية) وهي هدية نقدية لمناسبة العيد. ولسائق السيارة مثله فشكرا ذلك.

ومنحتهما مع ذلك شيئاً ثميناً أيضاً بالنسبة إليهما وهو إجازة مفتوحة من

الآن إلى مابعد صلاة العصر ليقضي كل واحد منهما فترة من يوم العيد مع أسرته.

وكان البرنامج يشتمل على زيارة لمعهد السنة واجتماع برئيس أنصار السنة الشيخ (أحمد حماه الله) بعد صلاة الظهر فأخرناه إلى العصر.

وقد بقيت في الفندق ظهر هذا اليوم وكان مما لفت النظر فيه أن إدارة الفندق رمت في غرفتنا بإعلان بالفرنسية يقول: إنه لمناسبة العيد فإن الغداء سيكون هذا اليوم بجانب البركة في الحديقة وسيكون الطبق الرئيسي فيه شواء منوعًا حسب الاختيار.

وكان لذلك ما يبرره لأن أعدادًا من الأوروبيين الساكنين خارج الفندق قد حضروا بأسرهم إلى المكان فغص المطعم برواده وكان من المآكل النادرة فيه (الكسكسون) السوداني وهو لا يبعد كثيرًا عن (الكسكسو) المغربي كثيرًا إلا أن السودانيين الغربيين أهل هذه البلاد يصنعونه من الدخن والمغاربة يصنعونه من البر.

إلى مسجد السلفيين :

كان تعريف هذا الفقرة في البرنامج إلى مسجد أنصار السنة غير أنه تبين أنه ليس تعبيرًا دقيقًا وإنما الدقيق أن نقول إلى مسجد السلفين فالشيخ (أحمد حماه الله) كان معروفًا لنا منذ سنوات بأنه من أوائل أنصار السنة العاملين على نشر العقيدة السلفية في هذه المدينة وكنا نفهم من ذلك أن هناك جماعة معه كما يكون الأمر في كثير من البلاد ولكن تبين لنا أنه هو إمام مسجد السلفيين هذا.

وهو بالفعل رجل سلفي العقيدة لا يهادن في ذلك ولا يجامل أو يداجي، ولكنه الكل في الكل بالنسبة للجماعة وإن كان هنا مجرد إمام للمسجد هذا

ذهبنا إليه قبل المغرب ولاحظت أن الناس في الشوارع من رجال ونساء وأطفال كلهم يرتدون الملابس الجديدة لمناسبة العيد واخبرني بعض إخواننا أنهم يكادون يرون أن لبس الثياب الجديدة في يوم العيد واجب أو أمر لابد منه.

وأكثر ملابس الرجال هي البياض ولا سيما لون (الطاقية) غطاء الرأس الشائع فإنه يكون أبيض وتكون واقفة (منشاة) معتنى بها.

وأما النساء فإنه لا يوجد لون غالب معين على ملابسهن.

فوصلنا المسجد قبل أذان المغرب ورأيت من زحام الناس على أماكن الوضوء فيه وعلى مداخل المسجد نفسه ما أعجبني.

وقابلت مؤذن المسجد وهو يرتدي الملابس العربية التي هي ملابسنا السعودية من دون تغيير واسمه (آدم محمد كولو ياللي) وهو يعرف قدراً من العربية وعندما أذن لم أصدق أنه هو نفسه لأنه يؤذن كما يؤذن المصريون بصوت غليظ الطبقة عربي المخارج بخلاف ما كنت قد ألفته من رقة أصوات إخواننا الأفارقة بالأذان وقراءة القرآن.

وقد كان المسجد على سعته قد غص بالمصلين قبل أن يكمل المؤذن أذانه فأم الناس الشيخ أحمد حماه الله إمام المسجد وكان قد عرض ذلك عليَّ فامتنعت.

وبعد الصلاة ألقيت فيهم محاضرة طويلة بناء على رغبة منهم والحاح من أكثرهم وقد استمرت حتى أذن المؤذن لصلاة العشاء وذلك لما وجدته من إصغاء إلى المحاضرة واهتمام بذلك وكنت أتكلم وأنا واقف فيترجم ذلك الشيخ أحمد حماه الله إلى اللغة المحلية.

وقد ذكرت فيها ماضي مالي الإسلامي المجيد، وطلبت منهم العمل على إعادة ذلك الماضي الإسلامي الزاهر وذلك بالتقيد بما أمر الله به ورسوله في القول والعمل والسلوك والمعاملة. وبينت أثر العقيدة السلفية في نجاح السلف الصالح من المسلمين الذين كان الإسلام في عهدهم واضحاً نقياً ليس فيه خلوات ولا رهبانية ولا اعتماد على الأقوال دون الأفعال أو إهمال للجانب الهام وهو حسن المعاملة وقلت لهم: إن هذا هو السبب في انتشار الإسلام في مناطق شاسعة من العالم لأن المسلمين الجدد في البلدان التي فتحها الإسلام كانوا يرون في الصحابة والسلف الصالح من المسلمين القدوة الحسنة والنماذج الصالحة التي تحتذى فيصبحون هم أنفسهم أناساً صالحين لأنهم يأخذون بالإسلام قولاً وعملاً وعقيدة ومنهاجاً للحياة.

ثم بينت لهم أن الإسلام هو دين الرحمة والعدل والإنصاف للمسلمين ولغيرهم بل حتى للحيوان فقد جاء الحديث عن رسول الله ﷺ بالحث على الرفق بالحيوان والاحسان إليه عند الذبح وذلك في أحاديث كثيرة منها (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته).

عشاء الخارجية :

أقامت وزارة الخارجية لنا حفلة عشاء في الساعة الثامنة والنصف في فندق (قراند هوتيل) في وسط المدينة وهو الفندق الذي كان أول فندق في المدينة قبل إنشاء فندق الصداقة (اميتي) الذي نسكن فيه.

حضر المأدبة وزير الصحة (نقولو تراوري) والقائم بالأعمال في السفارة السعودية الأستاذ عبدالعزيز زكي وهو يعرف الفرنسية فكان في ذلك إراحة لزميلي الشيخ عبدالوهاب الدكوري الذي ربما كان قد تعب من الترجمة من

الفرنسية إلى العربية وبالعكس ما بيني وبين وزير الخارجية الذي كنت أحرص على سماع أفكاره وآرائه في المسائل المتعلقة بهذه المنطقة الإسلامية من غرب إفريقية وذلك لذكائه وحصافته وحسن تقديره للأمور. وعجبي من فهمه لما وراء السطور. ومع مسؤلياته الكبيرة لكون هذه الليلة هي ليلة العيد فقد وجدناه حضر إلى الفندق قبل وصولنا.

وكان مما قاله من كلام كثير مفيد : إن الأوروبيين لا يساعدوننا إلا إذا تأكدوا من العائد المالي الذي سيعود إليهم من ذلك فنحن قد طلبنا منهم عدة مرات أن يساعدونا في تحسين صحة المواطنين كما يعرف بذلك زميلي وزير الصحة ولكنهم لا يريدون ذلك وإنما عرضوا علينا المساعدة على إنشاء مصنع للأسمنت مثلاً لأنه يدر عليهم ربحاً مضموناً أما صحة المواطنين فإنه لا يهتم بها إلا إخواننا المسلمون مثل إخواننا في المملكة العربية السعودية.

يوم الأربعاء ١٢/١٢/١٤٠٢هـ : ٣٠/٩/١٩٨٢م

إلى مدينة تنبكتو :

تنبكتو: مدينة مجلجلة في عالم التاريخ السوداني الغربي بل كنا نعرف بها قبل أن نعرف بالسودان الغربي هذا من الكتب التي ألفها علماؤها ومن كتب الطبقات والتاريخ التي ترجمت لفقهاء المذهب المالكي وعلمائه.

وبعد ذلك عرفت بنفسي عدداً من فضلائها وعلمائها لعل أقربهم مودة وأكثرهم بحثًا معي في علوم كثيرة أهواها وأحب البحث فيها والاستزادة منها هو الشيخ حماد بن محمد الأنصاري زميلي في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ورفيقي في محبة الكتب النادرة مخطوطها ومطبوعها وبخاصة منها ما كان متعلقًا بالتاريخ والرجال والحديث النبوي الشريف وعلومه. ولذلك يملك الشيخ حماد الأنصاري أكبر مكتبة خاصة متعلقة بهذا الموضوع أعرفها في المملكة العربية السعودية.

وهو علامة نابه ساعد أعداداً من الباحثين في هذا الموضوع ولذلك يعمل الآن أستاذاً في قسم الدراسات العليا بالجامعة.

وهو أنصاري منسوب إلى الأنصار هذه النسبة التي ينتسب إليها عدد من كبار العلماء والأدباء في المملكة الذين جاءوا من تلك البلاد مثل الشيخ الطيب الأنصاري أحد العلماء السلفيين المشهورين الذين تخرج على أيديهم جيل كامل من طلبة العلم في المدينة المنورة منهم الشيخ محمد بن علي الحركان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي والشيخ الطيب التنبكتي المنسوب إلى مدينة (تنبكتو) هذه.

ومن الأنصاريين هؤلاء - إن صحت النسبة إلى الجمع - الشيخ عبدالقدوس الأنصاري صاحب مجلة المنهل ومن أوائل رواد البحث والأدب

في المملكة العربية السعودية والدكتور عبدالرحمن الأنصاري رائد علم الآثار في المملكة العربية السعودية وأعلم سعودي عرفته بذلك وكان عميداً لكلية الآداب في جامعة الرياض فترة.

ويصعب تعداد النبغاء والنابهين بينهم لكثرتهم وقد عرفت منهم طائفة من أبنائنا وتلاميذنا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وغيرها.

وكثرتهم إلى جانب شهرتهم جعلتني أهتم كما يهتم غيري بهذه النسبة (الأنصاري) هل هي نسبة صحيحة إلى الأنصار أهل المدينة المنورة الذين آووا رسول الله ﷺ وأكرموه وآثروه وأصحابه المهاجرين على أنفسهم حتى قاسم بعضهم بعض صحابة رسول الله ﷺ المال وتنازلوا عن بعض الزوجات. لأن المهاجر لم يكن يملك عند وصوله إلى المدينة المنورة مالاً يجعله مهراً لامرأته بعد أن كان قد ترك أهله وماله في مكة.

كنت سألت عدداً منهم عن ذلك فأجابوا: نعم،هذه النسبة إلى الأنصار أهل المدينة لأن أوائلنا كانوا قد قدموا من المدينة المنورة. فكنت أسألهم. ولماذا؟ إذاً أنتم الآن معدودون عند العرب، أهل تلك الناحية من العجم لأن لغتكم الأصلية هي (الطارقية) نسبة إلى الطوارق الذين هم ليسوا من العرب وإنما هم من البربر على أحد الأقوال، أو من الصحراويين سكان الصحراء على أصح الأقوال التي ربما لا تتنافى مع أصلهم القديم. والذين يعرفون العربية من الأنصاريين هؤلاء - إنما تعلموها تعلما وعرفوها تلقيناً فهم أكثر القبائل الصحراوية الأفريقية علماً، وأحرصهم على تعلم العربية. حتى إنهم وهم أهل بادية وانتجاع للكلأ وشد وارتحال كانوا يحملون مكتباتهم وربما يصح القول: إنهم كانوا يحملون مدارسهم معهم على ظهور إبلهم عند نزولهم وارتحالهم.

وعندما وصلت إلى مالي وقبل ذلك في النيجر عندما قابلت بعض علماء الطوارق سألتهم عن معنى كلمة الأنصاري هذه وهل تدل على أن القوم من

الأنصار المدنيين في الأصل؟ فأجابوا: بأنهم لن يتكلموا في الأصول البعيدة لأنها من الأمور التي لا تعرف إلاَّ بالنقل وإنما يتكلمون عن الحاضر والمتصل منه بالماضي القريب فيعرفون أن لفظ تسميتهم في لغتهم (كلنصر) و(كلنصر) معناه: أهل النصر، فكل، معناها: أهل أو (ذو) وانصر: معناها: النصر فهم إذًا: أهل النصر وأهل النصر -لغويًا- هم الأنصار أما العرق والنسب البعيد فالله أعلم به والذين يعلمون من الناس شيئًا منه عددهم قليل، ولكن هناك قولة عريضة ربما يكون أول من أطلقها أو من أوائل الذين أطلقوها ابن الكلبي النسابة حينما قال إن البربر هم من حمير وقال غيره إن الطوارق من البربر: وحمير من العرب العاربة فهم إذًا من العرب حتى قبل أن يتعلم علماؤهم اللغة العربية وقبل أن يعرفوا ذلك.

تمامًا كما قال ابن الكلبي في طوائف أخرى من المستعجمين الآن كالأكراد بأن أصلهم من العرب العاربة بل إن أجدادهم يمتون بصلة القربى في النسب إلى تبابعة اليمن. أي ملوكها.

على أنه مما ينبغي لنا أن نتذكره أن الكلام على الأنصاريين هؤلاء عند الكلام على مدينة (تنبكتو) لا يعني أنهم كلهم من أهلها المقيمين بها فهي بلدة حضرية وهم قوم من القبائل الرحل ولكنها دار قوم منهم بالاستقرار والاستمرار فيها، ودار قوم منهم بالتردد والاقامة المؤقتة وهي قاعدة لأكثرهم بالارتياد والترداد حتى إن طوائف منهم يقضون الأشهر الطوال في بيوت لهم من الأدم -أي الجلود- غير بعيد من (تنبكتو) في فصل الصيف لأن الإشراف على المواشي يقتضي أن يكون السكن في بادية وخطر الظمأ في الصحراء العطشى في الصيف يجبر على البقاء غير بعيد من مصادر المياه.

هذا شيء عن حال هؤلاء الإخوة الذين إن لم يثبت أصلهم في النسب الجسدي إلى أنصار المدينة فإن أصلهم القوي المتين في النسب العلمي

والديني إلى أهل مكة والمدينة هو نسب قوي ربما فاق أنساب كثير من أهل مكة والمدينة المعاصرين إلى أولئك السلف الصالح من المهاجرين والأنصار الأولين.

وكفى بذلك شرفًا وأعظم به فخرًا وذكرًا.

أما سائر طلبة العلم من الأنصار هؤلاء فإنهم يؤكدون أنهم من الأنصار أهل المدينة من الأوس أو الخزرج لا يشكون في ذلك، ولا يحبون من يشكك فيه.

ومدينة تنبكتو كانت مشهورة في التاريخ العربي القديم نوّه بذكرها الرحالة من العرب والبربر وعلى رأسهم العبقري العظيم ابن بطوطة ثم نَوَّه بذكرها وبالوصول إليها المستكشفون الأوربيون في القرن الثالث عشر الهجري.

وإن كان أثر ذلك التنويه في الحقبتين ومن النوعين من الرحالين مختلف النتيجة لأنه غير متحد القصد، فقد كانت رحلة ابن بطوطة بردًا وسلامًا على تنبكتو وأهلها لأنه نوه بها كما نوه ببلد إسلامي عزيز.

وأما أولئك المستكشفون الأوربيون فإن اكتشافهم لها كان الدافع إليه المعرفة التي تقود إلى طمع وكان الطمع الذي أعقبه الاستعمار الذي عاد على ثقافة البلاد ومثلها العليا بالخسار.

من باماكو إلى تنبكتو :

غادرنا فندق الصداقة مصحوبين بموظفي المراسم وبعض المودعين إلى مطار باماكو في الساعة الخامسة والنصف فجرًا وكان الظلام لا يزال مخيمًا على المدينة، فتناولنا طعام الإفطار في صالة كبار الزوار في المطار وكان طعامًا جيدًا.

وفي الساعة السابعة والثلث كانت الطائرة الصغيرة التابعة لخطوط مالي

الجوية تدرج على أرض المطار تحجل كما يحجل الغراب وهي تهم بالاقلاع غير أننا لا نريد ذكر الغراب هنا لا لكونه عند العرب يدل على التشاؤم والاحتراب، وإنما لكونها بيضاء اللون كلون البيض من الحمام إذا كانت محلقة بين الفمام فإنها تشبه غمامة مسرعة، أو تشبه شراع سفينة مشرعة.

الطائرة من خطوط مالي الجوية صغيرة ذات محركين، وفيها ثمانية عشرة مقعداً وفيها طياران أو على الأدق طيار واحد ومساعده وذلك أمر مهم لأن بعض الطائرات الصغيرة لا يكون بها إلا الطيار نفسه، ولكن ذلك مخاطرة كبيرة لأنه لو حصل للطيار مكروه في أثناء الرحلة لما كان في الركاب من يحسن أن ينزل بالطائرة إلى الأرض.

والطياران هما وطنيان أصيلان من بلاد مالي ذات الأصالة التاريخية العريقة أحدهما فلاني -بالنون- كما يقول هو وأهل بلاده، و(فلاتي) -بالتاء- كما يقول بعض بني قومنا في الحجاز اسمه (عبدالرحمن سيدي بي)، وكان طياراً حربياً ويقولون إنه من ذرية أقارب الشيخ عمر فوتي الزعيم الديني المشهور الذي حارب الفرنسيين مدة طويلة في غرب إفريقية. أما مساعده فإن اسمه (عمر تال) وكذلك الركاب فإنهم كلهم من المواطنين الأفريقيين ما عدا رجلاً أوربياً واحداً وزوجته.

ولا غرو في ذلك لأن أهل (مالي) منهم رجال المال والأعمال المهرة ومنهم التجار الكبار الذين يعملون بالتجارة خارج البلاد ويجنون من ذلك ثروات طائلة يدخلونها بلادهم وينعشون بها اقتصادهم وإن يكن أثرها محدوداً.

ومن لطيف ما في هذه الطائرة أن جناحيها فوق النوافذ فيستطيع الراكب أن يرى الأرض تحته من دون أن يحول بينه وبينها شيء.

عندما نهضت الطائرة كان المنظر منها هو منظر الريف المزروع كله الذي

تنتشر فيه بيوت الفلاحين وعلى الضفة الشمالية لنهر النيجر، أو(نيل السودان) أشجار كثيرة نضرة من أشجار الفاكهة كالعمبة (المانجو) والليمون والبرتقال. كما تبدو حقول الأرض خضراً مزدهرة في الأراضي المنخفضة.

وقد صارت الطائرة تحلق فوق نهر النيجر ما بين ضفتيه اليمنى واليسرى أي الشمالية والجنوبية. وقد أخذ مجراه يتسع قليلاً وجريانه يشتد وذلك بسبب مروره فوق أراض صخرية يظهر ذلك واضحاً من الطائرة.

مالي بلاد الممالك الإسلامية القديمة :

بعد نصف ساعة من الطيران أصبحنا فوق (سيقو) وهي بلدة كانت عاصمة مملكة إسلامية قديمة من ممالك هؤلاء (الماليين) أو السودانيين الغربيين ولها ذكرى عطرة في النفوس في كتب التاريخ.

فأينما توجه المرؤ في مالي فإنه لابد أن يجد ما يذكره بالممالك الإسلامية أو السلطنات الإسلامية التي كان لها ولأهلها أثر بالغ في انتشار الإسلام في غرب إفريقية، أو في إضافة أمجاد إلى أمجاده في تلك البقعة أو في إثراء الثقافة العربية الإسلامية هناك.

وقد شاهدنا عاصمة مملكة سيقو وهي بلدة صغيرة تسمى بهذا الاسم تقع على الشاطئ الشمالي لنهر النيجر مباشرة، وهذه المملكة من ممالك (البامبرا) أسسها (مالي كوليبا) الذي استمر ملكه من عام ١٧١٢م حتى ١٧٥٥م.

ثم تركت الطائرة النهر على جهة اليد اليمنى وصارت تطير فوق مناطق غير مسكونة، إلا أنها عامرة بأشجار من أشجار الرعي الخضر وتكثر فيها الأخاديد التي حفرتها مجاري الوديان الجافة فهي في المنطقة التي تسمى الآن منطقة الساحل ويراد بذلك ساحل الصحراء الكبرى أي جانبها الجنوبي وليس المراد بذلك ساحل البحر، أو ساحل النهر بطبيعة الحال. وتلك

الوديان والمجاري هي لوديان متجهة إلى نهر النيجر العظيم لأنها تصب فيه مع أنه غني عنها لأن مياهه الرئيسة تأتيه من أعاليه التي تقع في جبال غينيا المسلمة ذات الأمطار الغزيرة التي تأتي إليها من سحب رواء قادمة من البحر المحيط الأعظم كما كان أجدادنا يسمونه أو المحيط الأطلسي كما أصبح عوام الكتاب عندنا يسمونه يقلدون بذلك الأفرنج كأننا لم نسمع باسم لهذا البحر العظيم إلا منهم، ولم يدروا أو لم يتذكروا أنهم هم الذين سمعوا باسمه أول ما سمعوا به منا نحن العرب المسلمين، فنحن أول من وصف هذه البلاد السودانية قبل أن تكون للإفرنج معرفة بها بل قبل أن تكون لديهم رغبة في المعرفة بها ونحن العرب المسلمين أول من وصفوا هذا الجزء من البحر المحيط الأعظم وأول أناس كتبوا كتابة علمية مدونة عن حال الأمم التي تسكن حوله من الغانيين في غانة القديمة إلى السودانيين إلى الجنوبيين الذي ذكروا أنهم من الهمج الذين يأكلون لحوم بني آدم، ويريدون بالهمج الذين لا دين لهم ولا حضارة عندهم.

مشارف الصحراء :

بدأت الطائرة التحليق فوق أراض شبه صحروایة وأحياناً يخيل إليك أنها الصحراء بعينها فالندى أو البخار العالق في الهواء الذين كنا نشاهده واضحاً عندما كنا نطير قريباً من العاصمة باماكو قد اختفى والخضرة في الأرض قد توارت عن الأنظار ولاأثر للمياه فيها إلا اخاديد حفرتها الوديان الصحراوية التي ليس فيها الآن إلا الرمل الذي يدل على أنها كانت تجري في أوقات غابرة، وأحياناً لا يرى المرء حتى ذلك الرمل وإنما يرى مجرد الطين المعتاد. والأشجار فيها تشبه الأشجار الموجودة في الوديان الجبلية في بلاد الحجاز ما بين مكة المكرمة ونجد ومع ذلك تبين لنا أننا لم نبعد كثيراً عن مجرى النهر وإنما النهر نفسه هو الذي كان يأخذ ذات اليسار في سيره الذي يبدأ من البلاد

المطيـرة، فيمر بالصـحـراء القتيـرة ولا أقول الفقيـرة فربما كان في جوفـها من أسباب الغـنى ما فيه الغنـاء لأهل هذه البلاد المحتاجـة للعلم والعمـل أكثر مما تحتاجه من الإمكانات فلديها المياه الوافرة ولديها الأراضي الصالحة للزراعة ولكن ليست لديها العقول المتفـتحة لأعمار تلك الأراضي وليس لديها الأموال اللازمة لشـراء الآلات الحديثة والقيـام بمشروعات كبيـرة ولا الأيدي الماهرة المنفذة لذلـك، فهي إذًا من البلاد الفقيرة بـاعتبار حالتها الحاضـرة وباعتبار أن ميزانيتهـا ليس فيها ما يكفيها مـن العملات الدولية الصعبة وإن لـم تكن فقيرة في المياه والأراضي الصالحة للإنتاج.

وقد أخذنا نرى نهر النيجر أو (نهر النـيل) العظيم نيل السودان وهو يتلوى في مجراه وتخـيلت ابن بطوطة رحمه اللـه يركب متنه وهو يتلـوى به، ولكنه أيضًا يتلوى فـي سيره فينزل في كل ليلـة بقرية من قراه ويتريث أو يـتلبث في كل مرحلة من مراحله في مدينة مـن مدنه، وقد أنفق في ذلك أربعة وعشرين يومًا من أيـامه الغالـية لأنها أيـامه ولكنـها في الحقـيقة أصبـحت أيام التـاريخ الإنساني العام وأيام المعرفة العربية الخالدة وأيام اللغة العربية التي حفلت بما ضمنته تلك الأيام من معلومات لم يسطرها غيره، ومن تاريخ لم يكتبه سواه.

لو قدر لـه أن يرانا ونحن نـترسم خطاه أو علـى الأدق خطا هواه –بـقصر الألف– وهوائه بمدهـا لأننا نطير فوق ميـاه نهر قد ركب عبابه أو نـشاهد من علو مناطق لم تكن مشاهدتها من علو في حسابه.

لو قـدر لابن بطـوطة أن يفـعل ذلك لكـان حريًا به أن يـرثى لحالـه، وربما خفف مـن مقاله، ولكنـنا سنطمـئنه أو نطمئـن من يريد أن يتـكلم بلسانـه بأنه أرسخ منـا قدمًا في محـبة المعرفـة، وهو أعلى مـقاما في اكـتشاف هذه الـبلاد لأنه سجـل ما سجل في وقـت كان فيه القـريب بعيـدًا، وكان السفر حـتى إلى

ذلك القريب شاقًا. وأما السفر إلى البعيد فإنه لا يقوى عليه إلا أولو العزم من أشد الرجال أمثاله.

ثم إن الذين يكتبون ما شاهدوه، فضلاً عن تمحيص ذلك وتعليله أو تحليله هم قلة من أولئك، فتنقلب الشماتة بابن بطوطة شماتة بنا بدعوانا العريضة، وفخرنا الزائف وينقلب الأمر إعجابًا به واكبارًا بعلو همته، وقوة احتماله.

هذا وطائرتنا لا تبعد كثيرًا عن خط النهر لأنها ستنزل في بلدة موبتي على النهر وبعدها في تنبكتو وهي غير بعيدة من ضفته.

وفي فترة من فترات الطيران أبعد النهر عنا جهة الجنوب فصرنا نطير فوق أراض صحراوية خصبة بالنسبة إلى ما تكون عليه الصحراء في غالب الأحوال فأشجارها غير نضرة ووجهها غير أخضر وربما كان السبب في ذلك بعد عهدها بالمطر.

هذا والطائرة الصغيرة تواصل طيرانها الذي هو رخاء سجسج خال من الاضطرابات والاهتزازات حتى إنها لتفوق في ذلك طيران النفاثات.

وقد أخبرنا الطيار أننا قد تجاوزنا (موبتي) التي كان قد تقرر أن ننزل فيها وذلك من أجل الحرص على راحة الضيوف.

ثم دخلنا في أراض صحراوية خالصة رغم وجود فرع من فروع نهر النيجر يدخل إليها فلا يرى المرء من الطائرة فيها الا حقولاً مزروعة حول ضفة مياه النهر وأما ما كان خارجًا عن نطاق ذلك وبعيدًا عنه فإنه جاف خالٍ من الزراعة.

ماسنا :

قال الطيار (عبدالرحمن سيدي بي) وقال رفيقي الشيخ عبدالوهاب

الدكوري: إننا الآن نطير فوق منطقة (ماسنا) وهي بلاد شهدت أيضاً نشؤ ممالك إسلامية مزدهرة وتخرج في مدنها عشرات بل مئات من علماء الإسلام الأعلام من مؤرخين وفقها. وشعراء باللغة العربية الفصيحة.

وينبغي التفريق ما بينها وبين منطقة أخرى تسمى (ماسنا) واقعة في موريتانيا فهذه -أي الموريتانية هي بفتح السين وأما (ماسنا) المالية هذه فإنها بكسر السين.

وكان من أشهر الولايات الإسلامية فيها ولاية (جني) ذات العلم المنشور والذكر المشهور في هذه المنطقة.

وهي في أرض سهلة لذلك شقت فيها قنوات للري كثيرة تصدر من نهر النيجر، وتضمحل في الأراضي التي تبدو من الطائرة صحراء قاحلة.

وعلى ضفاف تلك القنوات توجد حقول الأرز الخضراء وغيرها من المزروعات النضرة.

ويرى المرء القرى الصغيرة على فرع النهر أو على النيل كما يسمى في التاريخ العربي مبنية من الطين ليس بينها وبين القرى في صعيد مصر المبنية من الطين على ضفاف نيل مصر أي فرق إلا لون الطين نفسه فهو هنا أحمر مائل إلى البياض وهو في قرى مصر أسود أو أحمر مائل إلى السواد.

وهل هذا أحد الأسباب التي جعلت علماءنا العرب يسمون هذا النهر الإفريقي الغربي بالنيل نيل السودان وهي تسمية تشتبه الآن بنيل مصر الذي هو نيل إفريقي وهو نيل السودان أيضاً. ولكن السودان غير السودان فهم هنا أصحاب التسمية العربية الأصيلة القديمة وهم سود بالفعل ربما لعراقة إقامتهم في تلك البلاد الإفريقية التي تصبغ بالسواد.

أما السودانيون الذين هم من العرب فإنهم أقل سوادًا وتسمية بلادهم السودان أحدث عهدًا، وبلادهم بحدودها الحاضرة أحدث تاريخًا، ولذلك يمكن القول أيضًا بأن حظها من الأمجاد التاريخية القديمة أقل من حظ بلاد السودان الغربي في (مالي) وما ألحق بها من البلاد.

هذا وقد أصبح المنظر من الطائرة جميلاً رغم صحراويته ومن أجمل مافيه الوديان الصحراوية التي رسمت خطوطًا متعرجة بين ساحات من الرمال الخالية من النبات ومن أهمها وادٍ يتلوى ليات عجيبة قال لي السفير الدكوري إنه يسمى وادي الأفعى لكثرة تموجه وتلويه.

وقلت في نفسي: ربما كان هذا واديًا جاريًا بالمياه قبل أن يصيبه (التصحر) أي: قبل أن تصبح المنطقة التي هو فيها صحراء.

ومن الأدلة على ذلك وجود عدد من السبخات -جمع سبخة- في المنطقة وفي الأماكن المنخفضة الملحة في الأرض.

وبينما كانت هذه الطائرة الصغيرة قد قطعت ساعتين إلا ثلثًا من سيرها الوئيد الذي لم يصبها بشيء من التعب بدليل أن صوتها هادئ ونفسها مطمئن منتظم تجلت (صحراوية) المنطقة أكثر وأصبحنا لا نرى تحت الطائرة وعلى الخصوص إلى الناحية الشمالية ناحية الصحراء أي أثر للمياه إلا مناقع قليلة متخلفة من مياه الأمطار. ولا أثر للسكان في المنطقة.

والشيء الوحيد الذي يؤنس النظر غير الشعور المجرد بالبعد في هذه الصحراء الافريقية عن صحرائنا العربية هي الخطوط البديعة التي رسمتها مسايل المياه الجافة في هذه الصحراء وهي خطوط مختلفة الأشكال، بل إنها تبدو أشكالاً فنية مختلفة الأنواع ومن أجمل ما تراه العين.

ترعة سينالي :

سن ألي، أو سينالي: أصلها: سن علي وبعضهم يقول: شن بالشين وهي بلغتهم على اللفظين تعني القائم بالملك وهذا اسم لأحد ملوك سنغي المسلمين الذين كانت لهم سلطنات إسلامية هامة قامت في (قاو) إلى الشرق من تنبكتو في مالي وشملت جزءاً كبيراً من (مالي) و(النيجر).

وهي إحدى ممالك منطقة مالي العظيمة (فقاو) عاصمتها وهي المعروفة في المصادر العربية بلفظ (كوكو). وكانوا يقولون: إن ملك السودان في مالي تتألف مملكته من أربعة عشر اقليماً شرقيها إقليم (كوكو) وغربيها إقليم (صوصو). وهذان الاسمان معروفان الآن الأول باسم (قاو) أو (قوّ) بفتح القاف المضرية - بالضاد المنقوطة - وهي التي تعرف الآن باسم الجيم المصرية نسبة إلى - مصر - بالصاد المهملة. إذ أختصر اسمها أخيراً.

وأما (صوصو) فإنها لا تزال معروفة إلا أنها أصبحت بلدة صغيرة تقع على بعد قليل من باماكو عاصمة مالي الحالية. وربما يأتي ذكر ذلك في آخر الكتاب.

والحديث عن (سينالي) هنا ليس المراد منه التعرض إلى ما قيل عنه من انحراف في الدين أو سوء في العقيدة، وتصرفات منافية للشرع، وما حاوله بعض المؤرخين من تبرئته من أكثر مما نسب إليه ومن كون الذي نسب إليه كان من قبيل الاتهام من علماء الدين الجامدين كما قيل. وإنما الحديث عنه أثارته آثار ترعة كبيرة كان قد بدأ في حفرها من نهر النيجر يريد أن يوصل مياهه إلى بلدة (ولاته) التي سماها ابن بطوطة (ويلاتن) وتقع الآن في موريتانيا خارج مالي وتبعد عن نهر النيجر حوالي (٢٣٠) كيلاً وقد انتهى من شق ما يزيد على مائة كيل منها بوسائله التقليدية في عصره الذي لم

يعرف غير ذلك وهو القرن العاشر الهجري وتقول الأساطير إنه غرق هو وجيشه في مياه هذه الترعة.

ومع همته العالية في ذلك العصر القديم فإن المتأخرين سواء منهم المستعمرون الفرنسيون أو الماليون المستقلون لم يستطيعوا حتى الآن أن يمدوا ترعة من نهر النيجر أو على الأدق المياه المتصلة بنهر النيجر إلى مدينة (تنبكتو) التاريخية التي لايبعد عنها إلا تسعة كيلات، وقد كان أثر هذه القناة التاريخية القديمة ظاهراً في الصحراء، إلا أن مجراه قد اندرس كما اندرس ذكر حافرها (سينالي) سيد (قاو)، واطواره الغريبة، وإنما بقي منها خطوط في ظهر الأرض كما بقي من تاريخه خطوط في بطون الكتب لا يعرفها إلا المختصون.

وهذه القناة المطمورة رأيناها تمتد في أراض صحراوية لا حياة فيها الآن إلا الحياة التقليدية التي تكون في الصحاري.

في مطار قندم :

سننزل في بلدة (قندم) كما أخبرنا الطيار قبل تنبكتو.

ولكن قبل الوصول إليها اشتركت في المعرض الأرضي تحت الطائرة لوحة الألوان الرائعة التي أشبهت الوان قوس قزح حيث رأيت رملاً أحمر بجانب سبخة زمردية في أرض رمادية إلى جانبها قيعان تشبه القيعان الميتة إلا أن جمالها لم يمت.

وكل ذلك في بقعة ضيقة وفي وضع غير متنافر وهي من أجمل المناظر التي رأيتها من الطائرة في حياتي.

ثم مررنا بأرض منخفضة مزروعة في أطرافها قطعان من الأبقار البيض ترعى وكأن هذه الأرض المعمورة واحة صغيرة في أرض صحراء.

وقد أكد صحراويتها منظر أرض جاءت بعدها مباشرة ذات رمل أحمر فيها أشجار صحراوية ذكرتني بمنظر أراض في بلادنا السعودية ومنها منطقة القصيم حيث يكون الرمل الأحمر فيه أشجار صحراوية خضر.

وبعد أن أمضت الطائرة ساعتين ونصفا من الطيران كنا فوق مهبط (قندم) الذي يسمونه (مطار قندم) وليس فيه من مقومات المطارات شيء.

كما أن المنطقة التي يقع فيها لم أشاهد فيها أثراً للحياة وإنما كثبان رملية تحف بها أراض طينية صلبة جافة وليس في هذه الأرض أعشاب خضر وإنما هي الأشجار الصحراوية الشائكة المألوفة في الصحاري مثل الطلح والعوسج.

كان أول ما استرعى انتباهي عندما نزلنا في هذا المهبط الذي هو أرض معتادة ليس فيه من الأسمنت شيء جفاف الجو الذي قارب أن يكون سموماً مما ذكرني مع منظر المنطقة، بمهابط الطائرات الصغيرة التي كانت موجودة في بلادنا وكنا نسميها مطارات قبل أن نتوسع في إنشاء المطارات الحديثة المجهزة بكل ما تحتاج إليه الطائرات.

حتى مبنى المطار هنا أو المهبط ليس فيه إلا حجرة واحدة مقسومة إلى حجرتين مما ذكرني بالفعل بأول مهبط أقيم في القصيم في عام ١٣٧٢هـ في شرقي مدينة بريدة.

قال الطيار إنه لم ينزل في مدينة (موبتي) حرصاً على راحتنا، وإنه سيظل هنا لمدة خمس وعشرين دقيقة يعاود الطيران بعدها إلى تنبكتو.

لقد جاملنا موظف المطار عندما علم بأننا من ضيوف الحكومة فخصنا بعلبتين من عصير الليمون البارد دون سائر الركاب ولكن زميلي الشيخ الدكوري لم يذق مافي علبته وإنما قسمه بين بنية إفريقية صغيرة رآها تنظر

إليه، وبين المرأة الأوربية الوحيدة في الطائرة وذلك لكون الطائرة صغيرة ليس فيها طعام أو شراب.

وعنما أجلت بصري في نواحي المهبط وأنا على الأرض لم أجد فيه ولا فيما حوله مما يدركه البصر أي أثر لأية عشبة أو نبتة نامية.

فقد كانت المنطقة صحراوية تمامًا وليس الا أشجار الطلح المتفرقة في الأماكن البعيدة من المهبط .

وداعًا يا قندم :

ولم أر (قندم) حتى من الطائرة وإنما رأيت مهبط الطائرات فيها ورأيت أنموذجًا من أرضها فأعجبني ذلك منها لا لكونه معجبًا مطربًا، ولكن لكونه أعادني إلى أعماق ذكرياتي عن حالة سالفة كانت عليها بلادنا دفنتها حالة الرواج الاقتصادي الحاضرة، فوجدتني عندما قال الطيار: إن على الركاب أن يصعدوا إلى الطائرة لا أريد ذلك وإنما أريد أن أتملى من رؤية هذه الأرض. وأستجلي معالمها، وأقارن ما بينها وبين أرض بلادي الصحراوية البعيدة.

ولذلك حاولت عندما نهضت الطائرة أن ألقي نظرة بل نظرات على كل الأرض التي استطيع أن أراها منها.

ومن ذلك خطوط ترابية من خطوط السيارات بعضها قد غاص في الرمال كما كان عليه الحال في بلادنا قبل الأسفلت. وغنم بيض ترعى، وأخرى تلوذ بظلال الأشجار الصحراوية عن الشمس. وقرية ذات بيوت قليلة من الطين بالقرب منها بيوت من بيوت الأعراب غبراء اللون قالوا: إنها للطوارق أو الأعراب من قبائل الطوارق والمراد بالأعراب هنا البداة جمع بادٍ أو بدوي وهو الذي يعيش في البادية.

وإن كان الواقع أنه لاتزال توجد في هذه المنطقة بقايا بعض القبائل العربية فإن عددهم قليل بالنسبة إلى عدد البداة من الطوارق ومنطقتهم أيضاً تقع بعيدة قليلاً عن هذه المنطقة.

ثم نظرنا إلى قرية أخرى كلها من الطين ليس بداخل بيوتها ولا بجانبها أي لون أخضر إلا ما كان من أمر شجرتين صحراويتين كبيرتين ربما كانتا موجودتين في أرض القرية قبل بنائها ومع ذلك كان المرء لا يزال يرى على البعد آثار قناة أو مجرى طبيعي من مياه قادمة من البحيرات الممتدة من نهر النيجر العظيم وواقفة هناك فهذه القرى ليست بعيدة من الماء النمير ولكنها تعيش في منظر صحراوي مثير.

وقد عجبت حين رأيت ضفاف تلك القناة أو ذلك المجرى الطبيعي خالية من الزراعة بل ليس عليها خضرة أصلاً وإنما تشبه الغدير الحديث العهد في الصحراء. فأبديت للشيخ الدكوري عجبي من ذلك فقال: إن الوقت ليس وقت الزراعة.

ولا تبعد (قندم) عن مدينة تنبكتو إلا بمسافة خمسة وتسعين كيلا، ولذلك تعتبر هذه المناظر التي رأيناها فيما بينها وبين تنبكتو من الأماكن التابعة لتنبكتو أو القريبة منها.

وقد كثرت رؤية الخيام في الصحراء أو قل بيوت البدو بين أشجار الصحراء مثلنا وإن كنا لم نكن نفارق منظر الماء الممتد من بحيرة أو بحيرات كبيرة من مياه نهر النيجر العظيم الذي لم يستطع أن يبعد المنظر الصحراوي عن هذه المنطقة حتى ولا إلى حد محدود.

حتى الأماكن القريبة من هذه البحيرات أو المستنقعات الكبيرة لم أر فيها زراعة مزدهرة ولا شك في أن من أهم الأسباب في ذلك الطبيعة البدوية

لبعض السكان وبخاصة من العرب والطوارق إلى جانب التخلف الثقافي وعدم الامكان المادي لدى الأغلبية من السكان السودانيين الذين هم من السنغي الذين كان لهم مجد إسلامي عظيم في هذه المنطقة ولكنه الآن قد ضاع حتى من ذاكرة معظمهم من غير المتعلمين.

في مطار تنبكتو :

قبل النزول بمطار تنبكتو تشابكت أشجار الطلح في كثير من المواضع ورأينا بيوتًا حمرًا من الجلود جعلتني أتخيل ما كنت قد قرأته عن بيوت الأدم التي كان يتخذها ملوك العرب أو بعض شيوخ القبائل الذين ذكرهم التاريخ لا سيما أنها منصوبة في الصحراء كما تنصب بيوت الشعر في باديتنا.

نزلت الطائرة الصغيرة في المطار الذي هو مدرج مسفلت واحد ووجدنا طائفة من أعيان البلاد وكبار الموظفين فيها في الاستقبال ومع ذلك أخذوا يسلمون ويعتذرون بأن البرقية لم تصلهم إلا صباح هذا اليوم وإلاَّ لكان عدد الذين استقبلونا أكثر.

وكان بين المستقبلين الإخوة :

شيخ عامر تنكارا مدير مكتب حاكم تنبكتو.

محمدون الصديق الأمين العام للحزب الحاكم في منطقة تنبكتو.

سيدي محمد، عضو البرلمان نائب تنبكتو.

حمدون سيسي مدير مركز تنبكتو.

بابا ماما النائب الأول لرئيس البلدية.

الدكتور محمود عبده الزبير مدير مركز أحمد بابا للبحث العلمي.

ثم كانت جلسة قصيرة في المطار بين ترحيب هؤلاء الإخوة وبعدها

توجهنا مع المستقبلين إلى البلدة وقد ركبت في سيارة فرنسية من طراز بيجو عليها علم الدولة وتتبعها السيارات الأخرى.

في مدينة تنبكتو :

سار الموكب مع طريق مسفلت يشق أرضًا رملية بيضاء تتناثر فيها أشجار صحراوية من أشجار الطلح الكبيرة كالتي تكون في عالية نجد.

وكنت مستغرقًا في تفكيري الذي ذهب بي في أحناء التاريخ وأنا أسآل نفسي: أحقًا أنني الآن على وشك الدخول إلى التاريخ من مدينته القديمة الغريبة (تنبكتو).

ولم يطل بي التفكير إذْ سرعان ما وصلنا مشارف المدينة حيث ابتدأت البيوت المبنية حديثاً من لبن الأسمنت أو من الحجارة الرملية وانقطع الأسفلت من الطريق فهو لا يدخل المدينة وإنما يمتد ما بينها وبين المطار أما هي فليس فيها ولا فيما حولها منه شيء وقد غرسوا على بعض جانبي شارع المدينة الرئيسي المؤدي إلى المطار أشجاراً من أشجار النِّيم الذي رأيته منتشرًا في شمال نيجيريا. وهو موجود بكثرة في مدينة جدة. ثم بدأنا نصل إلى البيوت القديمة المبنية من الطين الرث وقليل منها مطلي بالجص.

وكثير من البيوت قد سفا حوله السافي أي ركب أصول حيطانها الرمل. مما ذكرني بحالة كانت عليها بيوت بعض البلدان القريبة من الرمال في المملكة.

فندق القافلة :

لم ندخل وسط المدينة أو هذا ما قالوا لي وإنما قصدنا الفندق الحديث الوحيد فيها واسمه (أوتيل ازاليا) وازاليا أو ازاليه معناها: القافلة بلغة

الطوارق التي هي إحدى اللغات البربرية على ما يعتقد بعض الباحثين وهي احدى اللغات الصحراوية الافريقية المشهورة كما يعرف الجميع.

ولكلمة القافلة أو (ازاليه) دلالة عميقة الجذور، كبيرة المعنى وإن كان المراد بها في الأصل مجرد القافلة فإنها أصبحت اسماً على القوافل التي تخترق الصحراء الافريقية المحرقة في الصيف المهلكة بزمهريرها في الشتاء التي يعدم في أكثر أماكنها الماء ويقل فيها الكلأ ويحار فيها الدليل إذ لا توجد فيها علامات ولا صوى إلا النجوم التي يهتدى بها في الليل الصافي إذا سلم من العواصف الرملية وإلا الحس الطبيعي والخبرة المكتسبة التي اكتسبها رجال من الطوارق الملثمين الذين افنوا حياتهم في التردد عليها والمعيشة فيها.

وهذه القافلة تحمل التجارة والأشياء النفيسة التي من أهمها الملح الحجري الذي ينقل من أماكن وجوده في الصحراء على مسافات تبعد عن تنبكتو ألف كليو متر أي: بقدر المسافة ما بين جدة والرياض أو أقل أو أكثر قليلاً وتقطع الجمال المدربة هذه المسافة في شهر واحياناً في أكثر إذا كانت منطلقة من مسافة أبعد وينتظر أهالي ما يسمى بالساحل الذي يراد به ساحل الصحراء الإفريقية أو حافتها الواقعة ما بين الصحراء والبلاد السودانية الخصيبة ينتظرون قدوم القافلة بفارغ الصبر حيث كانت تأتي بالملح والبضائع وتعود بالذهب والعبيد قبل أن تحرم تجارة الرقيق.

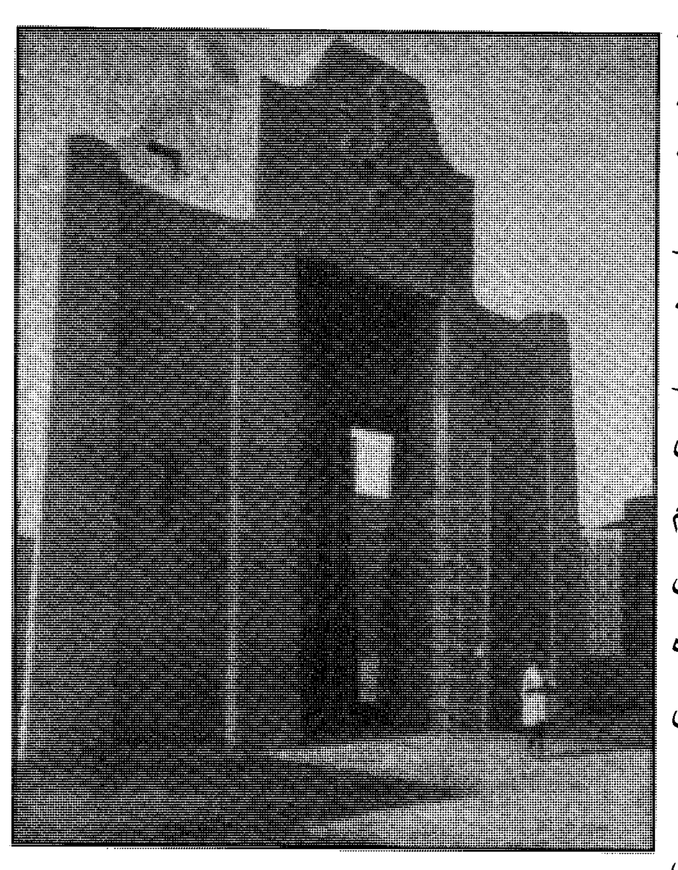
لذلك كان لكلمة (القافلة) هنا معنى مثل معنى رحلة الشتاء والصيف التي كان يقوم بها تجار قريش من مكة إلى اليمن ومن مكة إلى الشام في نفوسنا نحن العرب.

وقف الموكب عند فندق (أزاليه) فكان أول مالفت نظري فيه أن بابه الخارجي الكبير قد بني على الطريقة السودانية القديمة التي فيها شبه من

بعض النواحي بأبنية شعب الإنكا التي رأيتها بنفسي في داخل جبال الانديز العالية في بيرو إحدى دول أمريكا الجنوبية.

وذلك بأنهم قد جعلوا المدخل العالي يضيق أعلاه كلما ارتفع عن أسفله. وبالإضافة إلى ذلك فإن الفندق كله قد طلي بطلاء من الأسمنت أغبر شبيه بالطين الذي يستعمل في بناء البيوت في تنبكتو منذ العصور القديمة ولا يزال حتى بدا الفندق كله كأنما هو من الطين وما هو به.

وإلى جانب تسمية الفندق (أزاليه) التي تعني القافلة بلغة الطوارق ومظهره الشبيه بالطيني وطراز بنائه فإن البواب كان أيضاً يشد المرء إلى العصر القديم، ويبقى ذاكرته داخل التاريخ فهو طارقي ملثم لا يبين من وجهه الا عيناه، رغم أن الجو يميل إلى الحرارة بل إن هواءه يقرب من أن يكون سموماً.



مدخل فندق (أزالية) أي القافلة في تنبكتو

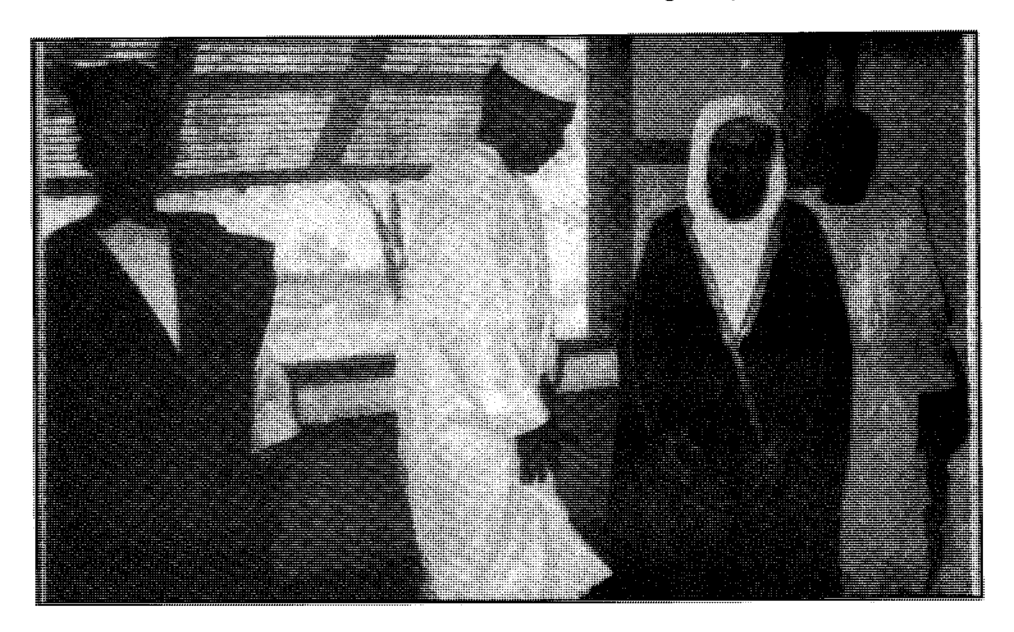
والرجل قاعد في داخل ظل البوابة فهو

لم يتلثم أتقاء لـلهواء الحار ولكن هذا هو لباسه الذي اعتاد عـليه، وتلك عادته وعادة بني قومه الملثمين المعروفين بذلك على مدى الدهور.

وفي داخل الفنـدق غرسوا زهوراً قصيرة أرجوانـية اللون رايتهم يسـقونها بالماء لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك ويتعهدوها بمواصلة السقي فإنها تجف لأننا الآن في الصحراء الإفـريقية رغم أننا لا نبعد كـثيراً عن خضم مياه نهـر النيجر أو نهر النيل كما كان يسميه اسلافنا العرب.

ومع هذا القرب النسبي من النيل وميـاهه فإن البعد الحقيقي بل الإيغال في الصحراء والصحراوية في كل شيء هو الغالب هنا.

مقابلة حاكم تنبكتو :

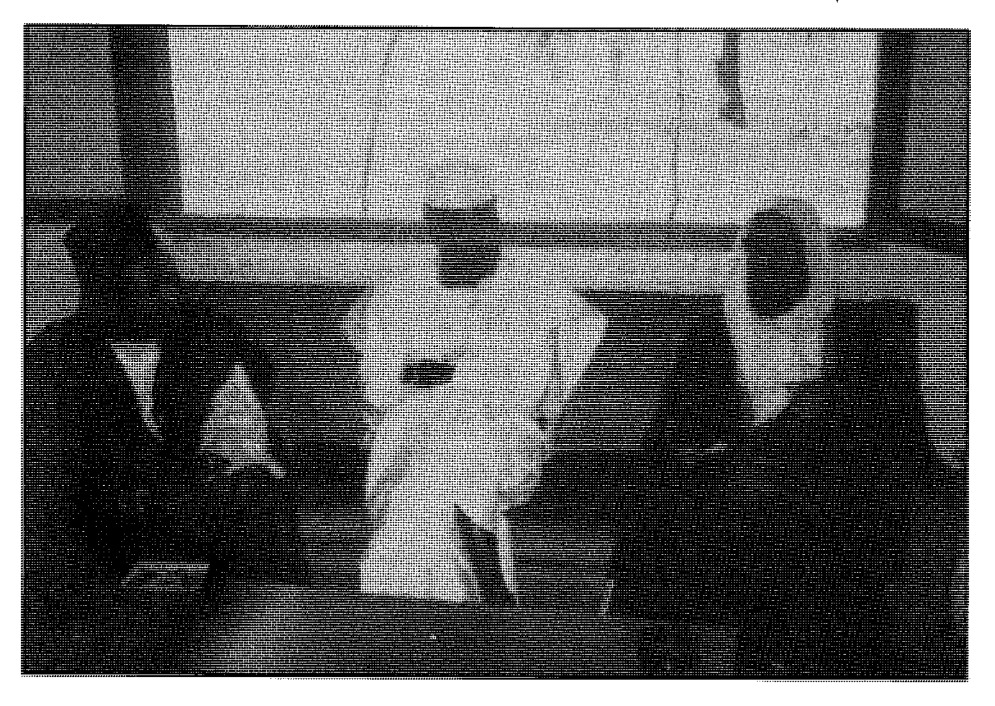


حاكم تنبكتو في الوسط وهو يطلب من المؤلف الجلوس

وضعنا امـتعتنا في الـغرف ثم عدنا إلى الخروج مـن الفندق فوجدنـا جميع

الإخوة المستقبلين ينتظرون، وذلك للذهاب معاً إلى مقر حاكم تنبكتو الأخ (لامين دامبيلي).

فتحدثت معه بعد السلام عن أسباب زيارتي لتنبكتو فقلت له إننا عندما وصلنا إلى مالي رأينا أنه من الواجب علينا أن نزور مدينة تنبكتو مدينة العلم والعلماء والتاريخ العريق المشرف وقد حداني إلى ذلك ماقرأناه في كتب الثقافة العربية عن الماضي العلمي لهذه المدينة وما أسهم به علماؤها من خدمة للعلم والدين.



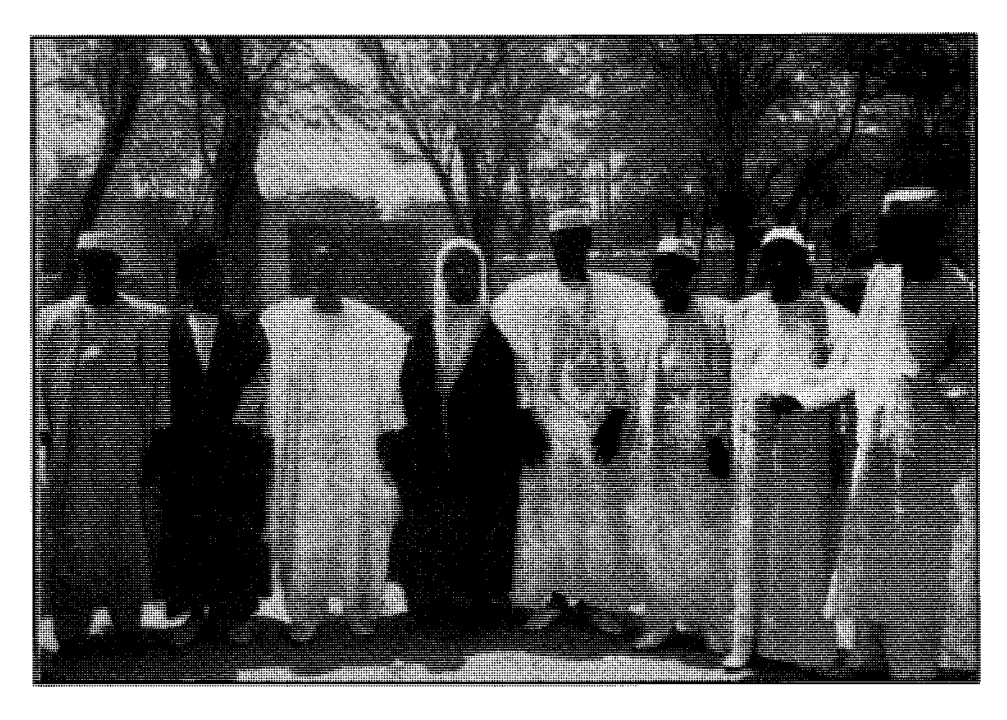
المؤلف يتكلم وحاكم تنبكتو على يمينه يصغى والشيخ الدكوري يترجم

ثم ذكرت له وللحاضرين وهم من كبار القوم في هذه المدينة ما يشعر به أهل المملكة العربية السعودية من مودة وإخاء إسلامي لاخوتهم من أهل مالي عامة ومن أهل هذه المنطقة التي تضم بعض السكان العرب خاصة.

فرد الحاكم بعبارات من عبارات المجاملة وقال فيما يتعلق بتنبكتو: إنه يجب أن تتعاون البلاد الإسلامية على إنقاذ تنبكتو لأنها تعاني من أشياء كثيرة وهي بحاجة إلى أشياء كثيرة لا يستطيع أهلها أن يوفروها لها ومن ذلك إيصال الماء إليها.

وكان يقوم بالترجمة الدكتور محمود عبدو الزبير.

وفي نهاية الاجتماع طلبوا التقاط صور تذكارية في فناء المبنى الواسع الذي يدخل إليه من باب كبير ذي طراز عربي واضح بخلاف بقية المبنى.



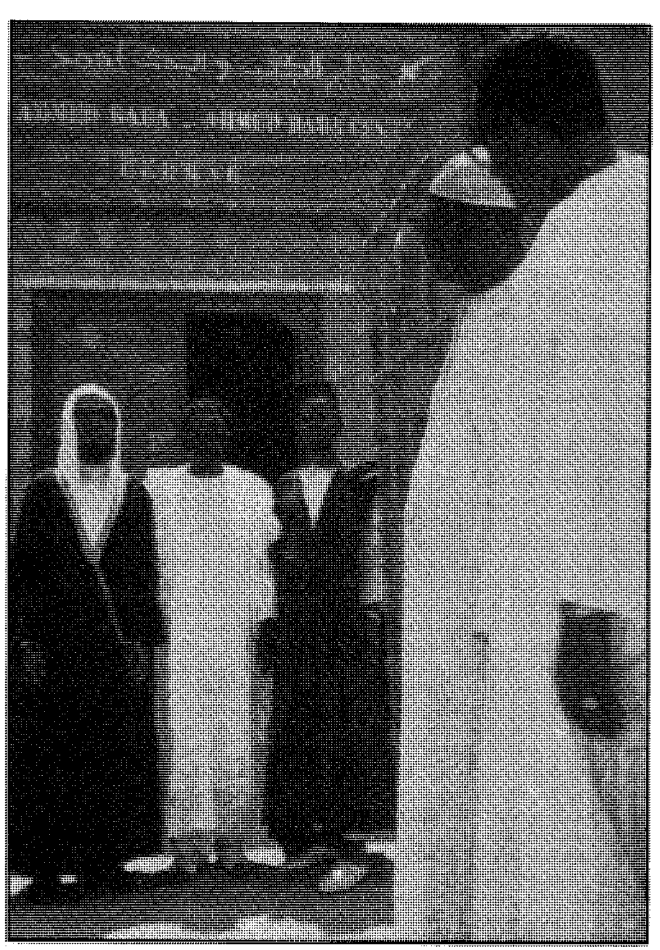
قصر الحكم في تنبكتو الحاكم في الوسط يمينه المؤلف فالدكتور الزبير فالدكوري

مركز أحمد بابا الثقافي :

ذهبنا إليه بعد مكتب الحاكم وكان يرافقنا مديره وصاحب الفضل في

استمراره ونموه الدكتور (محمود عبدو زبير) وكان معنا جميع الإخوة الذين استقبلونا في المطار وصحبونا إلى الفندق ومكتب الحاكم.

أول ما رأينا لافتة المركز مكتوبة بالعربية بخط سوداني (دار الكتب والبحث أحمد بابا) وتحت ذلك ترجمته بالفرنسية والأهم من ذلك لافتة تحمل بيتين من الشعر للشيخ أحمد بابا الذي سمى المركز باسمه وهو أحد العلماء المشهورين في السودان جاءته الشهرة من علمه وقوة شخصيته ومن شيء آخر هو مناظرته لسلطان المغرب (مولاي المنصور الذهبي) الذي أرسل حملة إلى بلاد السودان الغربي قضى فيها على سلطان ملوك (سنغي) الذين يقال لهم الاسكيات الواحد منهم اسكيا.



عند مدخل مركز أحمد بابا للبحث العلمي في تنبكتو المؤلف في اليسار وعلى يساره الدكتور الزبير فالأستاذ الدكوري.

وحمل من السودان إلى المغرب خمسة وسبعين عالماً من علمائهم كما

ذكر المؤرخون منهم أحمد بابا نفسه يقولون: إنه أبقاهم عنده ولم يرجع من مشاهيرهم إلى بلادهم إلا أحمد بابا هذا.

ويقولون: إن أحمد بابا قال للسلطان أحمد المنصور الذهبي: لماذا أرسلت جيوشك إلى بلادنا وقاتلتنا ونحن مسلمون؟ فقال: لكي أوحد كلمة المسلمين. فقال: إذا كان الأمر كذلك لماذا لم تبدأ بالأتراك الذين يوجدون بالقرب منك في تلمسان؟ -أي في الجزائر- فقال السلطان المغربي: لأن الرسول ﷺ يقول: اتركوا الترك ماتركوكم.. فقال أحمد بابا: هذا الحديث كذب على رسول الله ﷺ.

وكان ذلك بعد الوقعة الحربية الفاصلة التي قضى فيها المغاربة على جيوش السودان بقيادة الاسكيا محمد كاغ ملك قاو.

فقبض القائد المغربي على العلماء وأرسل أول دفعة منهم إلى مراكش حيث غادرت مدينة تنبكتو في يوم ٢٧ أبريل عام ١٥٩٤م.

وشيء آخر سررت به غاية السرور عندما قرأت بيتي أحمد بابا المكتوبين على مدخل المركز وهما :

أيا قاصدًا (كاغو) فعج نحو بلدتي   وَزَمْزِمْ لها باسمي، وبَلِّغْ أحبتي

سلامًا عطيرًا من غريب وشائق   إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي

وذلك رغم كونهما من شعر الفقهاء لأن الشيخ أحمد بابا هو من الفقهاء.

والذي سررت له هو ورود اسم بلدة (غاو) كما تعرف الآن باسمها القديم قاو قاو أو (كاغو) في الشعر وقد كتبت في المصادر العربية كوكو حيث رسمت الجيم المصرية فيها بالكاف فاشتبه اسمها على بعض الباحثين الذين قرأوا في النصوص العربية أن مملكة السودان (الغربي) يحدها من الشرق اقليم (كوكو) ومن الغرب اقليم (صوصو) فلم يفهموا أن (كوكو) هي التي

تسمى الآن (غاو) بجيم مصرية اختصر المتأخرون اسمها فلم يكرروه.

وعندما تأكدت من ذلك كنت أساءل نفسي عن تاريخ تغيير اسمها من (غاو غاو) أو (كوكو) مكررة إلى (غاو) أو (كو) واحدة. وتقع على بعد (٤٠٠) كيل شرقي تمبكتو. وها أنا أجد الشيخ أحمد بابا قد ذكرها بالاسم القديم مكرراً وإن كان الذين كتبوا بيتيه قد فرقوا في الرسم بين الأول والثاني (كا) و(غو) مع أنهما في الأصل (كوكو). وكتب تحت البيتين تاريخ ولادة أحمد بابا ووفاته ١٥٥٦م - ١٦٢٧م.

عندما دخلت المركز ورأيت أهميته قلت للإخوة الكرام المرافقين الذين هم من رجال الإدارة والسياسة: إن من عادتي أن أطيل اللبث في مثل هذه الأماكن لكي أنظر فيما تحتويه من غرائب المخطوطات وربما يثقل عليكم ذلك وعلى هذا يمكنكم أن تدعوني هنا مع صديقي الدكتور زبير مدير المركز وزميلي الدكوري فأنا أحتاج إليهما في ذلك.

الكنوز السودانية :

بلاد السودان الغربي مشهورة في التاريخ بكنوزها الثمينة التي أكثرها شيوعاً وابعدها ذكراً وأكثرها وجوداً عندهم هو الذهب الرنان.

وعندما حج ملك السودان (منسى موسى) في القرن الثامن الهجري ومر في طريقه إلى الحج بمصر أنفق في مصر من الذهب ما أرخص الذهب فيها وبقي فيها رخيصاً عدة سنين وذلك لكثرة ما أنفقه فيها.

وحدث كثير من المؤرخين من أسلافنا العرب أن تجار المغاربة الذين كانوا يذهبون إلى بلاد السودان كانوا يأخذون معهم إبلاً كثيرة يحملون عليها بضائعهم قد يختص التاجر الواحد منها بأربعين إلى خمسين بعيراً وإن بعضهم إذا وصل إلى بلاد السودان باع ما معه من البضائع بذهب حتى إن

بعضهم قد يبيع الرحل المصنوع من الخشب الذي يوضع على البعير بذهب تساوي قيمته قيمة البعير نفسه ثم يعود التاجر وليس معه إلا بعير أو بعيران يحمل تجارته الرابحة من الذهب.

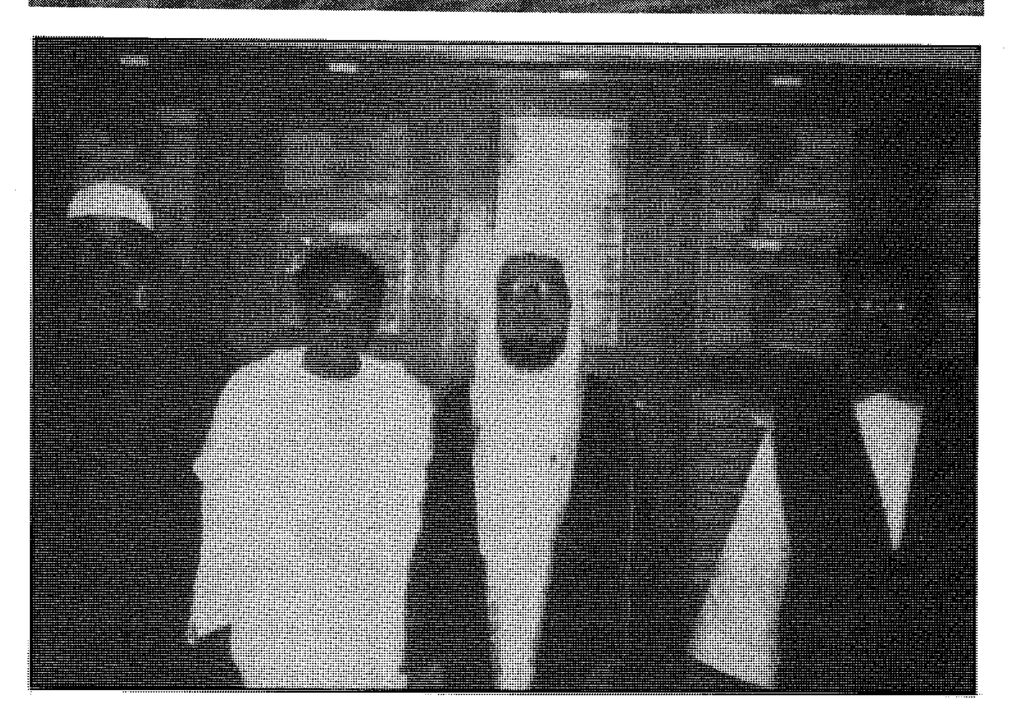
وكانت بلاد الأشانتي التي سميت بعد الاستقلال (غانة) تسمى ساحل الذهب معروفة بذلك مشهورة وهي وإن لم تكن من بلاد السودان الغربي فإنها كانت من ممتلكات ملك السودان في كثير من الأوقات.

وكان ذهبها يجلب إلى بلاد السودان. وكان مع الذهب فيها شيء آخر هو الرقيق فكانت تجارته فيها رائجة تقصد هذه البلاد من أجله كما تقصد من أجل الذهب. ولهذا كان بعض المؤرخين القدماء يعتبرون بلاد السودان هذه بلاد الكنوز.

ومع ذلك ذهبت كل الكنوز الذهبية وذهب معها أو قبلها ملك السودانيين ولم يبق من الكنوز التي لم تذهب إلا كنوز علمية رأيتها اليوم وهي الكنوز الباقية على مر الدهر حتى الذي ينهب منها يبقى سودانياً خالصاً لا يستطيع النهب والسلب أن ينزعا عنه صفته السودانية.

ذلك بأن الأوربيين أو طائفة منهم انتهزوا فرصة السيطرة والغنى الذي بأيديهم فأخذوا كثيراً من المخطوطات والمأثورات السودانية بعضها بطريق الشراء وبعضها بطريق النهب ونقلوا طائفة من ذلك إلى بلادهم غير أنها بقيت أو بقي أكثرها معروفًا في مكتبات الأوروبيين ومتاحفهم بل صارت شواهد محفوظة على علمهم وحضارتهم.

وعندما دخلت إلى مركز أحمد بابا للبحث ورأيت خزائن المخطوطات فيه عرفت أنها الكنوز التي لم تذهب كما ذهبت كنوز الذهب والرقيق.



أمام خزانة المخطوطات في مركز أحمد بابا للبحث العلمي في تنبكتو (من اليمين) الدكوري فالمؤلف فالدكتور الزبير فالدكوري الآخر

مخطوطات ثمينة :

قلت للأخ الدكتور محمود عبدو زبير: أريد أن أرى أقدم مخطوط عندكم فقال: إنه ليس سودانياً بل هو كتاب شرقي. قلت: ليكن ذاك أريد أن أراه وكثيراً ما يحب المرء أن يرى بضاعته التي ردت إليه، وحتى لو لم ترد عليه فأرنا أياه.

وهو كتاب (التحصيل لمعاني التنزيل) وتاريخ كتابته عام ٦٣٢هـ أي: منذ ما يقارب ٧٨٠سنة.

وليس هذا هو الغريب إذْ توجد في مكتباتنا المشرقية كتب أقدم منه وفي

مكتبتي الخاصة عدة كتب بعد تاريخه بقليل. وإنما الغريب أنهم وجدوه في بلدة كبدو عند رجل سوقي نسبة إلى أهل السوق الذين هم في الحقيقة ليسوا من أهل الأسواق التجارية القارين في البلدان وإنما هم قوم من الرحل الذين يرحلون وينزلون ويتنقلون ومعهم مكتباتهم على ظهور إبلهم في الصحراء أو في أطرافها أكثر أيام حياتهم والسوق الذي نسبوا إليه مدينة قديمة في الصحراء توجد أنقاضها قرب مدينة كيدال الحالية في شمال (قاو) ويقال: إن سوق الذي نسبوا إليه هو جد من أجدادهم لا صفة من صفات بلادهم.

ومع ذلك بقي هذا الكتاب معهم قرونًا ينزل بنزولهم، ويركب بركوبهم، وسلم من عوادي الأيام ومن عوارض الجو حتى قدر له أن يصل إلى مكانه الأمين في هذه المكتبة المصونة ولكن هذا كتاب مشرقي مثلنا فأين كتب المغاربة السودانيين، وعلى التسمية المرعية السودانيين الغربيين؟

لقد وجدناهم وضعوا كتب علمائهم المخطوطة في معرض خاص منهم الشيخ عثمان دان فودي: أي ابن فودي الإمام المجاهد المجدد الذي أقام في ركن من هذا السودان الغربي وبالتحديد في شمال نيجيريا وجزء من النيجر وتشاد حكومة إسلامية راقية بل خلافة إسلامية لا تزال أثارها باقية، بل لا تزال رسومها المرعية ماثلة للأعيان باقية في أذهان الناس ولا يزال خليفته يقال له كما كان يقال لسلفه: أمير المؤمنين، وعاصمتها (صوكوتو) في شمال نيجيريا.

وقد كان لي حظ عظيم في أن رأيتها وكتبت عنها في كتاب «قصة سفر في نيجيريا».

وللشيخ المجدد عثمان بن فودي أخوة وأبناء مجاهدون وهم في الوقت نفسه علماء مؤلفون منهم أخوه الشيخ عبدالله وابنه الشيخ محمد بيللو صاحب كتاب «إنفاق الميسور، في تاريخ بلاد التكرور».

ومن العلماء الذين ضم المعرض مؤلفاتهم الحاج عمر فوتي الشهير الذي حارب الفرنسيين فترة من الزمن.

والشيخ سيدي المختار الكنتي: نسبة إلى قبيلة كنتا وهي قبيلة عربية لا يزال القسم الأكبر من أفرادها يعيش في المنطقة التي تقع بين تنبكتو و(غاو) وهم من البدو الرُّحل. ومؤلفات ابنه المعروف بسيدي محمد الكنتي.

ووجدنا من آثار علمائهم أرجوزة مخطوطة اهتم بها زميلنا ورفيقنا في السفر السفير عبدالوهاب الدكوري وحق له ذلك لأنها من نظم والده الشيخ محمد بن عمر الدكوري واسمها (عقود الجمان في رد البدع وتبيين سنة رسول المنان). وربما كانت هذه التسمية من صنع أحد تلامذة المؤلف وفي طرة الكتاب نسبة المؤلف (المرجي) إلى بلدة (مرجة) وهي نسبة لا يستعملها الشيخ عبدالوهاب ربما لاكتفائه بالنسبة إلى القبيلة الدكورية أو لخشيته من أن يفسر ذلك من لا يعرفه إلى الإرجاء، والمرجئة من الفرق المنحرفة في الإسلام.. وهناك كنوز من الكتب التي لا يعرف أكثرها في بلادنا العربية رغم اهميتها وذلك لعدم وجود مخطوطات لها في البلدان العربية ولكونها لم تطبع بعد.

ومن الكتب المهمة كتاب في التراجم اسمه (فتح الشكور، في معرفة أعيان علماء التكرور) للشيخ الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي من أهل ولاتا إحدى المدن السودانية المهمة التي زارها ابن بطوطة وكانت فيها حركة علمية كبيرة ذكرها باسم (ويلاتن) وهي موجودة الآن في جنوب موريتانيا. كما تقدم وقد طبع هذا الكتاب. وعليه ذيل اسمه (منح الرب الغفور. في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور) للطالب أبي بكر بن أحمد المحجوبي من (ولاتا) أيضًا انتهى إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري.

ومن المعلوم أن كلمة التكرور قد أصبحت في العصور الأخيرة مرادفة لكلمة السودان الغربي إذْ أصبح أهل تلك الجهة يعرفون باسم التكرور واحدهم تكروري وهي الكلمة التي صارت في بلادنا (تكروني) بالنون، جمعها عندنا (تكارنه).

ومن الغريب الذي كرره لنا اخواننا هنا وقاله مؤرخون قبلهم أنهم لا يعرفون هذا الاسم في بلادهم فلا يوجد عندهم الآن بلد اسمها تكرور ولا قبيلة اسمها تكرور ماعدا قبيلة ليست كبيرة موجودة في السنغال اسمها بالفرنسية (تكرولي) ربما كان أصل التسمية تكروري بالعربية فقلب الفرنسيون راءها لاما. وهي من الفلانيين. وما عدا ما ذكره مؤرخونا القدماء من وجود مدينة في غانة القديمة اسمها (تكرور) وقد درست الآن ولا يعرف لها أثر.

وفي العصور القديمة أيضًا قال المؤرخون من العرب: إن الناس يسمون سلطان السودان سلطان التكرور ولو سمع ذلك لأنف منه، لأن التكرور ولاية من ولايات مملكته. وسيأتي نقل النص في هذا الموضوع في آخر الكتاب إن شاء الله.

ثم كتاب عظيم اسمه: (نوازل التكرور) والمراد بالنوازل المسائل والفتاوى في المسائل التي حدثت بالفعل أي التي هي ليست فتاوى في مسائل افتراضية.

وهذا الاصطلاح (النوازل): اصطلاح جيد قليل الاستعمال عند الفقهاء في مشرقنا العربي إذْ يسمون أجوبة الاستفتاءات (فتاوى): سواء أكانت على مسائل حدثت بالفعل أم كانت على مسائل افتراضية سأل عنها بعض طلبة العلم ليعرفوا الحكم الشرعي فيها.

ومؤلف كتاب (نوازل التكرور) هو أبو عبدالله المصطفى بن أحمد بن المولود المغلاوي وهو كتاب ضخم في أربع مجلدات ضخمة تتألف المجلدة الواحدة منها من حوالي ألف وخمسمائة صفحة ولا غرو في ذلك لأنه يضم فتاوى علماء التكرور في وقائع حدثت بالفعل. فهو ليس فتاوى عالم واحد.

والكتاب مخطوط لم يطبع بعد. ولا شك في أنه كنز من كنوز هذه البلاد التي تضم إلى جانب الناحية العلمية نواحي أخرى من طرائف الحياة في الماضي. إذّ تدل الفتاوي الواقعة على أشياء كثيرة لا يذكرها المؤرخون فيما يتعلق بالمآكل والملابس والزواج والعادات التي تختلط بالعبادات، أو تشتبه بها.

وفي المكتبة أيضًا عدة من كتب النوازل أيضًا غير (نوازل التكرور) هذا، منها (نوازل القصرى) من ناحية ولاتا. و(نوازل الشيخ) وكلها لم تطبع.

وهناك كتب مخطوطة كثيرة هامة منها أربعة كتب لم تطبع بعد في تاريخ منطقة (ماسنا) وهي إحدى المناطق السودانية التي تقع الآن في جنوب موريتانيا ويشتبه اسمها باسم منطقة أخرى سودانية حتى الآن وموجودة في مالي وهي التي مررنا فوقها بالطائرة. وهذه التآريخ لا تقتصر أهميتها على الناحية التاريخية للبلدة أو المنطقة التي ذكر أنها قد ألفت في تاريخها بل يتعدى ذلك إلى تاريخ المناطق المجاورة فمثلاً كتب تاريخ (ماسنا) هذه اعجبني أحدها فصورت نسخة منه لمكتبتي الخاصة ولما قرأته وجدت فيه كنوزًا من المعرفة عن موريتانيا وبعض الأسر العربية التي تسكن فيها وهو -بعد- جزء مهم من الثقافة العربية وربما لا يحتاج القول إلى أن المخطوطات كلها هي بالخط السوداني الذي يقرب من الخط المغربي وما هو به. إلا قلة قليلة مكتوبة بخط متفرع من الخط السوداني يسمى الخط

(السوقي) نسبة إلى أهل السوق الذين يقال إنهم من الطوارق وينفون هذا عن أنفسهم ويقولون إنهم من العرب ولو كانوا لا يتكلمون العربية إلا تعلما فلهم لغة صحراوية خاصة بهم. وهم أكثر أهل المنطقة محبة في اقتناء الكتب والمحافظة عليها رغم كونهم أو كون بعضهم بدواً رُحَّلاً.

وحبذا لو أن إحدى جامعات المملكة العربية السعودية اتصلت بهذا المركز واتفقت معه على تصوير جميع المخطوطات فيه في مقابل أن تهديه كتباً مصورة لا توجد لديه ففي ذلك فائدة علمية كبيرة، وفي ذلك أيضاً ضمان للمحافظة على تلك المخطوطات من الضياع نتيجة حادث عارض مثلاً.

العيس في البيداء :

بعد حديث المخطوطات، ومطالعة نوادرها كانت الاستراحة في المركز على كأس من عصير التمر الهندي الذي تنتجه هذه البلاد وهو مفيد جدًا فيما يذكرون وبخاصة في البلاد التي ليس فيها مياه مكررة نقية لأنه يطهر الأمعاء مما يعلق بها من جراثيم غير شرسة.

وتطرق الحديث إلى مدينة تنبكتو من أين تشرب !

فهز الحاضرون من أهلها رؤسهم أسفًا وقالوا: إنها لاتجد الماء إلا من الآبار مع أن مياه النهر منها قريبة لا يزيد بعدها عن تسعة كيلات وكان الأقدمون قد حفروا من مياه بحيرات بجانبه إلى مدينة تنبكتو قناة واسعة شقوها في الرمال مرت بالمدينة فأروتها وتجاوزتها لتروي ما بعدها من بلاد صحراوية جافة وكان ذلك في عهد سني علي (سينالي) أحد ملوك السنغي الذين كانت عاصمتهم (غاو) أو (كوكو) كما كان مؤرخونا يسمونها وقال بعضهم: إن الذين شقوها هم المغاربة إبان توليهم على المنطقة. وقد عدت عوادي الزمن على هذه القناة كما عدت على الذي حفرها فطمرتها بالرمال والإهمال حتى

صدت المياه عن الجريان فيها ثم أخذت الرمال السافية تجري فيها بديلة عن المياه فلم يبق منها الآن إلا رسم في الأرض رأيناه لا يبعد كثيرًا عن فندقنا فندق القافلة الصحراوية وإلا اسم في الكتب لا يزيد عن ذلك.



آثار القناة القديمة التي تنقل مياه نهر النيجر إلى تنبكتو وما بعدها وهي مندثرة الآن وخلفها ضاحية من تنبكتو.

ونتساءل متى حفرت القناة ومن حفرها؟ وينبغي قبل أن نجيب على ذلك أن نصحح ما قد يفهم من كلامنا بأنها سحبت من نهر النيجر مباشرة والواقع أنها من مياهه وليست منه فمجرى النهر أبعد من ذلك ولكن تتفرع منه بحيرات واسعة هي القريبة من تنبكتو وهي التي سحبوا منها مياه النهر.

ونفرغ بعد هذا إلى التساؤل عن تاريخ حفر هذه القناة التي كانت تروي المدينة ولما انقطعت مياهها عادت إلى العطش إلا من الآبار والجواب. أن بعض المؤرخين ذكروا أن (سينالي) هو الذي حفرها.

والسؤال عما إذا كانت قد حفرت قبله أو قل ماهي حال المدينة قبل أن يحفر قناته؟ والجواب: أنها كانت مثل الآن عطشى.

يدل على ذلك اسمها الذي سيأتي شرحه ويدل على ذلك أيضًا أن ابن بطوطة زارها في القرن الثامن الهجري فذكر أنها تبعد عن النهر أربعة أميال.

وهذا يدل على أن القناة ليست موجودة في عصره.

وهذا أيضًا يجعلنا ننشد مع القائل :

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب الشفاء وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

والعيس هي الإبل فهي تحمل الماء للمسافرين ولكنها لا تذوقه لأنها أصبر منهم على تحمل العطش. وتناول الحديث مع أخينا الدكتور محمود عبدو الزبير نواحي تاريخية وحاضرة شتى من شؤن هذه البلاد وإذا تذكر المرء أن هناك قومًا يقومون بتحلية مياه البحر ثم ينقلونها إلى أماكن بعيدة في البر وأن إخوتنا في تنبكتو لم يستطيعوا حتى جر مياه النهر العذبة فإنه يضيف هنا العجب الذي ذكره الشاعر في قوله :

عجبًا للناس في أرزاقهم ... ذاك عطشان وهذا قد غرق

والحديث معه ممتع حقًا فهو رجل ذكي وذو فكر نير ويجيد العربية لأنه تخرج في مصر ثم واصل دراسته حتى حصل على شهادة الدكتوراه من باريس في التاريخ الإسلامي.

والناس في هذه البلاد عندما يتحدثون مع شخص كثيرًا ما يكونون كأمثالهم في البلاد العربية يسألون عن قبيلته ليس من باب التفاخر وإنما من

باب التعريف وعندما سألت عن قبيلة الدكتور الزبير قال إنه فلاني أي من الذين نسميهم في الحجاز فلاته بالتاء.

ولكنه مثل كثير من الفلانيين -بالنون- في هذه البلاد ذوو أجسام رشيقة وليسوا كالفلاتيين الذي عرفنا بعضهم في الحجاز بأجسام غليظة فأولئك يقال إن أنسابهم قد اختطلت بأنساب الهوساويين وبعضهم لم يختلط نسبه وإنما اختلط عيشه إذْ ترك حياة البادية والرعي التي كان قد عاش عليها آباؤوه وأجداده إلى حياة الدعة والتحضر التي توفرت في حواضر البلاد النيجيرية الشمالية التي من أهم ما فيها أن المرء يأكل كثيراً ويتحرك قليلاً فثقلت أجسامهم ولا نقول: إنهم أيضاً قد تغيرت أحلامهم حتى يخيل للمرء أنهم في منزلة من الذكاء أو الألمعية أقل مما عليه الفلانيون في مالي والنيجر وفولتا العليا. والله أعلم.

ومن الأشياء المفرحة في المركز أننا شاهدنا أمكنة فيه مخصصة لإعطاء دروس مسائية للرجال والنساء في اللغة العربية والدين فقلنا: عسى أن يكون في ذلك إشارة إلى عود ولو جزئياً بتنبكتو إلى مجدها القديم بل العريق في الثقافة العربية واغناء اللغة العربية في تلك الأوطان الإسلامية المنعزلة خلف الصحراء.

مع أننا لن تذهب بنا الأوهام إلى حد الزعم بأن هذا ممكن الحدوث بمثل هذه الأعمال الصغيرة وقد تأتي تتمة لهذا الموضوع عند الكلام على حاضر اللغة العربية في تنبكتو.

القائلة في تنبكتو :

تركنا (مركز أحمد بابا للبحث العلمي) في الساعة الواحدة والنصف وقد انفقنا فيه من الوقت أكثر مما قدرنا ولكن وقتنا لم يضع فيه سدى بكل تأكيد.

وعندما خرجنا منه إلى شوارع تنبكتو ومبانيها التي أصبحت كذلك عفواً لتهدم بعض بيوتها كانت القائلة قد قالت، والحر قد اشتد ورياح السموم قد نشطت حتى اضطررت أن أضع طرف (غترتي) على فمي وأنفي اتقاءاً للغبار والحر مما ذكرني بل شدني إلى تذكر حالة الطقس في بلادنا في فصل الصيف وقد تعجبت من ذلك إلى أن تذكرت أن هذا ليس بعجيب لأن تنبكتو تعتبر صحراوية الموقع وهي إلى ذلك لا تزال تعيش في فصل القائلة رغم كوننا الآن في شهر سبتمبر (أيلول) الذي تودع فيه بلادنا القائلة ويقول فيه العراقيون «إذا طلع ايلون، سيروا ولا تقيلون».

وكان الجو في هذا الصباح حاراً الا أنه ليس بالشديد الحرارة لأن الجفاف يقلل من الشعور بذلك، إلا أن السموم ظل باقياً حتى إنني عندما ذهبت إلى حمام الغرفة قبل الغداء خيل إليَّ وأنا أنظر وجهي في المرآة أن الحر والسموم قد أثر فيه في المدة اليسيرة التي قضيتها في السودان الغربي وهي لا تزيد على اسبوعين وخيل لي أيضاً أن سبب سواد أهل افريقية هو بقاؤهم في هذا الجو طوال حياتهم فضلاً عن بقاء آبائهم وأجدادهم الذين ورثوا عنهم الخصائص الجسدية التي اكتسبوها هم وأجدادهم منذ أدهار طويلة.

سلوكي في الفندق :

كان يرافقنا أحد الإخوة من موظفي الإعلام حتى يوافي الصحافة والإذاعة بأخبار تحركاتنا في تنبكتو. وقد قام مشكوراً بذلك حسبما أخبرنا به بعض الإخوة من المواطنين وإن كنا لم نرد ذلك إذ ماهي الفائدة من نشر أخبار تحركنا سواء لنا أولهم؟

واسمه (آسورا البجبه) وآسورا هي عاشورا أو عاشور في أصلها العربي.

وكنا ننتظر الغداء الذي يعدونه في الفندق بناء على طلب النزلاء وبعددهم لأنه لا توجد مطاعم يأكل فيها الأجانب هذا من جهة ولكون أكثر الطعام الذي يقدمونه هو من المستورد المحفوظ لديهم في الفندق.

فرأينا كلبين سلوقيين رشيقين كأجمل ما تكون الكلاب السلوقية عندنا فقلت للأخ (أسورا): من أين جاءت هذه الكلاب؟ فقال: إنها من كلاب الصحراء.

فقلت: هذا ظاهر فتكوينها هكذا يجعلها مناسبة للصحراء، وهي كذلك عندنا ولكننا في صحرائنا نتخذها للصيد خاصة فلماذا اتخذتموها هنا؟

فأجاب: إن مدير الفندق هو فرنسي وقد اتخذها عنده اعجاباً بها وبشكلها وإلا فإنها ليست من كلاب الحراسة بل هي من كلاب الصيد والمدينة هنا آمنة لا تحتاج إلى كلاب للحراسة.

ثم قال: إننا نحن أهالي تنبكتو لا نتخذ الكلاب أصلاً ولا نحب أن تعيش في المدينة كلاب.

فسألته عن السبب في ذلك؟ فقال: من أجل مجئ الرسول ﷺ إلى تنبكتو.

لقد كان الرسول قد جاء إلى هذه المدينة وصلى صلاة الجمعة في مسجد بير ومن ذلك الوقت لم يتخذ أهل المدينة الكلب اكراماً له.

فقلنا له: إن الرسول ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى قبل أن توجد مدينة تنبكتو ومسجد بير الذي فيها فكيف يفسر ذلك؟

فقال: إنه لا يفهم شيئاً عن ذلك ولكن هكذا قال الناس.

وظني أن بعضهم رأى النبي ﷺ في المنام مصلياً في ذلك الجامع فاعتقد الناس أن ذلك في الحقيقة.

وأما الحقيقة فهي أننا الآن في تنبكتو وأن كلاباً من الكلاب السلوقية الرشيقة موجودة في هذه المنطقة. وهي كلاب صحراوية من دون شك ولكن لا ندري أهي عربية استفرقت؟ أم كانت إفريقية استعربت؟ ولكن الذي ندريه أن الكلاب السلوقية كانت معروفة في جزيرتنا العربية منذ صدر الإسلام أو قبل ذلك ذكرها العلماء والباحثون وأوردت شطراً من أقوالهم في كتاب الأمثال العامية في نجد عند البحث عن أصل المثل العامي: «كلب ومعه سلوقي».

والمدير الفرنسي لفندق (أزالية) التي هي القافلة الصحراوية في اللغة الطارقية لم يقتصر اتخاذه للأشياء المحلية على الكلاب السلوقية بل اتخذ أشياء عجيبة من ذلك أنه جعل واجهة زجاجية في مدخل الفندق حشد فيها طائفة من المتروكات والمخلفات الوطنية مثل الرماح والخناجر والسيوف والبنادق وحتى الحلي من الخرز والأساور من النحاس والهاون من الخشب وسلال قديمة من الخوص.

وإلى جانب ذلك مجموعة من المطبوعات العربية القديمة التي تعتبر في بلادنا قديمة وأثرية حسا ومعنى فهي ذات طبعات قديمة وأوراق صفر قديمة وموضوعاتها قديمة، إذْ بينها حاشية الكفرواي على شرح الآجرومية في النحو وكتاب (تنبيه الغافلين) وفيها كشكول مخطوط يحوي أوراقاً وكراسات من كتب متفرقة.

وقد سألني المدير الفرنسي عندما طلبت منه الاطلاع عليها: ألها قيمة أثرية؟ فقلت له: إن تقدير القيمة الأثرية يختلف عند قوم دون قوم. ولكن المهم عندي هذه الأوراق المخطوطة. لو أنها كانت تؤلف كتاباً مخطوطاً قيماً.

ومن الأشياء التي جمعها هذا الفرنسي وعرضها في الفندق واستفدت منها

أنموذج للملح الصخري الذي كانت تنقله القوافل من معادنه في الصحراء إلى الأسواق الإفريقية عبر تنبكتو وهو ملح صلب يميل لونه إلى الحمرة. ونماذج من الرحل الذي يوضع على البعير ويختلف الذي يستعمل عند الطوارق عن الرحل العربي الذي يستعمله العرب المقيمون في هذه المنطقة.

لقد قدموا الطعام ولكن كان هناك ذباب كبير – صحراوي ملح – من الالجاج – وسبب إلحاح الذباب الصحراوي قد يكون معروفًا وهو قلة الطعام والعفونة فيها – ولكن كبره غير معروف السبب.

وبعد الغداء كانت استراحة قصيرة قبل صلاة الظهر والعصر جمعًا وفي الطريق إلى الغرفة في هذا النهار كانت الشمس صحراوية حارة والهواء سموما أيضًا إلا أن الظل ليس ثقيلاً وإنما الثقيل شيء في الفندق قلما يرى في المناطق غير الصحراوية ألا وهو نوع كبير جدًا من الوزغ عجبت من تناميه بهذه الكثرة ومن ضخامته أيضًا.

وعرفت أنهم هنا في الفندق لا يلاحقونه بالقتل كما نفعل نحن إذْ يعتقد بنو قومنا أنه ينبغي قتله لأنه مؤذ مفسد ينفث السم في الطعام وهو نجس أيضًا كما يعتقد ومن ماورد في بعض الآثار من أن الوزغ كان ينفخ على النار التي أوقدها الكفار من قوم خليل الله إبراهيم عليه السلام ورموه فيها.

ولذلك قالوا في أمثالهم.، «مثل بعرصي إبراهيم بس يبي يظهر عداوته». ولا أدري أترك مدير الفندق مكافحة هذا الوزغ حتى يكتسب الفندق الطابع الصحراوي أم أن هذا من باب المصادفة إلا أنني أراه قد وضع في أركان الفندق أشياء صحراوية منقولة مثل عدد من المهاريس – جمع مهراس أو منحاز من الخشب. حتى إنه وضع بابًا خشبيًا تقليديًا قديمًا في مطعم الفندق.

إلا أنه لم يقدم لنا من طعام هذه المدينة شيئًا فكل الطعام مستورد محفوظ مثل (البازيلا) وشرائح من اللحم البقري المبرد وخبز أفرنجي حتى الماء من المياه المستوردة في زجاجات مع أن المدينة لاتبعد عن مياه نهر النيجر العظيم إلا مسافة ٩ كيلات كما قدمت.

وكان بإمكان أهلها لو عملوا أن يستنبتوا الخضرات على ضفاف النهر ثم يحضروها من تلك المسافة القريبة.

واللحم الذي يمكن ان يأتي من تربية المواشي في تلك المنطقة من باب أولى. وعلى ذكر اللحم أقول: إن الأغنام عندهم يغلب عليها البياض مع أن الناس لونهم السواد في هذه البلاد.

جولة في مدينة تنبكتو :

كنت أبديت رغبتي في رؤية بعض الأماكن القريبة من تنبكتو التي رأيت فيها من الطائرة بيوتًا للبدو بين الأشجار ومنها بيوت من جلود حمر والمراد بالبيوت هنا بيوت الشعر أو ما يشبه الخيام. وذلك لكي أقارن بين ماكان للطوارق وما كان للعرب وأتحدث مع الجميع.

وقد أستجابوا جزاهم الله خيرًا فأبدلوا سيارة الصباح الرسمية التي هي فرنسية صغيرة بأخرى صحراوية يابانية شبيهة بسيارة لاند روفر الانكليزية.

وذلك لأن المنطقة رملية ولا توجد فيها خطوط مسفلتة ولذلك لا تقوى السيارات المعتادة على السير فيها.

وجاءت السيارة وكانت الساعة هي الرابعة عندما غادرنا الفندق مصحوبين بالمرافق الإعلامي (أسورا) أو عاشورا والعلامة الدكتور محمود عبده الزبير وكنت أتوقع أن نخرج مباشرة إلى خارج تنبكتو لأن المنطقة لا يطاق السير فيها إلا في اطراف النهار ونحن مسافرون غدًا.

غير أننا وجدناهم قد اعدوا في البرنامج من قبل جولة في أنحاء مدينة تنبكتو وهي جولة أودها بل لابد منها وقالوا: إنه يمكن الانتهاء منها قبل غروب الشمس. وكان الحر قد انكسر في هذه الساعة وولى السموم الأدبار كما هي العادة في آخر النهار.

أصل مدينة تنبكتو :

وصلنا إلى مكان مسور بسور من الطين على مثل الحوش الواسع وفي ركن منه بئر قديمة وجدنا عند ذلك المكان رجلاً قالوا: إنه من أهالي تنبكتو القدماء العارفين بها وهو دليل معترف به من الحكومة فسلم وقال: سوف أكون دليلكم في هذه الجولة واسمه مولاى سيدي محيي بن الشيخ علي وهو من أهل تنبكتو الذين ينتسبون إلى الاشراف وممن جاء أجدادهم إليها من المغرب كما قال. وما نحن في الحقيقة بحاجة إليه ما دام أخونا الدكتور محمود عبدو الزبير معنا مع أنه ليس من أهل تنبكتو الأصلاء وإن كان من أهالي مالي.

وكتبت على ذلك المكان الذي يشبه الحوش لافته بالعربية والفرنسية قال الدليل إن اسمها هنا (تنبكتو كوي) وقال: إن معناه (ساحة تنبكتو) بلغة سنغي الذين منهم اكثرية سكان تمبكتو وقال إن سكان المدينة يعتبرون هذا المكان هو نواة تنبكتو.

تسمية المدينة :

ثم وقف على البئر الموجودة في غربي المكان وقال: هنا كان أول موضع في تنبكتو وأصله كان لأمة أي: عبدة للطوارق اسمها (بكتو) كانت نازلة على البئر فكانوا إذا جاؤا إليها سموا هذا المحل محل بكتو لأن (تن) بلغتهم هي محل وبكتو هي الأمة فيقولون: تن بكتو بمعنى محل بكتو. ومن هنا

أصبح اسم المدينة تنبكتو. وقال: إن أمة الطوارق هذه قد أقامت هنا فكانت أول من ابتدأ سكن المدينة في القرن الخامس الهجري.

وإقامتها هنا هي لحراسة هذه البئر، ولا أدري مم تحرسها إذا لم يكن هناك أحد إلا الطوارق اللهم إلا إذا كان هناك أحد من السكان الطارئين.

هكذا قال الدليل في تحليل اسم المدينة، لا في تعليل الحراسة.

وسمعت بعض أهل البلاد من الطوارق الذين أجمع كل من لقيته على أنهم كانوا أهل تنبكتو القدماء أن اسمها مؤلف من كلمتين هما (تن) و(بكتو) ومعنى (تن) صاحب ويراد بها هنا صاحبة و(بكتو): شيء قديم وهو هنا خيمة قديمة بلغة تماجق الذين هم من صنهاجة.

وإن امرأة منهم نصبت خيمة قديمة في مكان تنبكتو هذا قبل أن يعمر، وأقامت فيه فسمي (تنبكتو) أي صاحبة الخيمة القديمة ويراد بذلك مكانها.

وعلى هذا نرى أن الأوروبيين ومن قلدهم من بني قومنا يكتبون اسمها بالميم (تمبكتو) وهذا تحريف جرهم إليه إدغام النون في الباء في النطق.

وليس هو بالتحريف الوحيد في أعلام المدن التي كان يعرفها أسلافنا العرب وحرفها الأوروبيون في النطق فقلبوا نونها ميما وجاء اخلافنا من الكتاب التقليدين فتابعوا الأوروبيين على ذلك اللفظ ومنها اسم عاصمة سيلان (سيرلنكا) ينطق بها العرب المحدثون الآن (كولومبو) تقليداً للأوروبيين مع أن اسمها عند أسلافنا المؤرخين العرب (كلنبو) بالنون وليس الميم، وممن ذكرها بذلك الرحالة ابن بطوطة. ومثل اسم (ممباسا) التي هي مدينة رئيسية ساحلية في كينيا من المنطقة التي كانت تسمى (زنجبار) ومعناها: بر الزنج. قبل أن ينتقل هذا الاسم إلى جزيرة زنجبار الحالية، الواقعة في البحر الزنجي شرق افريقية.

واسمها العربي القديم (منبسه) بالنون وليس بالميم: ذكرها بذلك الرحالة ابن بطوطة أيضاً قي رحلته التي مضى عليها الآن ما يقرب من ثمانية قرون. وذكرها بهذا الإسم قبله ياقوت الحموي وقبل ياقوت الحموي ذكرها الشريف الإدريسي.

المراكب النهرية والقوافل الصحراوية :

قال الدليل وحق له أن يقول: مدينة تنبكتو كان يصلها في الزمن القديم فرع من نهر النيجر، وإن المراكب النهرية التي تأتي مع ذلك الفرع كانت تلتقي بالقوافل العربية والطارقية -نسبة إلى الطوارق- الصحراوية التي كانت تقدم من الصحراء حاملة الملح وغيره من البضائع فيتناول الطرفان الطرف الأول النهري القادم من البلاد الخصيبة والطرف الصحراوي القادم من البلاد الكئيبة. يتبادلان البضائع التي قد يكون من بينها بنو آدم من الرقيق الذي يجلب من داخل القارة مما كان جنوباً عن بلاد السودان الغربي.

أما الآن فإن ذلك الفرع قد جف ولم أدعه يكمل عبارته بل قاطعته قائلاً: لقد مررت بمجراه قبل هنيهة فوجدت طائفة من الأطفال يلعبون برماله التي حلت محل المياه العذبة فيه، ورأيت طائفة من الأهالي قد جلسوا على تلك الرمال الوثيره يلعبون بأوقاتهم الثمينة التي ينفقونها في القيل والقال وفي ملاحقة الناس بالأبصار.

ولقد تمنيت عندما رأيتهم حِلقًا -جمع حلقة- في الشوارع قد هجرت البيوت عندما ولى السموم وقد افترشت الأرض أن أعطى شيئًا من السلطان لأعطي كل واحد منهم وحتى كل واحدة قادرة ما يبدأ به حفر هذا الفرع القصير الذي يجلب الماء النمير لهذا البلد القتير.

من هم الطوارق ؟

قلنا إن الذين أسسوا (تنبكتو) هـم الطوارق وإن ذلك كان قبل ثمانمائة سنة فمـن هم الطوارق؟ الـطوارق ويقال لـهم التـوارك كما قال ذلـك الأمير محـمد بيللو بن الشيخ عثمان دان فودي.

هم طـوائف من سكـنة الصحـراء الإفريقيـة وساحلهـا الجنوبي أي الـواقع علـى حدودهـا الجنـوبيـة التي تـنتـهي بمـنطـقة المراعـي قبـل حدود المنطـقة الاستـوائية المطـيرة ويعـرف أنهم قدمـاء السكـنى في هـذه الصحـراء. وأنـهم ينـتشرون فـي أنحائـها. ويرجـع أصلهـم إلى البـربر وبعـضهم يـرجعهـم إلى صنـهاجـة بالـذات، وصنـهاجـة وطائفـة أخرى مـن البـربر يـرجعـهم بـعض النسابين الـعرب القدماء إلى أصول عربـية قديمة قالوا: إنها كـانت في جيش أحد تبابعة اليمن وهم ملوكها الذي غزا أحدهم افريقية وتخلفوا عنه فيها.

ويساكنهم ويعيش منهم جماعة متميزة بالعلم والفهم ومحبة الأدب هم السوقيون الذين يـنتسبـون إلى السوق فـي (تادي مكة) فـي الصحـراء الـذين منهـم الأنصار، الذين يسميهم الطوارق (كل أنصر) و(كل) في لغتهم معناها: أهل أو أرباب النصر وأهل النصر هم الأنصار إذا ترجمت الكلمة ترجمة حرفية كما تقدم.

وقال بعضهم: إن كلمة (الأنصار) جاءت من كونهم من بقايا بني نصر آخر الأسر التي حكمت الأندلس وأن بني نصر المذكورين يرجع نسبهم إلى أنصار المدينة.

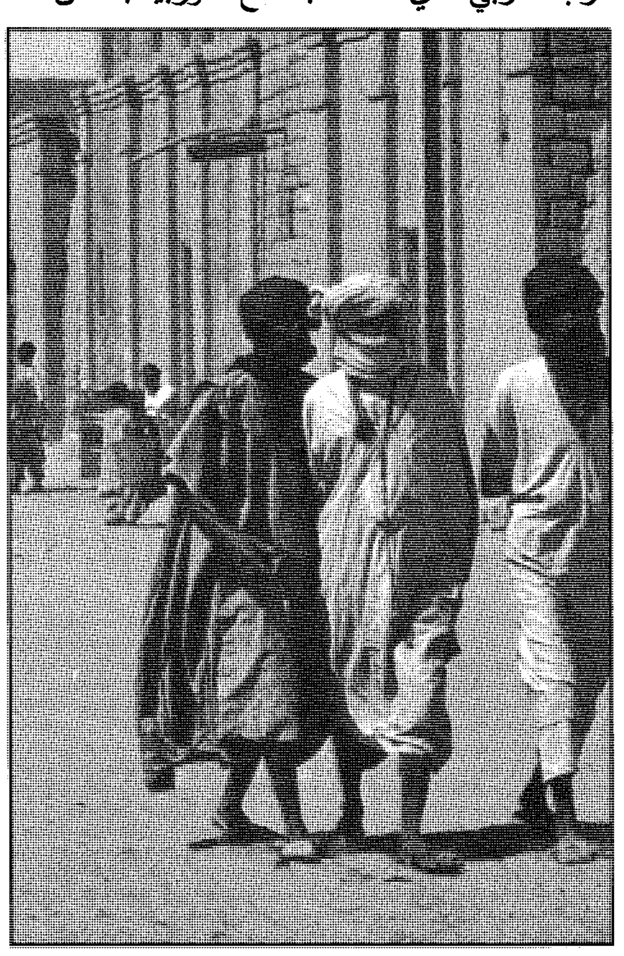
ولذلـك ينكر الأنـصار على مـن يقول: إنـهم من الطـوارق ويقولون: نـحن جيران للطوارق ولسنا منهم.

ومنذ عـهد قديم و(الطوارق) موجـودون في هذه المنطـقة حتى العصـر الحاضر ويشترك معهم في سكناها ممن يعيشون قريباً من معيشتهم في الرعي والقيام على تربية الماشية طوائف من العرب من البرابيش وكنتا كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويتميز الطوارق بمحافظة رجالهم على التلثم وستر الفم، وملازمة نسائهم على السفور وعدم التحجب. وليس هذا الكتاب موضع بحث عميق عن أصولهم وإنما أردت ايضاح شيء من أمر الطوارق أولئك، والله أعلم.

ونوه الدليل الذي اعتاد على أن يشرح للسائحين الأوروبيين فيما يظهر: أن تنبكتو تعتبر ملتقى سفن البر (الابل) التي تحمل البضائع من المغرب العربي ومن أوربا بالسفن التي تحمل البضائع من بلاد السودان ولم يدر أن الابل لا تأتي من أوروبا إلا إذا كان يقصد أن قدومها من المغرب العربي الذي تصله البضائع الأوربية بالسفن.

على أن هذه القوافل كانت تأتي في رحلاتها التاريخية المشهورة قبل أن يكون في أوروبا بضائع للتصدير بل قبل أن تعرف أوروبا الاهتمام بذلك فكانت معروفة منذ أكثر من ألف عام ذكرها مؤرخو العرب ونوهوا بأهميتها وقالوا إنها تذهب بالملح والحلي الزجاجية وتأتي بالذهب والعبيد.



ملثمون في تنبكتو

تذكار المكتشفين :

ربما يكون الغربيون ومن انتسب اليهم أو تفرع

عنهم أكثر الأمم تشجيعًا للأعمال المفيدة المبتكرة أو القريبة من ذلك.

فهم على سبيل المثال يسمون البلاد التي يعرفونها لأول مرة باسم مكتشفها في الغالب مثل امريكا على اسم (أمريكو فاسبوتشي) ومثل كلومبيا على اسم كريستوفر كلومبس الخ.

ولكنهم إذا كان الأمر لا يصل إلى حد التسمية فإنهم يخلدون ذكر الرجل الذي عمل عملاً جريئًا أو مفيدًا لأول مرة ولو بكتابة ما عمله على لوحة تذكارية.

ومن عملهم ذلك أن كل أمة من الأمم التي وصل مكتشفوها أو المغامرون فيها إلى مدينة تنبكتو لأول مرة اقامت لوحة تذكارية لأول رجل منها وصل إلى هذه المدينة. وقد عملوا اللوحة على البيت الذي سكن فيه في تنبكتو. هكذا عمل الانكليز والألمان والفرنسيون.

أغرب تذكار :

ولكن أغرب التذكارات كان لرجل امريكي قالوا: إنه أول امريكي وصل إلى تنبكتو بطريق الصحراء ووجه الغرابة فيه أن الذين أرادوا أن يبنوا له هذا التذكار ويخلدوا عمله في لوحة تقرأ لم يكونوا يعرفون مكان نزوله في تنبكتو كما فعل الانكليز والفرنسيون والألمان.

فكان أن اهتدوا إلى طريقة أو لنقل إنهم لكونهم لم يهتدوا إلى طريقة صحيحة فإنهم عمدوا إلى أهم مكان في تنبكتو وهو هذا المكان الذي ذكرته الذي هو فناء مكشوف أي حوش قال لنا الدليل: إنه أول موضع عمر في مدينة تنبكتو. وكتبوا عند مدخله لوحة تقول:

أقيمت هذه اللوحة على شرف أول أمريكي يصل إلى تنبكتو من بيسكرة بالجزائر عام ١٩١٢-١٩١٣م.

وقالوا: إنهم أقاموا اللوحة في هذا المكان لأنه لابد أن يكون قد زار هذا المكان بالضرورة لأنه أول مكان بني من المدينة.

ولشيء آخر لم يقولوه أو يعلنوه وهو أن كل من زار مدينة تنبكتو من السياح الأجانب فإنه لابد أن يزور هذا المكان وبالتالي لابد من أن يرى هذه اللوحة التذكارية ولو لم يقصد ذلك.

وهذا عجيب من حرصهم على تخليد أول زيارة لأول أمريكي إلى مدينة تنبكتو مع أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى الفخر لأنها تمت في عصر متأخر هو أول العقد الثاني من القرن العشرين ولكن من العجيب أيضاً أنهم لم يقيموا اللوحة هذه إلا في وقت متأخر أيضاً ألا وهو عام ١٩٧٠م.

وهو تاريخ لا يبعد كثيراً عن تاريخ أول (زيارة) لأول أمريكي بل أول إنسان إلى سطح القمر! أرأيت كيف يحرصون على تسجيل أعمال الذين قاموا بالاكتشافات ولو كانت على سطح الأرض في الوقت الذي كانوا فيه يعملون على اكتشاف القمر.

ثم إن المغزى من ذلك ليس مجرد الفخر مع أن العلم والمعرفة جديران بأن يفخر بهما الإنسان أيا كان مكانه وزمانه. وإنما المغزى هو الحرص على المزيد من المعرفة ومن التسابق إلى تحصيلها حتى من الأمم التي حصلت على مقادير هائلة من المعرفة في مختلف العلوم والفنون.

وإلاَّ فإن وصول أول رجل أمريكي إلى تنبكتو ربما لم يأت للثقافة الغربية العامة بجديد يذكر لأن المكتشفين الأوروبيين كانوا قد سجلوا معلومات ضخمة هامة عن هذه المدينة بخاصة وعن المنطقة كلها بصفة عامة قبل وصوله.

أول المكتشفين الغربيين :

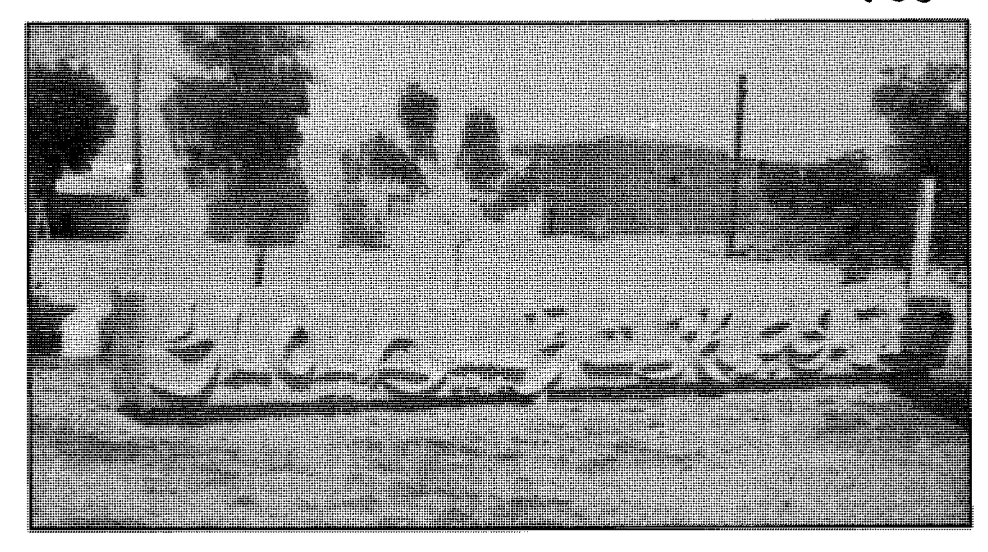
فأول الأشخاص من الغربيين الذين سموهم مكتشفين كان رجلاً إنكليزياً وصل إلى تنبكتو على الإبل - بطبيعة الحال - عام ١٨٢٦م.

والثاني كان فرنسياً جاء بعده بسنتين عام١٨٢٨، والثالث كان ألمانياً. وهم يسمون ذلك اكتشافاً أما نحن العرب والمسلمين فإننا لا نعتبر ذلك اكتشافاً إلا إذا اعتبرنا أننا مجهولون من أنفسنا فهذه البلاد بلادنا وإن كانت همم بني قومنا قد قصرت في تلك الأزمان المتأخرة عن طلاب المعرفة وتجشم الأخطار في سبيلها وهي معروفة لنا في كتب التاريخ والتراجم والرجال ولكننا قد قصرنا حتى عن قراءة الكتب التي كتبها اسلافنا ومثقفونا الأولون.

ميدان الاستقلال وحامي المدينة :

انتقلنا مع الدليل إلى ميدان متوسط السعة هو ميدان الاستقلال تتوسطه مستديرة صغيرة في وسطها نصب الاستقلال وقد رسموا عليه صورة فارس أبيض قد لبس لباساً أبيض وهو راكب فوق حصان أبيض.

قالوا لنا: إن هذا الفارس الأبيض المرسوم على أهم ميدان في المدينة هو الذي يحرس مدينة تنبكتو من اللصوص والأعداء المهاجمين، لأن المدينة لا أسوار لها.



الكتابة على النصب التذكاري في تنبكتو

وزعموا أن أناساً عديدين قد رأوه بعد منتصف الليل وهو يتجول حول المدينة ولذلك تتمتع المدينة بأمن شامل رغم عدم وجود الأسوار.

وبعض المثقفين منهم يقولون: إن هذا الزعم هو بمثابة سور مَعْنوي روحي لمدينة تنبكتو عندما لم يكن لها سور حقيقي.

غير أنهم نسوا أو تناسوا أن المدينة يحرسها سور من الصحراء من جهة الشمال لا يخترقه إلا رجال من الصحراويين أنفسهم من الطوارق والعرب ومنطقتها محروسة من جهة الجنوب بمستنقعات وبحيرات من مياه نهر النيجر.

ثم إن هناك أسواراً منيعة من الإيمان العميق في نفوس الأهالي يمنع أكثرهم من السرقة والانتهاب وهناك التقاليد العريقة في عدم أكل المال الحرام في نفوس أهالي السودان الغربي مما جعل بلادهم على فقرها من أكثر البلدان الأفريقية الخضراء إن لم تكن أكثرها أمناً وأقلها سرقة وانتهاباً.

الجامع العظيم :

اسمه (مسجد جنقري بير) ونعته: جامع تنبكتو العظيم، وعظمته من أمور عديدة فهو مسجد تاريخي بناه الملك كانكا موسى عندما عاد من الحج في عام ١٣٢٥ الميلادي قال الدليل: إنه أحضر معه مهندساً عربياً اسمه أبو اسحاق الغرناطي هو الذي أشرف على بناء هذا الجامع وعلى قصر للسلطان يقع في شمال المدينة.

وقال: إنه بني هذا المسجد في وسط تنبكتو غير أنه الآن لايقع في وسط المدينة رغم الزيادة الطبيعية التي يفترض أنها قد حدثت في سكان المدينة وإنما يقع في غربها لا يكاد يفصل بينه وبين الخلاء خارج المدينة إلا أبيات قليلة من الطين ومدرسة حكومية أسوارها من الأشجار الشائكة لعجز

القائمين على المدرسة عن أن يبنوا لها سوراً من لبن الأسمنت. وبناء المسجد من الطين والحجارة تحيط بها دعائم من هاتين المادتين على شكل حوائط مائلة تسنده وتقويه.



أمام مسجد جنقري بير في تنبكتو

وحجارته من الحجارة الرملية التي تشبه الجص وهي الموجودة في تنبكتو بل قال بعض أهلها: إن هذه الحجارة موجودة في تنبكتو وحدها من دون سائر مدن العالم.

وجدرانه عريضة جداً هي في الأجزاء غير السميكة متر واحد، أو أكثر قليلاً من ذلك.

وليس فيه نوافذ كبيرة قالوا: لئلا تتبدد الرطوبة ويدخل منها السموم ولئلا

يتبدد صوت الإمام الذي ينبغي أن يسمعه المصلون على كثرتهم في زمن لم تكن توجد فيه مكبرات صوت.

وقد لاحظت أن الطين الذي بني منه المسجد غير جيد لأنك ترى في أسافل الحيطان من الخارج أكواماً من الطين الذي أنزلته الأمطار على مدى السنين. وربما كان هذا من أسباب جعلهم الجدران غليظة جداً ولم يراعوا فيها الذوق إذ هي إلى عرضها ضخمة كأنها اكوام من الطين الطبيعي في الخارج ولذلك يشعر العربي منا الذي أعتاد نظره على الأشكال الهندسية المستقيمة في خطوطها وفي أركان زواياها مثلما يشعر به إذا ما رأى الأبنية الصينية المرتخية السقوف التي لا يراعي بانوها أن تكون زواياها مستقيمة استقامة كاملة. وهذا أمر شائع في الأبنية القديمة في السودان الغربي كله شاهدنا ذلك في هذه البلاد وفي نيجيريا.



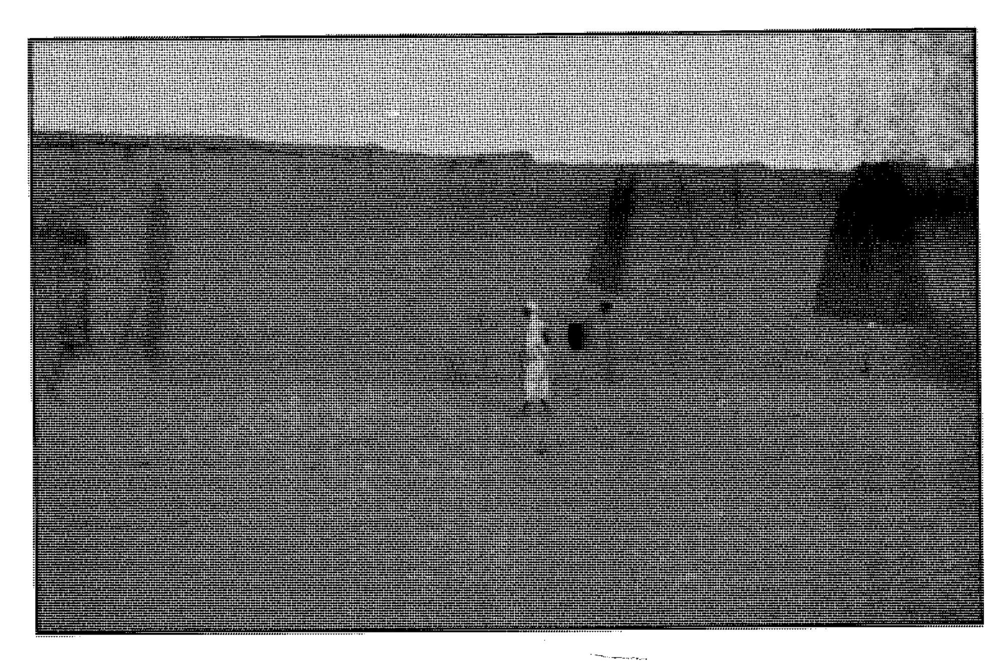
خبازات في شوارع تنبكتو

على أنه يلاحظ أن قسماً من المسجد يبين عليه شيء من الطابع العربي في البناء أكثر من غيره وهو القسم الشمالي قال الدليل: إن السبب في ذلك أنه قديم باقٍ على قدمه. وأما بقية الحائط فأكثره من بعد ذلك التاريخ بقرن فقد بني في القرن التاسع الهجري.

والمسجد كبير وواسع واعمدته من الداخل غليظة حتى إنها تشغل حيزاً من المسجد كبيراً. وإذا رأيت بابه وهو داخل حيطانه الضخمة خلته باب قلعة.

الخبازات في الشارع :

قرأت قولة قديمة لبعض العلماء نسبها بعضهم إلى الإمام الشافعي ونسبها آخرون للإمام أحمد بن حنبل وهي قوله: لا تسكن في بلدة ليس فيها خباز ولا نهر جارٍ.



الجانب الغربي من جامع جنقري بير من الخارج في تنبكتو

وكانت تنبكتو تستحق السكن بهذا المعيار فقد كان فيها نهر جار جلبه أهلها الأقدمون على هيئة قناة تسحب مياه نهر النيجر العظيم التي لا تبعد عنها إلا بمسافة تسعة كيلات ولكن كسلهم أو كسل القائمين على أمرهم طمر تلك القناة فامتلأت بالرمال بعد أن كانت تمتلئ بالمياه فبقيت تنبكتو بدون نهر.

غير أن الخبازين أو على الأدق الخبازات مازلن يخبزن في شوارع المدينة وليس المراد بذلك أنهن قد فتحن حوانيت فيها الأفران التي تخبز الأرغفة كما يفعل أكثر الناس في أكثر البلدان. وإنما هن يخبزن في الشارع نفسه، وإن شئنا الدقة قلنا في الزقاق نفسه.

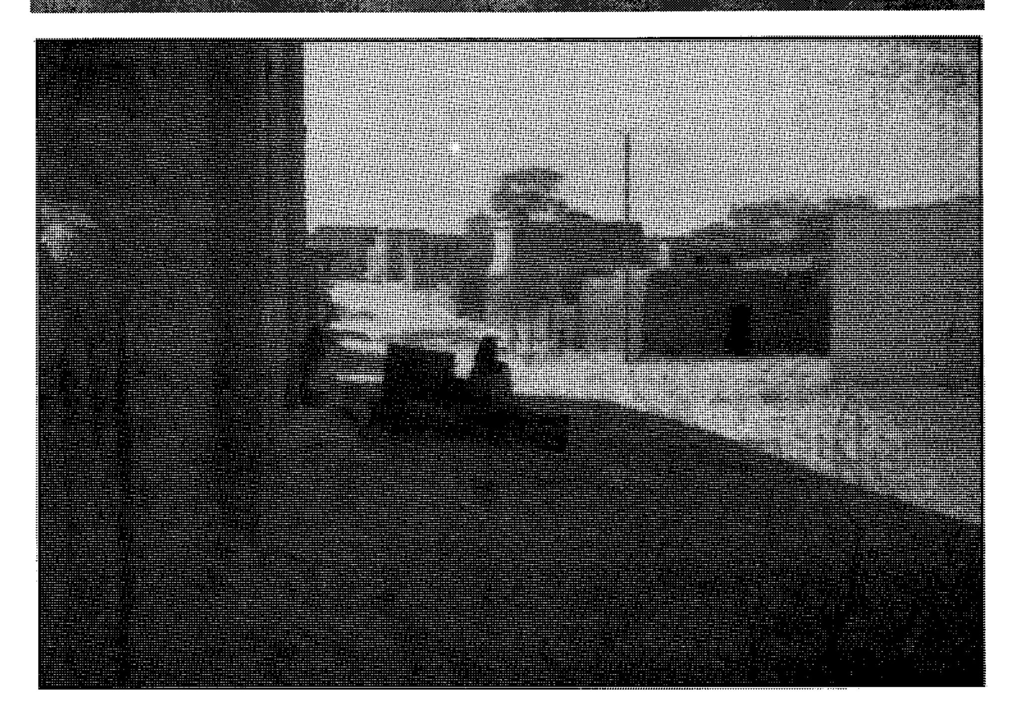
فقد شاهدت خبازة اليوم قد بنت تنورها في أرض الشارع وهي تخبز من عجين بجانبها في هذا التنور المسجور الذي تتقد ناره بالحطب الجزل والناس يشترون منها على قلة. ولما أردت الوقوف عندها قال لنا مرافقونا إن مثيلاتها كثير في شوارع المدينة وسوف نراهن من دون أن نقصد ذلك.

والخبز الذي رأيته عندهن هو من القمح وليس من الحبوب الشائعة في السودان الغربي وافريقية الخضراء كلها كالذرة والدخن و(الفونيو) الذي سماه ابن بطوطة (الفوني).

في قلب المدينة :

تجولنا على أقدامنا في أزقة المدينة الضيقة المتربة التي تتلوى بين بيوت قديمة أكثرها قد ارتفعت أرض الأزقة عنه فأصبحت أعلى من باطن البيت.

ولم نلمس أي أثر للمدنية الحديثة في هذا الجزء من البلدة فالأبنية الاسمنتية المسلحة تكاد تكون معدومة وإنما أغلب البيوت من الطين، وبعضها ذو دعامات من الحجارة الجصية المحلية.



بيوت الطين في تنبكتو

وقليل من البيوت من هذه الحجارة والبيوت الجيدة كلها قديمة وبعضها قد بنيت فوق أنقاضها بيوت طينية رثة رديئة، وبعض البيوت الحجرية القوية قد تركت متهدمة.

مع أنَ مما ينبغي ملاحظته أن المراد بالبيوت المبنية من الحجارة أن أركانها ودعائمها وواجهاتها مبنية بالحجارة وإلا فإن عدد البيوت المبنية كلها بالحجارة الرملية أو التي كنا نسميها في بلادنا بالحجارة الجصية لا يكاد يذكر.

وكون البيوت القوية الحجرية الجيدة هي القديمة بخلاف البيوت الحديثة التي أكثرها مبني بالطين يعطي دليلاً على أن البلدة قد أدبرت بعد إقبال، وساءت حالها بعد ازدهار.

وقد لاحظت أن أبواب معظم هذه البيوت مفتوحة يرى المارة منها من يكونون في مداخلها، وبخاصة من النساء وكبار السن.

ولكن النساء فيها حالهن كما هي خارجها فالحجاب بمعني تغطية الوجه والكفين غير موجود غير أن التبرج الذي يظهر أكثر من ذلك يكاد يكون غير موجود أيضًا في مدينة تنبكتو كلها.

وفي هذه البيوت يرى الذي يمرُّ من الزقاق بعض النساء يرضعن أولادهن أو يجلسن مع كبار السن أو يراهن نائمات مسترخيات.

أما اللون الأكثر هنا فإنه الأسود ومع أن هذه الأزقة مهملة أو لنقل إنها تمثل ما عليه المدن والقرى في العصور القديمة قبل الأخذ بنظام البلديات وزفلتة الشوارع وتحسين المدن فإنها ليست قذرة والسبب في ذلك هو الجفاف الموجود في المدينة فالمياه ليست كثيرة إلى جانب الحالة الاقتصاديةالصعبة أو لنقل غير المتطورة التي تكون حاجات الناس فيها محدودة وطبيعية بحيث لا يستعملون فيها ما يستعمله أهل المدن الحديثة العصرية من كثرة المغلفات والمعلبات والأشياء الملفوفة بالأوراق أو بالخشب الرقيق فضلاً عن الورق المقوى (الكرتون) التي تكون بعد انقضاء الحاجة منها من النفايات.

إضافة إلى طبيعة نظيفة في أهل هذه البلدة وعاداتهم فالملاحظ أنهم نظيفو الثياب، نظيفو الأبدان، لايبدو على أكثرهم أنهم في هذا الميدان ينتمون إلى بلد من البلدان المتخلفة في الإدارة، حتى أطفالهم تغلب النظافة على مظاهرهم.

وفي أحد هذه الأزقة الضيقة المتعرجة من مدينة (تنبكتو) رأينا ما تسمى بلوحة الشرف مكتوبة على أحد البيوت بالانكليزية تحتها الفرنسية. تقول:

هنا سكن المستر (الكسندر جوردون لنج) الذي قدم حياته ثمنًا للوصول إلى تنبكتو عام ١٨٢٦م.

وقد أقامت هذه اللوحة الجمعية الملكية -البريطانية - الإفريقية على شرفه في عام ١٩٦٣م.

وهو أول أوروبي وصل إلى تنبكتو كما تقدم. وقد قتل بعد مغادرته تنبكتو على بعد ٤٨ كيلاً منها ولذلك لم ينتفعوا من المعلومات التي حصل عليها لأنها ضاعت بموته.

والبيت الذي كان يسكنه منخفض عن أرض الشارع قليلاً لأنه قديم بسبب كثرة ما أنزله المطر من طين البيوت المجاورة. ولا يزال البيت مسكونًا رأيناه مفتوحًا وسكانه من المواطنين عند بابه من الداخل وقد حاولت أن أسأل شيخًا كان فيه عما يعرفه من أمر ذلك البريطاني الذي سكن فيه، ولكن لم أجد عنده استعدادًا للحديث في هذا الموضوع.

صلى وصام لأمر كان يطلبه:

وفي ركن آخر من وسط المدينة الضيق شاهدنا ونحن نتبع الدليل السياحي بيتًا قديمًا آخر جيد المظهر أركانه ومداخله ودعائم الأسقف فيه من الحجارة قال الدليل: إن هذا سكنه أول رجل فرنسي وصل إلى تنبكتو وهو ثاني أوربي وصل إلى هذه المدينة.

وهو فرنسي تعلم اللغة العربية في موريتانيا وأظهر الإسلام وتسمى بعبدالله وصار يشارك المسلمين في أداء الشعائر الدينية ويحضر حلق الذكر، واسمه الأصلي (رينيه كاليه).

وقد وصل إلى تنبكتو في عام ١٨٢٨م أي: بعد الانكليزي بسنتين.

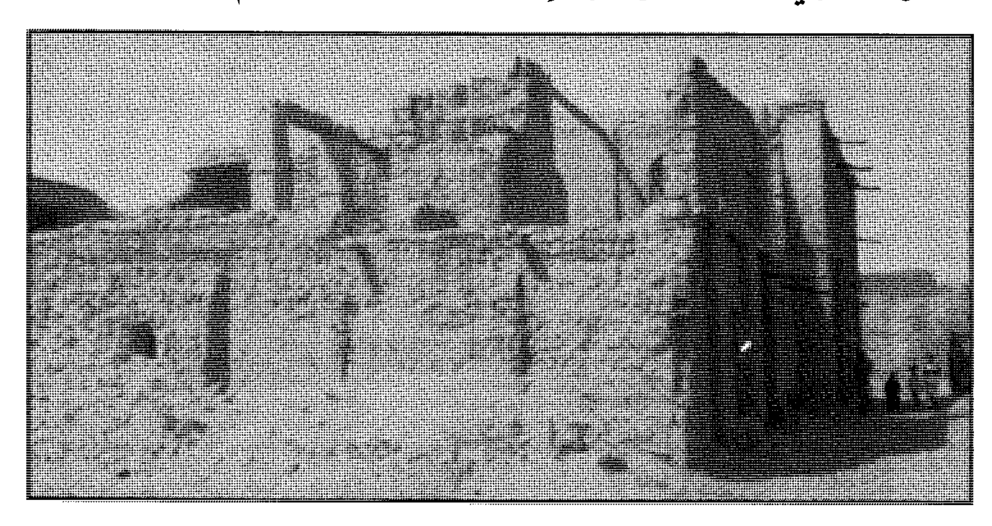
وقد نجح من حيث فشل الانكليزي إذْ استطاع بطريقته تلك أن يحصل على معلومات أكثر مما حصل عليها الانكليزي كما استطاع أن يجعل الناس يصدقون إسلامه ولذلك عاد بثروة كبيرة من المعلومات انتفع بها الفرنسيون في سعيهم للسيطرة على تلك المنطقة بعد ذلك بعقود من السنين.

وبعضها معلومات ثمينة لم يقتصر الانتفاع بها على الفرنسيين بل كانت نافعة للتاريخ العام وللمعرفة.

فقد عاد إلى فرنسا وجعبته مليئة بالمعلومات ومنها معلومات مفيدة تتعلق فيما نحن بصدده من الحديث عن حاضر مدينة تنبكتو إذا ماقورن بماضيها المزدهر.

فكان مما ذكره قوله : جميع أهالي تنبكتو مسلمون ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويلقنونه لأطفالهم في سن مبكرة جداً.

وذكر أنهم متمسكون بدينهم الإسلامي الحنيف كما ذكر من نشاط أهل تنبكتو التجاري ما يعتبر الوصول إليه الآن حلماً من الأحلام.



خرائب الطين في تنبكتو

ولم يذكر الدليل المؤرخين العظام من أهل تنبكتو الذين كتبوا تاريخًا يعتبر تاريخ المنطقة كلها مثل الشيخ عبدالرحمن السعدي صاحب كتاب. أخبار السودان. والشيخ محمود كعت صاحب كتاب: الفتاش في أحوال الملوك والناس.. وقد قرأت هذين الكتابين ووجدت فيهما فوائد جليلة تتعلق بتلك المنطقة، وإن كان أسلوبهما وطريقة عرض الوقائع فيهما غير ما الفناه في كتبنا فذلك أمر طبيعي في ثقافة إسلامية عربية نمت وترعرت في أحضان هذه البلاد السودانية (التكرونية) العريقة.

الصمغ ودهن النعام :

مررنا بحانوت يبيع الأشياء القديمة في هذه الأزقة القديمة من مدينة (تنبكتو) المحافظة – طوعًا أو كرهًا – على حالتها القديمة.

فسأل زميلي السفير عبدالوهاب الدكوري عن شيء غريب وهو (دهن النعام). وقال: إنه نافع للآلام تدهن به الأعضاء فيسكن الألم ويساعد على الشفاء.

ولما كان النعام نفسه غريبًا بالنسبة إلينا فإن كون دهنه يباع أمر أغرب في ذهني من ذلك.

والمراد بدهن النعام: الودك وهو الشحم الذي يذاب من شحم النعام.

وعندما سمعت بذلك تذكرت شيئًا مشهورًا في الاستعمال عند الأمم القديمة وإن لم يكن في غرابة دهن النعام وهو اللبان الذي يعلك لتطييب النكهة وهو يشد الفم ويسلي أيضًا.

وكنت في مرة من المرات التي سافرت فيها إلى الصومال أحضرت لزوجتي شيئًا من اللبان الجيد التي تنتجه أشجار الصومال أهداه إلي أحد الأخوة هناك فأعجبها نوعه ووفرته بالنسبة لما يباع منه عندنا في السوق.

فلما أردت السفر إلى مالي ظننت أن اللبان يوجد فيها أيضًا فقالت: لا تنس أن تحضر لنا من إفريقية شيئًا من اللبان من هناك.

ولكوني أعرف أن هذه المنطقة تقع على حدود الصحراء ويشبه الجو في بعض أراضيها الجو في الصومال فإنني لم أتهم زوجتي في معرفتها وقلت: ربما يوجد اللبان فيها كما يوجد في الصومال.

وكان طلب زميلي (دهن النعام) مناسبة لأطلب اللبان.

ولم نجد ما طلبناه في الحانوت ولكن الأخ المرافق (أسورا) أو عاشور تكفل بإحضار ذلك كله سريعًا.

وبعد قليل جاء رجل يسعى معه زجاجتان صغيرتان مليئتان بدهن النعام الفعلي، وكيسان صغيران مليئان أيضًا بشيء كاللبان ولكنه غيره. إنه الصمغ العربي الذي تنتجه أشجار في الصومال كما تنتج أشجار أخرى فيها اللبان وبعد لأي أقنعتهم بأن اللبان غير هذا الصمغ فاقتنعوا أو كادوا غير أنني عندما أرجعت الكيسين الصغيرين إليهم لم يقتنعوا وقالوا: هذه مع دهن النعام هدية من الحكومة، وهدية الحكومة لا ترد وأعانهم على ذلك زميلي الشيخ الدكوري فقلت له: إذًا خذه أنت فماذا أصنع بالصمغ أحمله معي من بلد إلى بلد؟

مسجد سيدي يحيى :

انتقلنا إلى مسجد من مساجد تنبكتو القديمة اسمه (مسجد سيدي يحيى) بني في القرن التاسع الهجري ورمم بعد ذلك وقال الدليل وهو يبدي كثيرًا من الاهتمام بهذا المسجد:



المؤلف عند لافتة مسجد سيدي يحيى في تنبكتو

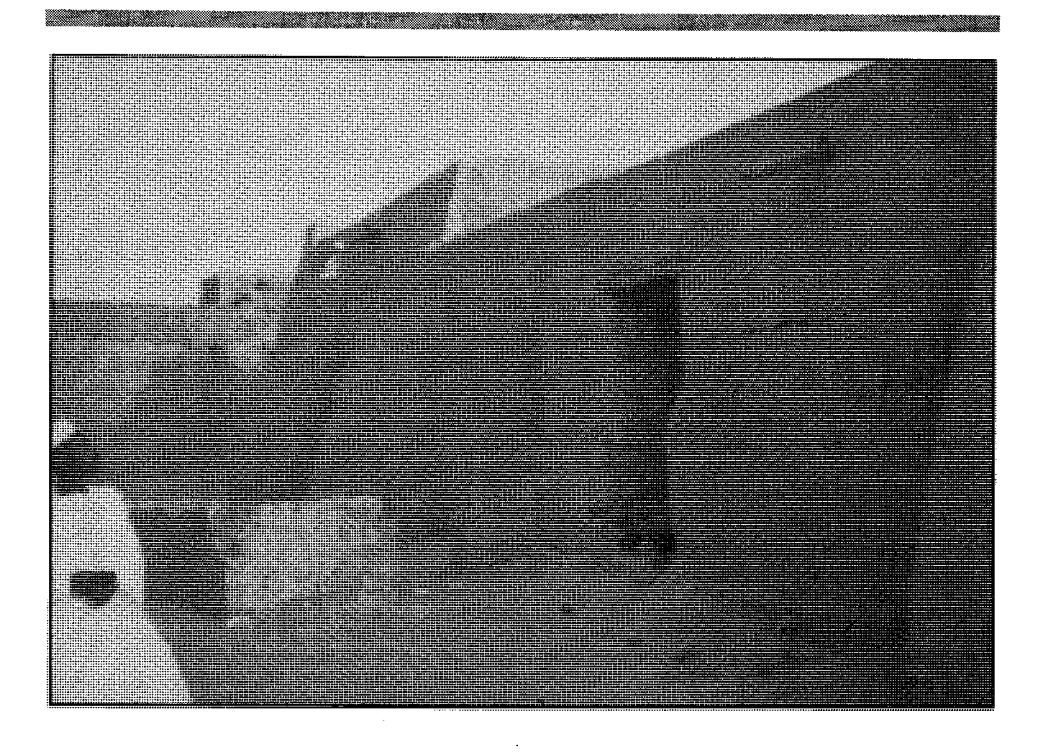
لقد جاء سيدي يحيى من المغرب في القرن الخامس عشر (الميلادي) وصلى بالناس فيه، وبقي قي تنبكتو حتى توفي بها عام ٨٨٦هـ.

وهو السيد يحيى بن عبدالرحيم.

وبجانب هذا المسجد مدرسة قرآنيةخاصة انشأها الأهالي عن طريق جمع التبرعات فيما بينهم.

الخلوة التي لا يختلي فيها الإنسان :

رأينا بجانب هذا المسجد مساحة من الأرض المكشوفة محاطة بسور يرتفع أعلى من المتر قليلاً ولها مدخلان بدون سقف أو باب. قالوا لنا: إن هذه هي الخلوة وكان علماء تنبكتو قديماً يلقون فيها الدروس وهي على قارعة الطريق.



خلوة أو زاوية بجانب أحد المساجد في تنبكتو

وقد اختاروها هكذا حتى يتمكن أي شخص يعبر الطريق من الدخول إليها والاستماع إلى الدروس من دون أن يحتاج إلى الوضوء لتحية المسجد فيما إذا كان الدرس في داخل المسجد كما يمكن للأطفال ذلك وحتى النساء وفيهن من لا يجوز لها دخول المسجد فيستطيع الجميع سماع الدروس والاستفادة منها.

وكانت هذه (الخلوات) كثيرة في تنبكتو عامرة جداً بالمفيدين والمستفيدين ولكنها الآن قد أدبرت كما ادبرت أكثر الأشياء في تنبكتو لأن تنبكتو نفسها قد لحق بها الإدبار، وإن كان إدباراً يرجى لها بعده ازدهار إن شاء الله.

وهذه الخلوة يدل مكانها واستعمالها على خلاف ما يدل عليه اسمها فالذي يكون فيها ليس مختلياً بنفسه مبعداً عن الناس. بل إن جميع الذين يمرون به يرونه ويستطيعون الوصول إليه والجلوس معه مما يدل على أن اسمها

منقول من معنى آخر ثم اكتسب هذه التسمية الاصطلاحية بعد ذلك.

سانكري و (سانكورا) :

بعض الكلمات يسمعها المرء في صباه وقد يستعملها بكثرة ولكنها تقل في الاستعمال حتى ينساها أو يكاد حتى يثيرها من ذاكرته مثير فيجد لها في أذنه رنة خاصة كأنها متاعه القديم الذي نسيه حتى بطل استعماله ثم عثر عليه فأصبح له في نفسه مكانة خاصة والمتاع نفسه قد أصبحت له مزية خاصة هي القدم الذي هو في حد ذاته قيمة من القيم للأشياء تكتسبها لمجرد كونها قديمة.

كنا ونحن صبيان إذا أردنا أن نضايق الشخص الأسود قلنا له (سنكورا) يا (سنكورا) وأخذنا نردد ذلك على مسمعه حتى يتضايق.

ولم نكن نعرف معنى هذه الكلمة ولم نكن نحفل بأن نعرف معناها. وقد لفها النسيان فيما لف من كلمات لكوننا قد كبرنا عن مضايقة السود، ولأن السود أنفسهم قد قلت سكناهم فيما بيننا. ولكنني تذكرت هذه الكلمة (سنكورا) عندما قال لي أصحابنا وقال معهم الدليل: إننا ذاهبون إلى حي (سانكري) وأن معنى هذه الكلمة أبيض أو بيض وذلك أن هذا الحي كان يسكنه البيض. بل كان هو حي البيض من العرب والطوارق. وقد اعتادوا هنا على لفظ (البيضان) للبيض جمع أبيض وهو لفظ عندهم قديم استعمله ابن بطوطة كثيراً. وكان استعمال كلمة (البيضان) في مقابل كلمة السودان للسود وهو استعمال قديم في العربية ممن استعمله الجاحظ في رسالة (فخر السودان على البيضان).

والترجمة الحرفية لهذه الكلمة هي: السيد الأبيض فسن: سيدي وكري: الأبيض، وذلك كله بلغة السنغي.

كنا نسير في الزقاق إلى حي البيضان وأنا أرى طائفة من صبيان تنبكتو

الصغار في ملابسهم الفضفاضة الغريبة التي لم تصرفني عن التفكير الصبياني الذي كان يملي علينا أن نقول للأسود يا أبيض (أو سنكورا) من باب إغاظته والاستهزاء بسواده مع أن هذا أمر لا يجوز شرعًا ولا عقلاً ومعاذ الله أن نفعله بعد أن عقلنا لأنه لا يجوز أن يعير الأبيض ببياضه ولا الأسود بسواده لأن ذلك من باب تعييره بشيء ليس من عمله أو كسب يده، بل هو مما لم يشاور فيه.

بقي أن تعرف أن معنى كلمة (سنكري) أبيض هو بلغة قبائل (سنغي) أكثر السودانيين في هذه المنطقة.

الحي الذي أسودّ :

أخذت أجيل بصري في هذا الحي حي البيضان الذين يراد بهم في الأغلب الأعم العرب والطوارق التمس أن أرى بقاياهم - لاتفضيلاً للون على لون، وإنما لمعرفة وجود العرب والطوارق في هذا الحي الذي ترجع نسبته إليهم إلى عدة قرون فلم أر منهم أحدًا فيه ولا فيما يليه.

ورأيتني أسأل الأخ الدكتور محمود عبده الزبير عن (البيضان) ألا يزالون موجودين في هذا الحي؟ فقال: إن أكثر البيضان الذين كانوا فيه قد اندمجوا في السكان بالمصاهرة أو اختلطوا معهم على مر العصور. ولم يبق منهم إلا بيتان.

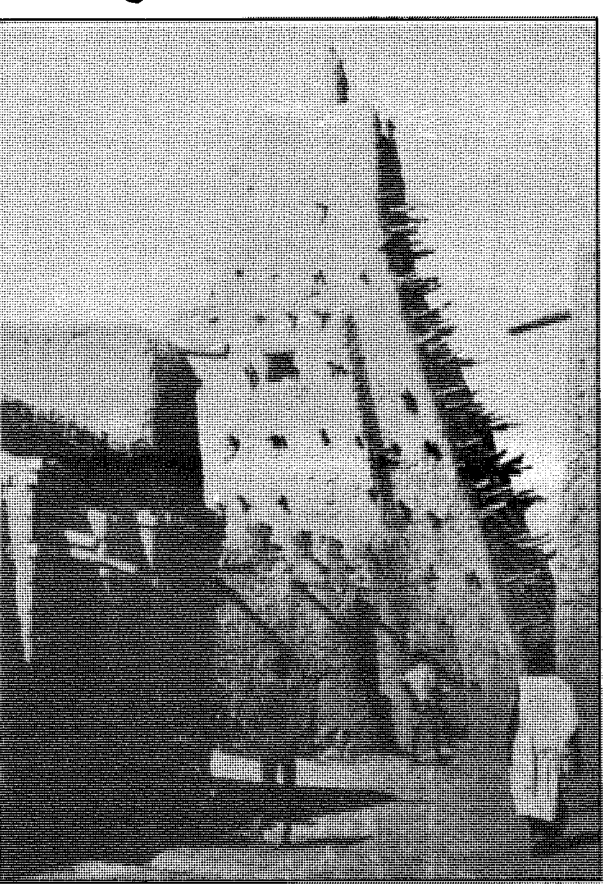
فقلت في نفسي: لا شك بأن الجو أيضًا كان يعمل عمله في التقريب بين السودان والبيضان في هذا المكان كما تعمل المصاهرة منذ قديم الزمان فتكون النتيجة غلبة لون السودان على لون البيضان، لأن اللون الأسود أقوى ظهورًا في الوراثة وبخاصة في هذه البلاد الإفريقية القريبة من خط الاستواء.

جامعة سنكري :

إنقضى أو كاد ينقضي حديث الألوان بين البيضان والسودان الذي هو ليس من الجد بمكان إلى حديث آخر مثير للأحزان.

قال الدكتور الزبير: انظر إلى هذا الجامع في هذا الميدان، ميدان سانكري، إنه جامع سانكري بل هو جامعة سانكري. لأنه كان فطاحلة العلماء في جميع الفنون يدرسون فيه وكان يتخرج عليهم مئات الطلاب.

وآخر شاهد على ذلك أنه قد اجتمع فيه طائفة من العلماء عام ١٠٠٢هـ بعد هزيمة السودانيين بقيادة الاسكيا على ايدي جيش سلطان المغرب المنصور الذهبي.



منارة مسجد سنكري في تنبكتو

وذلك لتدارس الأمر وكيفية التصرف إزاء التدخل المغربي فكان من نتيجة ذلك أن أختار القائد المغربي المنتصر خمسة وسبعين منهم فنقلهم إلى المغرب وبقوا في المغرب كالمسجونين لمدة سنتين ثم سمح لبعضهم بالعودة إلى بلادهم فعاد من مشاهيرهم أحمد بابا.

كانوا يقولون ذلك أو على الأدق كانوا يكررون ما كنت قد قرأته من قبل، ويشيرون إلى جامع سانكري هذا وأنا في أشد حالات الأسف، لكون تلك الحرب حرب مسلمين ضد مسلمين، ولأنها تشبه من بعض الوجوه حرب إبراهيم باشا بجنود مصر لأهل العقيدة السلفية في الدرعية حتى قلت في نفسي: أهي درعية أخرى؟ وهذا الجامع الذي كان جامعة ليس ببالغ الاتساع ولكن طراز بنائه سوداني خالص يدل على ذلك أول شاهد على البعد وهو منارته الطينية ذات الأخشاب البارزة التي قال: إنها تصنع هكذا لكي تمسك بالبناء وتقويه وهي إلى ذلك اشبه بالسلالم التي يصعد عليها البنائون عندما يرتفع المبنى.

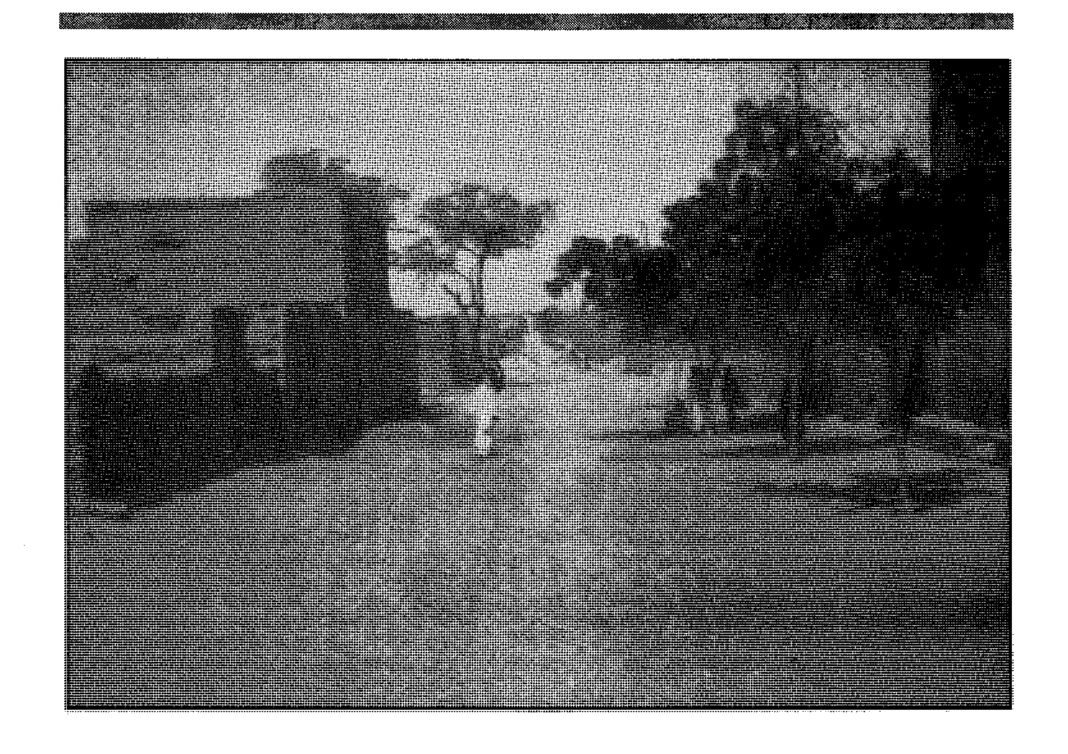
وقد كتبوا لافتة بقرب المسجد بالفرنسية والعربية بخط سوداني ذكروا فيها اسم المسجد فقط.

والمسجد في الطرف الغربي لميدان لابأس بسعته قد توسطه جماعة من الناس من إخواننا السودانيين قد جلسوا فيه على التراب بملابسهم الفضفاضة وهم يتحدثون ويقطعون الوقت في أحاديث مكررة قليلة الفائدة بلا شك.

حي العرب :

تركنا حي البيضان المسمى بلغة السنغي (سانكري) وهو حي العرب والطوارق من الاقدمين إلى حي حديث كل من فيه من العرب المحدثين واسمه (حي الْبَرَّاز) ربما كان ذلك من البروز بمعنى الظهور لأنه في جانب من مدينة تنبكتو يطل على الخلاء الذي يمكن أن يسمى بالخلا الخالي على حد تعبير قومنا في نجد لأنه لا يفصل بينه وبين الصحراء فيما قرب من المدينة فاصل من قرى غير بعيدة منها أو من بساتين أو نحو ذلك.

وقد رأيت طوائف من العرب بثيابهم الفضفاضة أيضاً وإن تكن أقل من



شارع رئيسي في الحي العربي (حي البراز) في تنبكتو

ثياب الطوارق لأنهم مثلهم يعيشون في أجواء صحراوية لابد من اتقاء سمومها وزمهيرهافضلاً عن غبارها ورمالها بملابس واسعة ضافية تستر من الجسم في وقت الحاجة إليها مالا تستره الملابس الضيقة وتفسح للنسيم في أوقات النسيم طريقاً واسعاً لمصافحة الجسم. والطريف منظر طائفة من الرجال من العرب وهم يتمشون بملابسهم هذه وقد امسك كل واحد منهم بيد الآخر يريدون الخروج إلى أطراف الحي المتصل بالصحراء. وحالما رأيتهم تبادر إلى ذهني منظر إخواننا الموريتانيين فهم يشبهونهم في كثير من الأمور سواء في الملامح والملابس أو لهجة التحدث بالعربية.

لقد خرجوا من بيوتهم لأن الوقت الآن ليس بعيداً من المغرب وقد ولى سموم النهار وطاب السير في هذه الأمسية الخريفية الجيدة.

لم يكن في الوقت متسع للحديث معهم إلا واحدًا أردت أن أتكلم معه، فذكر لي بعربية (حسانية) بأنه عربي من (العمران) والعمران، إحدى القبائل أو الفصائل العربية الشهيرة في هذه المنطقة.

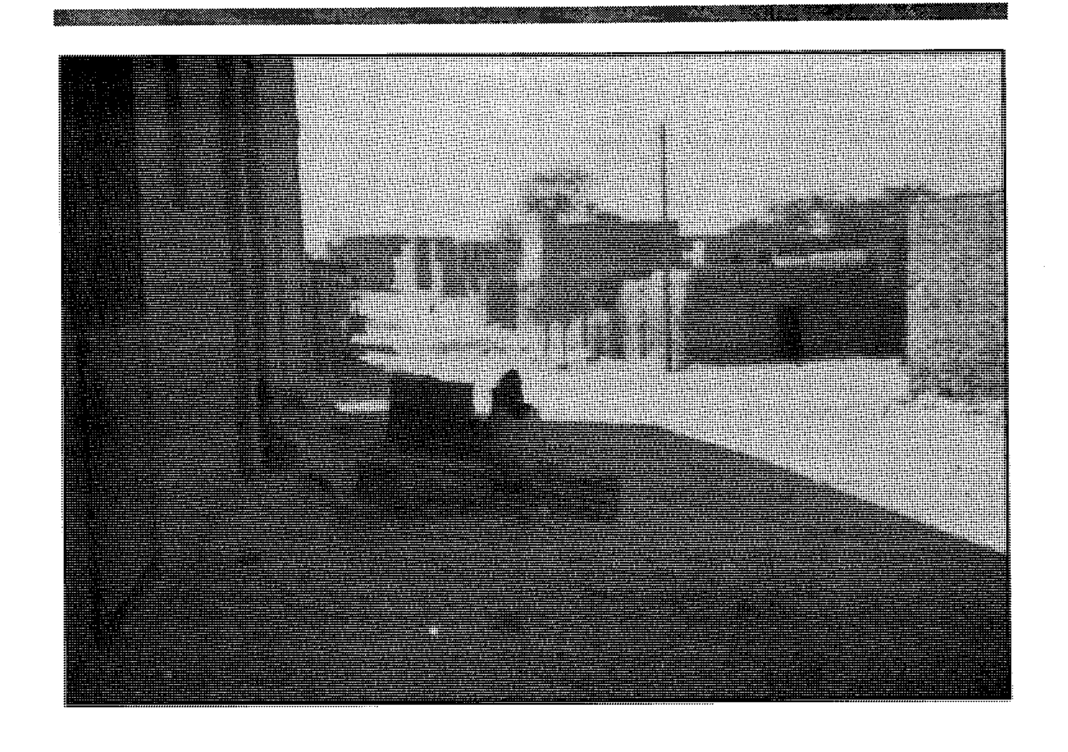
أما الحي فإن بيوته كلها أو جلها من الطين الخالص وقليل منها ذو دعائم أو أساسات من الحجر الرملي الموجود في منطقة تنبكتو.

وقد رأيت طوائف منهم قد تحلقوا على الرمال التي ملستها الرياح السافية حتى اصبحت ملساء لم تطأها قدم بعد أن عبثت فيها سمائم القائلة ثم نثرت عليها من الرمال السافية الدقيقة ماجعل الجلوس عليها في هذه الأمسية كالجلوس على فراش وثير لا سيما أنها خالية من الطين والأوساخ إلا أن تجمعاتهم غير كبيرة العدد فكانت ما بين ثلاثة إلى ستة في الغالب.

ولم ينفرد الرجال بالخروج إلى حدود الحي الذي ليس بينه وبين الصحراء حدود، بل شاركهم في ذلك النساء اللائي خرجن جماعات أيضًا منفصلة في أكثر الأحيان عن الرجال إلا أنه ليس بينهم وبينهن حجاب لأن الحجاب المعروف عندنا مجهول عندهم.

ولكننا نكرر هنا ما سبق أن قلناه عن نساء بعض السودانيين إنهن وإن كن لا يتحجبن فإنهن لا يتبرجن، وملابسهن واسعة فضفاضة كملابس الرجال في هذا الشأن وإن لم يكن مثلهم في التفصيل والتوسيع والتطويل.

ورأيت طائفة من الجنسين يتمشون في الرمال دون أن يجلسوا مع أن الأرض جافة جفافًا يكاد يكون كاملاً فلا ترى فيها من العشب أو الشجر قليلاً أو كثيرًا وقالوا: إن ذلك سببه الجدب الذي توالي على هذه المنطقة وأما الأشجار الصحراوية الكبيرة فقد الح عليها الناس بالقطع ابتغاء لخشبها في الوقود.



شارع عليه بيوت الطين في الحي العربي في تنبكتو

على رمال تنبكتو :

كنت قد طلبت من مضيفينا السودانيين أو بلغة السياسة (الماليين) جزاهم الله خيراً أن يكرموا بإطلاعي على الصحراء القريبة من مدينة تنبكتو لأصل إلى مضارب البدو فيها من العرب والطوارق وبخاصة من أصحاب بيوت الأدم أي الجلود الحمر من الطوارق فلبوا النداء واعدوا سيارة من سيارات الجيب القديمة المعدة لقهر الصحراء غير أن الوقت كان أضيق عن ذلك بكثير فكانت الجولة التي قادها الدليل السياحي في المدينة قد استنفدت أكثر هذا الأمسية الجميلة.

وعندما ودعنا الدليل وودعنا قلب مدينة تنبكتو كانت الشمس تكاد تودعها معنا وهي إذا فعلت ذلك فإننا سنودع الجولة هذه الليلة وهي جولة لا تعوض

لأنه ليس لدينا ليلة أخرى في تنبكتو فهي هنا كالجمعة اليتيمة في آخر رمضان التي يحتفى بها الناس، وإن لم يكن لاحتفائهم بها في الشريعة من أساس إلا أنهم وهم يودعون بها رمضان كأنما يودعون بها الخشوع والخضوع والإنابة والغذاء الروحي الذي يعلمون أنه ليس له من رجوع إلا بعد عام ربما يبلغونه وربما لا يستطيعون.

ومع ذلك فقد خرجنا بهذه السيارة الصحراوية إلى الصحراء الإفريقية التنبكتية فلم نكد نفارق شرقي المدينة ونحن متجهون شمالاً حتى وقعنا مباشرة وبدون سابق إنذار في أرض صحراوية أصيلة تملؤها الكثبان الرملية المهيلة التي قد ربتت عليها أيدي الرياح فأحالت صفحاتها إلى أشكال هندسية بديعة.



سيارة الجيب القوية على أحد الكثبان في خارج تنبكتو (المؤلف والدكوري)

وقد قفزت السيارة كثيباً بعد كثيب حتى وقف السائق في قمة كثيب آخر وقال إن المنطقة كلها هكذا وما بنا بالذهاب بعيداً من حاجة.

وقال لي الرفاق وعلى رأسهم الخبير الكبير الدكتور الزبير: إن هذا المكان يمكن أن يعطيك أنموذجاً على باقي هذه المنطقة.

فأوقفنا السيارة فوق الكثيب مع أن منازل مدينة تنبكتو منا قريب، والشمس قد تدنت إلى المغيب، إلا أن وجهها قد أصفر كما يفعل وجه المحب عندما يفارق الحبيب ونظرت إلى هذه الشمس التي انظر إليها اليوم كما كنت أنظر إليها بالأمس قبل سنوات في بلادنا الصحراوية العربية فأجدها كأنما هي هي العربية الصحراوية لم تتغير فهي تغيب في جو فيه من غبار الصحراء الذي أثارته الرياح في الظهيرة بقية وفيه من نسائم العشي أكثرية، وفيه مع هذا وذاك جفاف الصحراء أو لنقل نقاء هوائها من الرياح الندية.

والرمل الأحمر كأنه رملنا الأحمر بعينه ومنظر الناس على البعد الذين يتبخترون في أثوابهم الفضفاضة وكأنما هم بذلك يفخرون ولا أدري بم يفخرون وعلى من يفتخرون. ولكني عرفت بعد ذلك كما كنت قد عرفت قبل ذلك عن بعض بني قومهم في المدينة المنورة وغيرهم أن الأقوام التي تعيش في الصحراء هم أكثر الأمم فخراً. ولا أدري السبب لهذا الذي يثير العجب.

العبد أسود والليل أسود:

ذكرت قصة عن الزبير بن بكار قاضي المدينة وهي أن امرأة شكت إليه زوجها بأنه يأتي جاريتها فسأله الزبير بن بكار عن ذلك فقال: أيها القاضي، هي سوداء وجاريتها سوداء وفي بصري ضعف، ويضرب الليل برواقه، وإنما آخذ ما دنا مني !

وذلك عندما لمحت شخصاً قاعداً وحده على كثيب مجاور وكان الوقت وقت الغروب إلا أن الغروب في الصحراء أكثر نوراً من غيره فقلت في نفسي: هذه فرصة للحديث مع أحد سكان تنبكتو الذين يلبسون الثياب الواسعة إلا أن المشكل اننا لم نعرف ما إذا كان الشخص رجلاً أو أمرأة لذلك لم أرد أن احادثه وحدي فصحبني إليه الشيخ الدكوري والدكتور الزبير فلما قربنا منه جعلنا نسأل أنفسنا أرجلاً هو أم امرأة فهو متلثم بلثام أسود حتى لا يظهر من وجهه إلا عيناه وهما سوداوان وخط دقيق بينهما أسود أيضاً. وقد لبس ملابس مصبوغة باللون الأزرق الغامق.

فلما وصلناه تبين لنا أنه رجل فسألناه عن اسمه؟ فلم يجب إلا بكلمات تدل على الغضب.

فأحتدَّ الشيخ الدكوري، وقال: هذا أخونا عربي مسلم يسألك عن اسمك فلا تخبره لماذا؟

فأجاب لأنكم جعلتموني أمرأة فأنا أسمع كلامكم وأفهمه فقلنا: إننا نأسف لذلك ولكن سببه أننا لم نر من جسمك ولا من لباسك ما نعرف به أنك رجل. وكان متحفظاً جداً بخيلاً بالكلام.

فقلت له: أنا أخوك العربي كنت أنتظر منك أن تذبح لي ذبيحة لو أتيت إليك في منزلك فما بالك تضن بالكلام؟

فانطلق لسانه، وقال الأخ الدكتور محمود الزبير: إن الصحراويين حذرون جداً لا يخبرون الغريب بأسمائهم ولاالقبائل التي ينتمون إليها لأنهم لا يثقون بأحد.

فقلت: هذا صحيح نعرفه من الأعراب عندنا.

ثم انطلق الأخ الجالس يتكلم بعربية فصيحة واضحة. فقال: أنا عربي من (غيلان). فسألته عن عمله؟ فقال: عمل أهل هذه المدينة: تنبكتو.

ثم سأله أحدنا عن موعد قدوم القوافل؟

فأجاب: ذلك في شهر نوفمبر. ثم أضاف: مع قدوم القوافل يقدم الرخاء والخير، فسألته عما تقدم به القوافل؟ فقال: الملح والتمر ولحم الوحش، يريد بذلك لحم الظباء وقال إنهم يحضرون لحم الوحش قديداً مملحاً يابساً.

وفي هذه الأثناء مر من عندنا ثلاثة صبيان من السود يعرفون العربية جيداً فسألتهم: هل أنتم من العرب؟ فقالوا بلغة عربية فصيحة: نحن من عبيد العرب: وتلفت حولي عن شيء اسألهم عنه في اللغة فإذا بخنفساء برية تمشي وتقترب من أحدهم. فسألتهم عن اسمها فقالوا (خنفوس) وهذا مدّ لاسمها عند العامة في بلادنا إذْ يسمونها خنفس وخنفساء.

الرق في السودان الغربي :

موضوع الرق في هذه المنطقة السودانية من افريقية موضوع واسع يصعب الحديث عنه بتوسع هنا ولكن الذي أثاره في نفسي هو رؤية هؤلاء الذين قالوا بصراحة وبدون خجل: إنهم من عبيد العرب، ومن المعروف لنا أن الرقيق هو أحد البضائع الرائجة التي كانت هذه البلاد تصدرها في القديم، وأكثر الرقيق هم من جنوب البلدومن كان عنها جنوباً من غير المسلمين. أما المسلمون من أهل البلاد فإنه لا يسترق منهم أحد، بل إن فيهم قبائل وأسراً يعتبرون من السادة والنبلاء ويكون لهم المئات من العبيد والإماء المماليك ويصح القول بأن الذين يسترقون إنما هم طائفة من غير أهل مالي الأصلاء قد استمر ذلك إلى قرب الوقت الحاضر، ولا يزال بعض الأرقاء يعملون حتى الآن رغم تحررهم مع ساداتهم، لكونهم يصعب عليهم الاعتماد على أنفسهم في المعيشة.

وحتى الرقيق الذين تحرروا لا يزالون يعتبرون مثل الحدادين ونحوهم من الطبقات الدنيا في المجتمع.

تنبكتو تحتضر :

لو حاولنا أن نوازن بين ما كانت عليه مدينة تنبكتو في القديم وما أصبحت عليه الآن لوجدنا أنها بالفعل تحتضر فعدد سكانها قد قل عما كان عليه في السابق كثيراً رغم أن القياس أن يكون العكس لأن معظم مدن العالم يزداد سكانها زيادة طبيعية وقد يزدادون زيادة أخرى بالهجرة إليها من الريف ونحو ذلك فهي الآن لا تضم أكثر من عشرين ألفًا من السكان وكان سكانها قد بلغوا في عهد أزدهارها مائة ألف أو تزيد. ورقعة المدينة تتقلص على حين كان القياس أن تتمدد وقد تكون الآن أوسع مما كانت عليه قبل عشر سنوات ولكنها أضيق مما كانت عليه قبل مائة سنة.

والصحراء تزحف عليها برمالها وجفافها وقد تغلبت على جزء من ضواحيها الشرقية ويخشى أن تتغلب على أكثر من ذلك.

حتى الأشجار الصحراوية التي كانت موجودة مزدهرة في ضواحيها قد ألح عليها الناس بالقطع وساعدهم الجفاف على ذهابها.

وفي حين أنها بحاجة إلى جلب مياه النهر التي لا تبعد أكثر من تسعة كيلو مترات إليها ولا يحجزها عنها إلا أرض رملية سهلة فإن هناك سداً من الجهل والكسل والتواني والعجز عن بحث الحلول يقف حائلاً دون هذا المشروع الحيوي العظيم.

والقوافل التي كانت تأتي في رحلة هامة بل رحلة سنوية تاريخية إليها قد عدا الزمن عليها ولم ينقذ بقيتها منه إلا تأخر أبناء منطقتها.

وكما بعدت البلاد الخصيبة شمالاً عن تنبكتو خلف الصحراء فإن مراكز المواصلات قد بعدت أيضاً عن تنبكتو بعداً غريباً يستوى في ذلك طرق المواصلات البرية المعبدة التي لا تصلها بأية جهة من الجهات والمواصلات التي تنطلق من الموانيء البحرية فما هي منها بقريب.

وتنبكتو تحتضر وتحتضر معها اللغة العربية والثقافة العربية النقية التي طالما ازدهرت فيها على مر القرون. غير أن احتضار اللغة العربية. يخشى أن يعقبه الموت على حين أن احتضار المدينة قد تعقبه الحياة إذا قدر لمعالجتها منه أطباء مخلصون عارفون بموضع الداء والدواء قادرون على وضع الدواء في موضع الداء.

ومن أول العلاج للحالة الاقتصادية وبخاصة مكافحة البطالة سحب المياه العذبة من نهر النيجر التي لاتبعد مياهه عنها إلا بمسافة تسعة كيلات وإنشاء معهد زراعي تسبقه توعية زراعية لحث الأهلين على الاشتغال بالزراعة.

وهذا لا يتطلب مالاً كثيراً وأصعب ما فيه نقل المعدات الثقيلة اللازمة لتنفيذه.

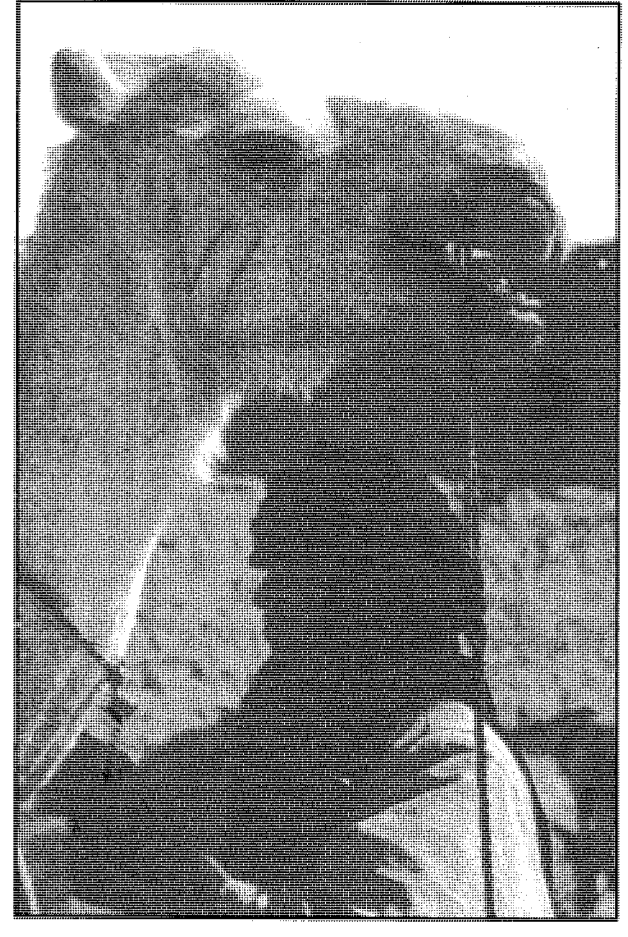
وقد سمعنا بأن الحكومة الفرنسية والسوق الأوربية المشتركة قد قرروا المساعدة على إنشاء هذا المشروع، ولا شك في أننا نحن المسلمين أولى من غيرنا بتقديم المساعدة لاخواننا المسلمين إلا أن ذلك لا ينبغي أن يقلل من التأكيد على أن المشروع هو مشروع إخواننا أهل مالي فهم الذين يجب عليهم أن يسعوا إليه ثم يسعوا إلى توفير عدد من المدربين لصيانته وضمان استمرار الانتفاع منه.

لقد كانت تنبكتو حاضرة من حواضر العالم الإسلامي المشرقة تعج بالعلماء والصلحاء والزهاد والعباد والتجار وأرباب الأموال، وحتى الأدباء

والناظمون كان لها منهم نصيب كما قال محمد بن محمد الأمين:

نيل الرباح أو النجاح السرمدي ... والسير في النهج القويم السرمدي
فازت به (تنبكت) دون مغارب ... ومشارق من كل قطر أبْعَد
فتبا شرت أيامها وتشامخت ... أعلامها من راسيات رُكَّدِ

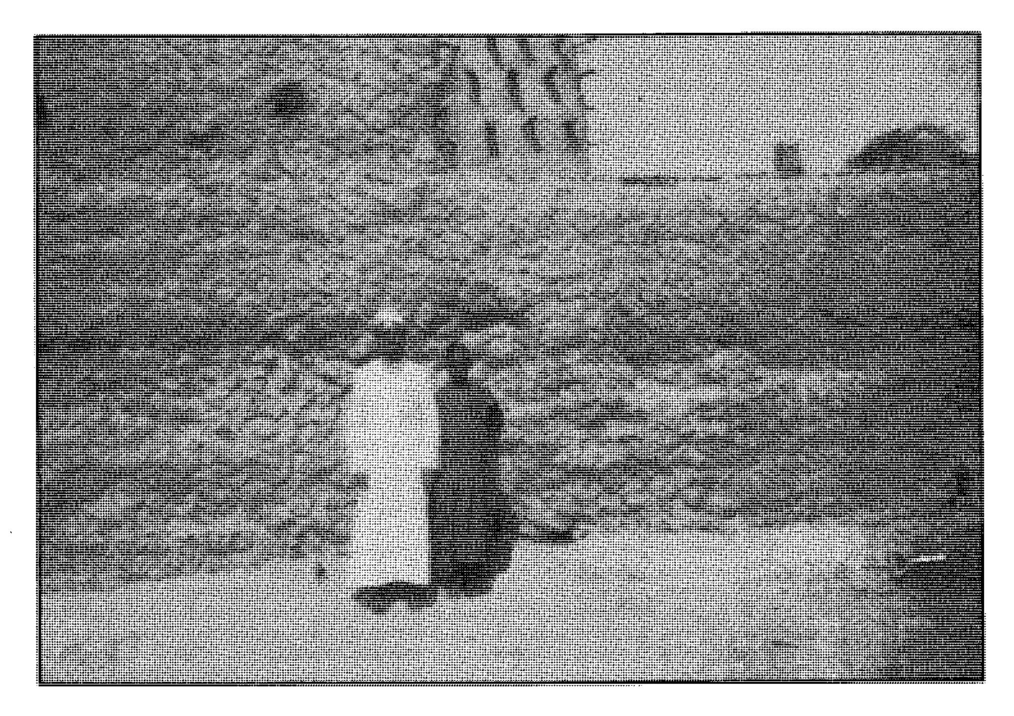
السمر في الشوارع :



عربي مع بعيره في تنبكتو

بعد جلسة ممتعة فوق كثيب تنبكتو سبقتها صلاة المغرب والعشاء جمعًا أنهينا جلسة في شؤون تنبكتو وشجونها التي لا تنتهي وقفلنا راجعين إلى الفندق وقد مضى على غروب الشمس ساعة ونصف فرأينا الأهالي قد اجتمعوا جالسين على هيئة حلقات أو مجموعات صغيرة تضم الرجال والنساء والأطفال في وسط الشوارع المظلمة أو في أطرافها اخبرنا إخواننا أنهم يقضون وقتًا من أول الليل في أسمار يقص فيها كبارهم على صغارهم ما يكون من أخبارهم،

وبعضـها يتنـاول فيها الجـديد من أخبـار العالم الخـارجي البعـيد ما كان مـنها مفيداً وما كان غير مفيد.



فتى عربي في تنبكتو (لاحظ ملابسه)

وتمنيت لو كان لي من الوقت والمعرفة بلغاتهم ما يمكنني من الاستماع إلى أسمـارهم لأن ذلك قد يـدل على مشـاعرهم واسـرارهم، وقد يسـتفاد منـه في معرفة آدابهم وأشعارهم.

وكان لـي نصـيب من الاسـتفـادة من حديـث الأخويـن الكريمـين الدكـتور محمود عبده الزبير والسفير عبدالـوهاب الدكوري في جلسة عشاء في فندقنا فندق ازالية (القـافلة) وقد ابطأوا في إعداده فكان في ذلـك زيادة في الاستفادة ولله الحمد.

الأمن في تنبكتو :

لمناسبة جلوس الناس مجتمعين أو متفرقين في شوارع تنبكتو حتى ليعتقد المرء أن البيوت أو بعضها خالية منهم سألت الأخ الدكتور الزبير عن الأمن في المدينة فقال بلسان الخبير الذي قضى شطراً من حياته في هذه المدينة ما سبق أن سمعته من غيره وهو أن الأمن فيها مستتب والسرقات لا تكاد توجد واللصوص لا وجود لديهم فيها إلا في الحكايات والأخبار.

يوم الخميس: ١٤٠٢/١٢/١٣هـ ٣١ سبتمبر ١٩٨٢م.

صباح تنبكتو :

بعد ليل (تنبكتي) حافل بالأحلام التي لا يسهل وصفها في كلام ولكن يمكن صاحبها أن يصفها بأنها أضغاث أحلام، وأن يقول إنها تدل على السرور بالحضور إلى مدينة التاريخ العريق وبالسرور العميق لاستجلاء هذه المنطقة التي كانت في الماضي ذات بعد سحيق تنفس الصبح الصحراوي التنبكتي بنفس رقيق، هو النسيم العليل غير البليل. فكان ذلك سروراً على سرور.

وكان صباح (تنبكتو) عربي الكلمات أعجمي اللمحات تمثل في وجه أسود من سود هذه البلاد ولكنه يعرب بلسان عربي مبين كأنه من بلاد عربية أوسطية بل هو أفصح منهم بكثير. فسألته عن أمره وخبره فقال:

أما الأمر فأنا عبد من عبيد العرب ولدت فيهم، وترعرعت بينهم لذلك أعرف من لغتهم مثل ما يعرفون فقلت له: من أي العرب هم؟ فاستنكر مني هذا السؤال وقال: العرب (معروفين) قلت: من أي قبيلة؟ قال: من القوانين.

وخشيت أن أقول له: ومن هم القوانين، إنني لم اسمع بهم من قبل فيتكدر صفوه، وربما هرب من وجه هذا الرجل الأبيض الذي ينكر المعرفة بأسياده فقلت له: والواحد منهم ماذا يقولون له: فقال يقولون له: (قوناني).

وعرفت أنهم مثل الأعراب من بني قومنا لا يسيرون في نسبة الواحد إلى قبيلته على قاعدة معينة وقد ذكرت ذلك في كتاب معجم بلاد القصيم، عند الكلام على القبائل العربية التي تسكن القصيم في الوقت الحاضر.

وعندما سكت قليلاً وكان الرجل أو لنقل: المولى، كان لا يزال واقفًا ينتظر شيئًا قد انسيته فقد كان يتوقع مني وقد سألته عن مواليه أن أسأله عن نفسه ولكني لم أفعل لأن ذلك ليس من الأهمية عندي بشيء غير أنه هو نفسه لم ينس ذلك فقال:

أما خبري أنا فأنا عامل فراش بالفندق هذا ومهمتي أحرس بالليل وأسقي الحشيش أول النهار.

وكنت أرى في هذا الصباح أكثر مما رأيت بالأمس من حرابي -جمع حرباءة- أو وزغ ضخم جداً كانت تمشي على أرصفة الفناء الخارجي للفندق وتتسلق حيطانه فكدت أسأله عن أمرها ولكنني أقصرت عن ذلك لئلا يقصر ذهنه عن إدراك الغاية من هذا السؤال.

وتذكرت أنني رأيت أمثال هذه الحرابي الضخمة في شمال نيجيريا وبخاصة في كانو وكادونا وتساءلت بعد ذلك عن طيور الصحراء الجارحة الجائعة لما لا تأكلها؟

الشاي الرائب :

كنت صحوت مبكراً وكان في الوقت بقية قبل أن نبدأ برنامج هذا الصباح فصرت أتمشى في فناء الفندق. وقد نظر إليَّ كلب أليف كان قد استوحشني في أول مرة حتى خفت على ثيابي منه ذلك لكونه رآني وحدي أمس. أما في هذا الصباح فقد أخذ ينظر إليَّ نظرات فيها من عدم المبالاة أكثر مما فيها من الصداقة أو المعاداة.

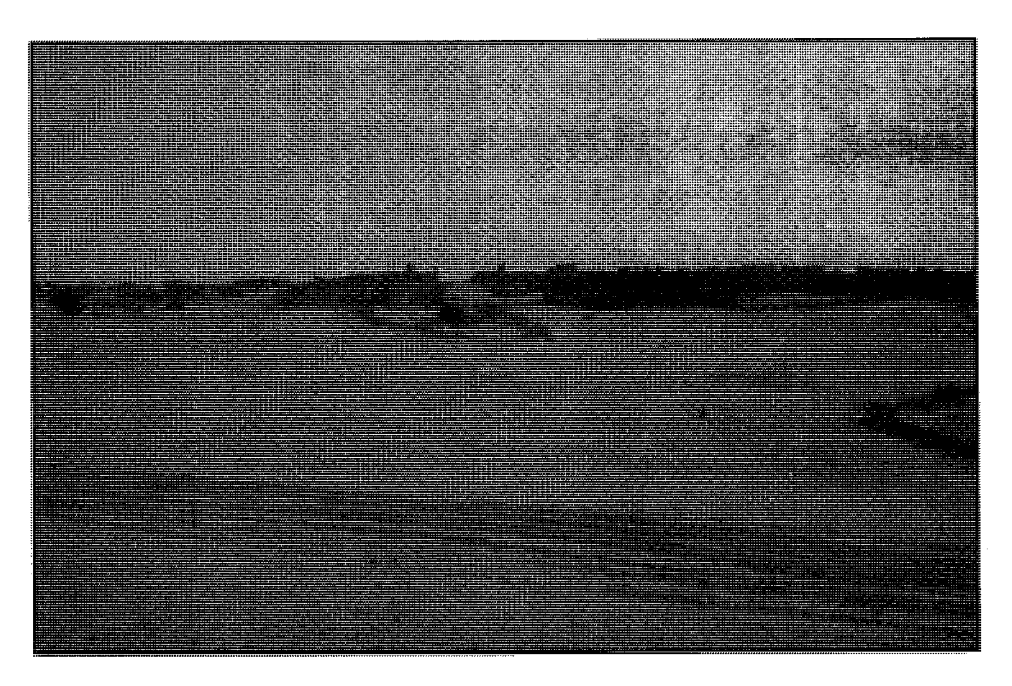
وتمشيت في حديقة الفندق الأمامية التي أكثر ما فيها حشائش صحراوية غريبة حتى رأيت بواب الفندق خارج غرفته من البوابة وهو أبيض اللون ومعه بُني له فسلمت عليه وقلت له: أتعرف العربية؟ وذلك أنه كالعرب تماماً فأجاب: نعم، فقلت له: أنت إذاً من عرب هذه المنطقة؟

فقال: لا، أنا من الطوارق تعلمت العربية من العرب في تنبكتو، وكان يحدثني بعربية صحيحة تشبه لهجة الموريتانيين التي نعرفها منهم في بلادنا.

فتحدثت معه قليلاً وأنا واقف فقال: اجلس اسقيك الشاي ثم أخذ يعد الشاي في إبريق صغير.

فقلت له: سوف أجول حول الفندق وأعود إليك.

فسرت قليلاً خارج الفندق في ضاحية من ضواحي تنبكتو تكاد تكون خالية من المساكن إلا بيوتًا بعيدة مما يلي المدينة وقد بدت آثار الرياح السافية التي هبت أمس على الرمال ذات خطوط متعرجة وبدت على البعد شجيرات خضر مما ذكرني بمنظر قديم كان في صحرائنا العربية ومضى عليه الآن ما يزيد على أربعين سنة.



ضاحية في تنبكتو

ووصلت إلى آثار القناة التي كان شقها الأقدمون وجذبوا بها الماء من نهر النيجر إلى تنبكتو وهي أشبه بالمكان المنخفض المنقاد في الأرض وقد طمرتها

الرمال السافية وقلت في نفسي: لو أن حكومة مالي أرادت وصممت على إيصال الماء إلى تنبكتو من مياه نهر النيجر التي لا تبعد عنها إلا بتسعة كيلو مترات وبالوسائل القديمة من المساحي أي المجارف -جمع مجرفة- والزنابيل لاستطاعت ذلك بسهولة لأن المسافة قريبة والأرض لينة فأجبرت الأهالي على العمل في ذلك حتى يتم وذلك خير لكثير منهم من قضاء أوقاتهم على رمال الشارع أو ترابه في تنبكتو.

ثم عدت إلى الأخ الطارقي فسألته عن العرب والطوارق فقال: كلنا مسلمون ولا فرق بيننا يتزوج بعضنا من بعض.

وكان هذا الأخ الطارقي لا يزال كما ذكرته متلثماً بلثام على فمه مع أن الوقت مبكر والحركة النشطة لم تبدأ في الفندق بعد.

وكان قد فرغ من صنع الشاي فصبه في ابريق صغير يرفعه رفعاً شديداً بيده اليسرى ويتركه يتساقط في ذلك الفنجان الزجاجي الصغير فيحدث رغوة ارتفعت فوقه وناولني اياه وعليه مقدار كبير من رغوته وهي تشبه رغوة الحليب.

وكان شاياً أخضر مليئاً بالسكر ومغلياً عدة غليات بمعنى أنه يتركه يغلي أكثر من مرة ثم يحليه بالسكر. ويسكبه في الكأس.

وقلت له: هذا الشاي رايب أو كالحليب الذي عليه رغوته فقال: ياليتك جئتني في البر والله لا سقيك الحليب والرايب لكن هذي دكره، ما فيها حليب. فقلت له: ماهي الدكره؟ فقال: يعني قرية.

فشكرته وأعطيت بنَيَّه قطعة صغيرة من النقود كانت معي.

عود إلى سوق تنبكتو :

ذهبنا إلى سوق تنبكتو في هذا الصباح وذلك لأنه بقيت بقية من الوقت قبل إقلاع الطائرة واحببت الجولة في المدينة بصحبة الأخ الدكتور الزبير لأنه خبير بها ومعنا رفيقنا الشيخ الدكوري.



الكتابة بالعربية على أعلى واجهة حانوت التاجر العربي (يحيى بن قتم) بالخط السوداني في تنبكتو

فاسترعت انتباهي كتابة بالعربية على أحد الحوانيت بخط سوداني. والخط السوداني متفرع من الخط المغربي في الأصل ولكنه أصبح ذا شكل خاص مع العلم بأن الخط المغربي تفرع من الخط الكوفي الأصيل. وهو أقدم الخطوط العربية بعد ظهور الإسلام حافظ عليه إخواننا المغاربة وضيعناه نحن المشارقة إلى خطوط عربية أخرى.

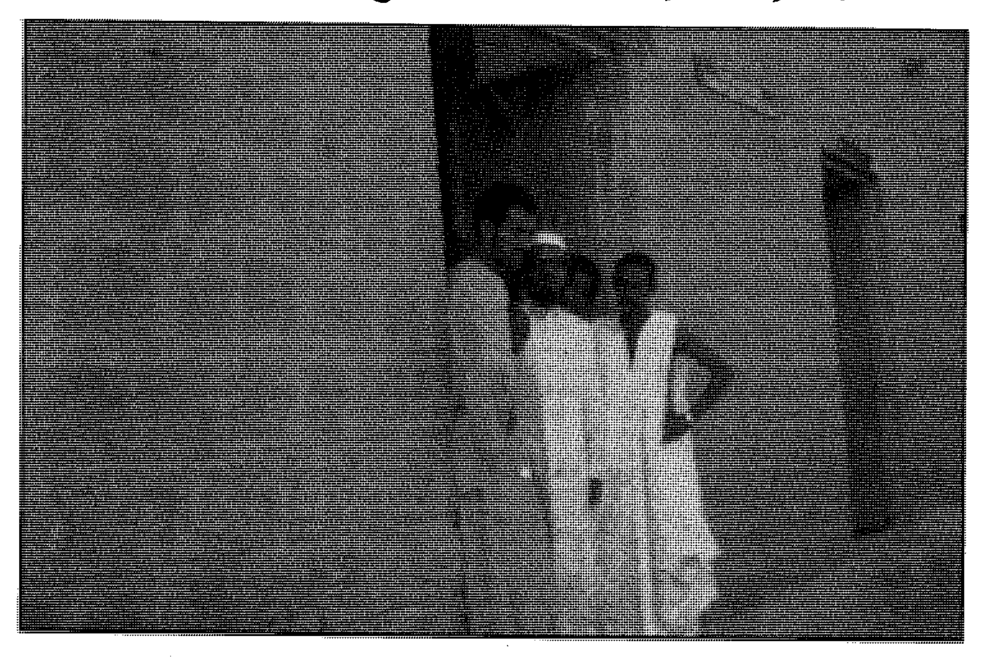
مثلما احتفظ اخواننا المغاربة بالأرقام العربية التي يسميها عوام الكتاب عندنا بالأرقام الإفرنجية مع أن الإفرنج يسمونها الأرقام العربية حتى الآن، واستعضنا عنها بالأرقام الهندية التي يحلو لغير المطلعين أن يسموها وحدها بالأرقام العربية.

والكتابة على الحانوت هي اسم صاحبه (يحي بن قثم) وقثم اسم عربي

أصيل وربما تذكر اسم قثم بن العباس ابن عم رسول الله ﷺ المدفون في سمرقند فهذه الكتابة التي أصلها كوفية عربية أصيلة والتسمية الأصيلة كل ذلك يشعرك بأن صاحب الحانوت عربي من المتمسكين بعروبتهم سواء أكان ذلك عن تصميم أو تقليد.

لذلك دخلت حانوته وسلمت عليه وسألته عن اسم والده (قثم) فقال هذا اسم مألوف عندنا نحن العرب.

فقلت له: أنت إذًا عربي؟ فقال: نعم، وعربي أصيل وعندي إثبات على ذلك ثم أسرع يخرج من حانوته ورقة اعطاني إياها وهو يقول: هذا هو نسبنا. فأردت إعادتها إليه بعد قراءتها فامتنع وقال: أبقوها عندك عندنا



عند متجر (يحيى بن قثم) في تنبكتو ويرى صاحبه على يمين المؤلف وعلى يساره أحد العرب من أهل تنبكتو

غيرها هذه كتبت قبل ثلثمائة سنة. والورقة مكتوبة بخط سوداني ذكر أنه الخط العربي وذكر أنها كتبت في بلدة (أروان) في الصحراء حيث كانت منازل أهله قبل تنبكتو.

ورأيت صبيانًا بيضًا يلعبون في الشارع قرب الحانوت: فسألته عنهم فقال، نعم هم عرب مثلنا فالتقطت صورة تذكارية معه ومعهم. وكلهم يتكلم العربية بلهجة ربما أسميها الصحراوية فهي قريبة جدًا من الحسانية التي هي لهجة الإخوة الموريتانيين.

وتأملت البضائع في حانوته فإذا هي قماش وصابون وبعض الأزر – جمع إزار– ذكر أنها من صنع هذه البلاد (مالي).

العرب والكور :

كنت وأنا صغير اسمع من والدي رحمه الله ومن غيره من الشيوخ كلمة أظنها ماتت الآن من بين ما مات من لغتنا العامية الدارجة وسجلتها في كتاب معجم الألفاظ العامية، كلمة (كور) بفتح الكاف وإسكان الواو ثم راء وهي وصف لمن لا يفهم لغبائه.

ولكني لم اسمع في بلادنا بلفظ الجمع لها.

إلا أنه من العجيب أن أجد جمعها هنا في هذه البلاد البعيدة خلف الصحراء الافريقية الواسعةوعلى لسان طائفة من الإخوة العرب.

إذْ رأيت جماعة من البيض وهم إما أن يكونوا من العرب أو من الطوارق ولا ثالث لهما من البيض، والبياض هنا نسبي فالذي يكون في لون عرب الجزيرة هو الأبيض ويبدو بياضه بالمقارنة مع سواد إخواننا السودانيين واضحًا. وأما بياض الأوروبيين أو العرب الشماليين كالسوريين أو اللبنانيين فإنه غير موجود.

وقفت عندهم وسألت أحدهم بعد السلام عن اسمه فقال: (محمد الأمين ابن ناجم) وهم يسهلون همزة الامين حتى تكاد تصبح (لامين) فقلت له: أعربي إنت أم طارقي؟

فقال: عربي من أولاد إدريس. فقلت له: إلى أي القبائل يرجع أولاد ادريس فقال: إلى البرابيش.

والبرابيش من الأصول الكبيرة للعرب الموجودين في (مالي) والنيجر ومنهم أولاد عمران وأولاد عيش وأولاد سليمان والرقّان -واحدهم رقيق- وكنتا والوسرة وترمز وغيرهم وينتسبون إلى حسان: جد القبائل الحسانية. لا يزوجون غير العرب الا كنتا لكونهم مشايخ يتزوجون من القبائل الأخرى. وسألته في حديث بيني وبينه عن الطوارق والعرب والسودانيين هنا؟ فقال: أكثر الناس هنا (كوار) فقلت ماهو (كوار)؟ فقال (الاكوار) يعني كوري يعني من السودان وذكرت تلك الكلمة التي كنت أعرفها في القديم في بلادنا وقد ماتت الآن.

ولكنني قلت له: هؤلاء السودانيون أخوة لنا وهم مسلمون وكان منهم ملوك كبار في القديم.

فقال: حق والله أنا ما أقول فيهم شيء لكن أنا أقول إنهم اكوار، يعني ما يفهمون كلامنا لهم كلامهم، لغتهم غير لغتنا.

أقول: رأيت في معجم البلدان لياقوت الرومي قوله: (كُوَّار) إقليم من بلاد السودان جنوبي فزان افتتحه عقبة بن عامر عن آخره. ومن هنا يتبين أن كلمة (كوار) ليست هنا سبا وإنما للتعريف.

اللغات وتنبكتو :

لمناسبة الحديث عن اللغة، فإن الأغلبية من سكان تنبكتو هم من اخواننا السودانيين وربما صح التعبير بالقول بأنهم من إخواننا السودان. مع كراهيتي لهذا

اللفظ السودان الذي يشعر بالوصف بالسواد. فهو على صحة معناه ليس ضرورياً إنما السودانيون نسبة إلى جنسهم السوداني القديم الذي أقام الممالك وأحسن الإدارة وتمسك بالدين الإسلامي حتى عد سلطان السودان في مالي أحد سلاطين الإسلام العظام في العصور الوسيطة وسوف يأتي بيان ذلك في آخر الكتاب عندما ننقل النصوص عن الكتب العربية القديمة عن السودان والسودانيين.

وهؤلاء السودانيون في تنبكتو كلهم مسلمون دون استثناء وكان منهم أعداد من العلماء وطلبة العلم بعضهم لهم المؤلفات بالعربية في الفقه والأصول حتى في اللغة العربية ولذلك قل أن نجد منهم من لم يتعلم في المدرسة شيئًا من العربية إذا نماه بالاستماع إلى الدروس الدينية رسخ في ذهنه. وربما نما وزاد.

إضافة إلى العرب الأقحاح الموجودين في (تنبكتو) ولهم أحياء خاصة بهم كما سبق وبعضهم يقيمون بين السودانيين وإضافة أيضًا إلى الأخوة من الطوارق الذين وإن كانت لهم لغة خاصة بهم فإنهم يتعلمون العربية بل يكثرون من تعلمها حتى يحذقها بعضهم.

وهذه الأسباب مجتمعة جعلت السائح العربي الذي لا يعرف إلا العربية -مثلاً- لا يلاقي أية صعوبة في تنبكتو في إفهام الناس ما يريد أن يفهموه منه. فهو لابد واجد عربيًا أو طارقيًا أو سودانيًا يعرف العربية، وإذا فرض أنه لم يجد واحدًا من هؤلاء فإن من يكلمه يجد ذلك فجيرانه أو حتى من يمرون به في الطريق فيهم من يتكلم العربية.

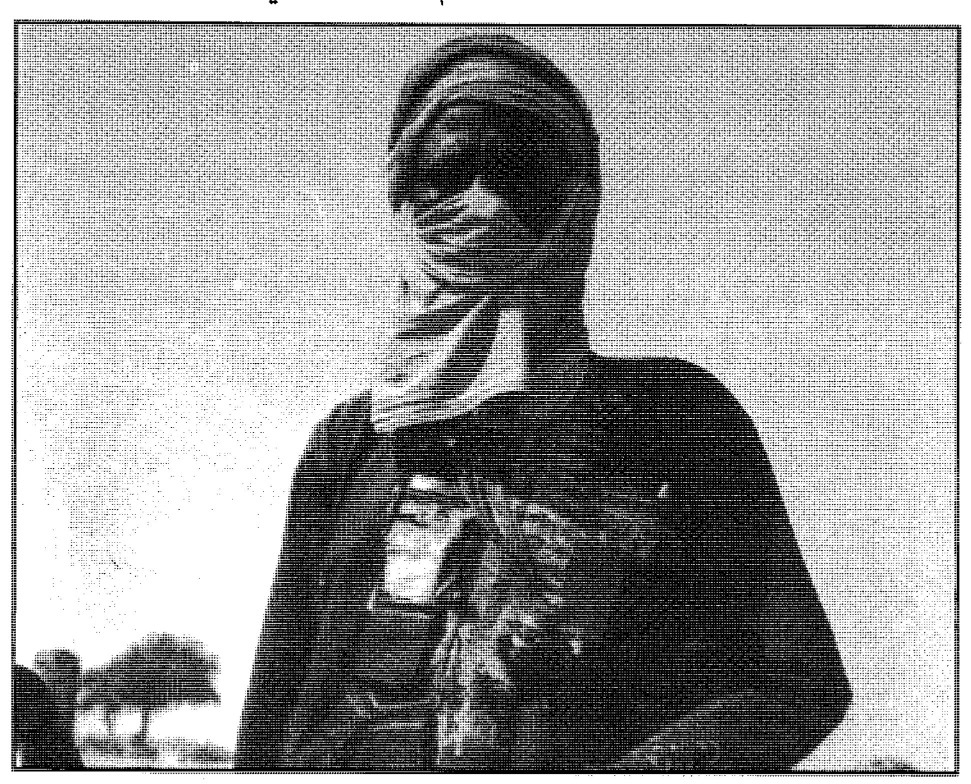
ومع ذلك يصح القول بأن اللغة العربية هي في انحدار في تنبكتو في الوقت الحاضر نظرًا لتناقص أعداد العرب فيها إذْ هاجرت أعداد منهم بعد الاستقلال إلى الدول العربية المجاورة مثل موريتانيا والجزائر وليبيا.

والطوارق قلت حماستـهم التي كانت سائدة فيهم لتعلـم العربية، وإن كانت لا تزال موجـودة، والسودانيـون قلت مدارسـهم الدينـية التي تـقوم على الـلغة العربية وإن كان يوجد بعضها.

والحواجز الجديـدة من جمركية ومرورية بـين البلدان العربيـة وبلادهم قد حدت من تنقلهم الذي يثمر احتكاكهم بالعالم العربي.

ولم يبق مـن ذلك نامياً مستمراً إلا ذهـاب الطلاب منهم على مـنح دراسية تقدمـها لهم بعض الـبلدان العربيـة كالمملكـة العربية السـعودية ومصر وليـبيا والمغرب.

لذلك ضعف شأن العـربية وشأن العلوم الإسلامية في هذه المـدينة المسلمة



رجل في تنبكتو عليه الأحجبة

العريقة بعد أن كانت تعتبر في القديم إحدى الحواضر العربية الإسلامية التي تعج بالعلماء وطلبة العلم وكانت العربية هي اللغة الراقية لغة العلوم والآداب. بل هي لغة الكتابة بعامة عندهم.

والعلاج؟

العلاج يكمن في أن تسارع الدول العربية ممثلة في الجامعة العربية، أو في احدى دولها بإنشاء معهد لتعليم العربية وآدابها في تنبكتو يوفر للملتحقين به ما يعينهم على التفرغ للدراسة ويعمل على إعادة المجد الذي كان للعربية في هذه المدينة المسلمة، أو على الأقل يحافظ على ما تبقى منه عن الضياع.

وذكر لي عدد من الإخوة المطلعين هنا أن اللغات التي يتكلم بها الناس الآن في تنبكتو هي على الترتيب: السنغية فالطارقية فالعربية، ولكنك تجد من القسمين الأول والثاني من يعرف شيئًا من العربية تعلمه من مخالطة العرب في تنبكتو أو من المدارس الإسلامية كما سبق وهذا الأمر خاص بمدينة تنبكتو. وإلا فإن اللغات المذكورة يختلف ترتيبها بالنسبة إلى جميع مالي، إذْ فيها لغات عديدة يمكن ترتيب الرئسية منها على الوجه التالي: البامبرا. السيراقولي. الفلاتي. البوبو - في جنوب البلاد-.

قالوا: إنني روسي:

واصلنا تجولنا في سوق تنبكتو وهو مجموعة أسواق في بعضها حوانيت غير متلاصقة وفي بعض الأماكن تجد حوانيت متجاورة ثم تجد فراغًا بعدها.

وأهم ذلك ميدان ترابي عليه عدد من الحوانيت بعضها مبني بالطين وبعضها بالحجر الجيري الغريب الذي قال لي بعضهم: إنه لا يوجد بهذه الصفة إلا في تنبكتو وهو يشبه الحجر الجصي قبل حرقه، إلا أنه ليس فيه

جص وإنما هو رمل فهو كالحجر المسمى بالحجر الرملي.

وبعض الحوانيت مغلق بسبب عطلة العيد، وبعضها مفتوح.

فكان من الأشياء الملفتة للنظر أنني وجدت بائعًا متجولاً معه أشياء يظهر عليها القدم منها رماح وخناجر وجعاب سهام وهي الأوعية من الجلد التي كانت توضع فيها السهام قبل اختراع البنادق، فسألت عن ثمن الرمح فقال بخمسة عشر ألف فرنك، فهمس أحد المرافقين في أذني يخبرني بأن هؤلاء يستغلون السياح ويرفعون أثمان ما معهم في المرة الأولى.

فقلت له: لا، بل بخمسة آلاف وبعد مساومة رضي بأن يبيع الرمح عليَّ بخمسة آلاف فرنك بعد أن كان قد طلب ثمنًا له خمسة عشر ألف فرنك.

وكان الشيخ الدكوري بعيدًا عني إذْ كان بجانبي الدكتور محمود الزبير فظنوه وحده فتكلم البائع مع صاحب له معه مثل مامعه قائلاً: هذا ليس أمريكيًا، وإنما هو روسي لأنه لو كان أمريكيًا أخذه بخمسة عشر ألف. لكن الروس هم الذين يشددون على النقود.

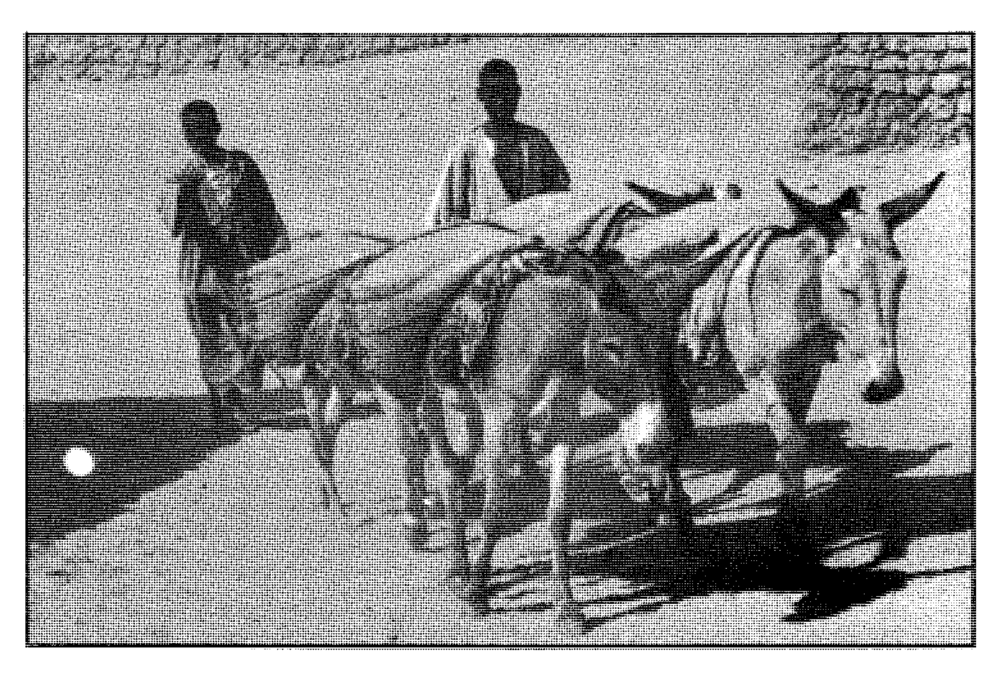
هكذا سمعهم الشيخ الدكوري يتكلمون بلغتهم التي يفهمها.

وقد أخبرني بذلك، فقلت له العرب يقولون في أمثالهم القديمة (المغبون لا محمود ولا مأجور) ولا أريد أن أكون كذلك.

وكانوا اعتادوا على رؤية الخبراء من الروس الذين يأتون إلى مالي وبخاصة إبان حكم الرئيس السابق (موديبو كيتا).

ثم اشتريت منه ومن غيره خنجرًا غريبًا من المنطقة وجعبة جلدية طارقية.

ورأيت في السوق امرأة من السنغي وهم السودانيون من أهل البلاد

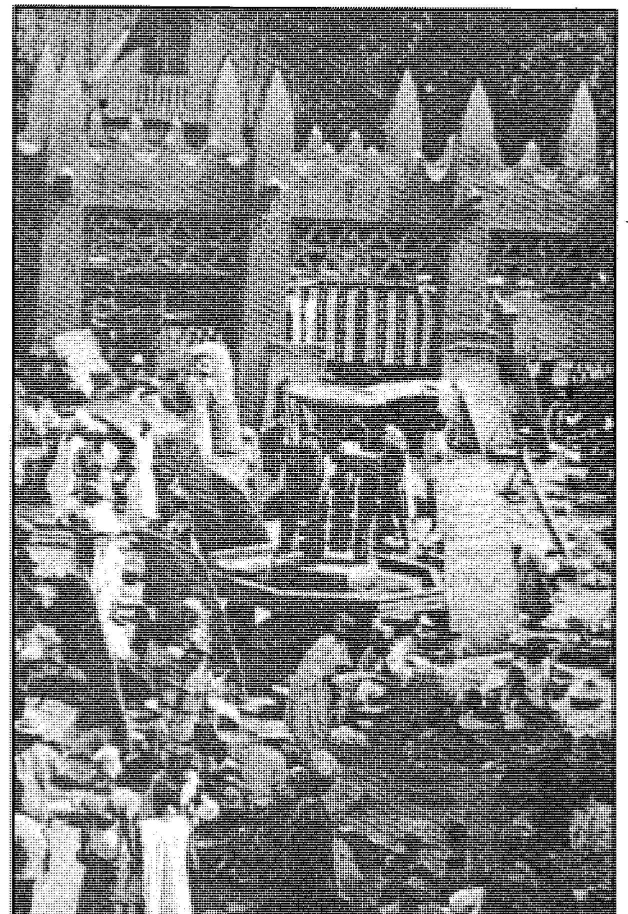


الحمير وسيلة نقل في تنبكتو

فاسترعى انتباهي كثرة الأحجبة جمع حجاب المعلقة على حقوها فسألها الشيخ الدكوري عن ديانتها فقالت مسلمة، واسمي (نيا أبوبكر).

وتعليق الأحجبة والتعاويذ على الرجال والنساء أمر شائع في هذه البلاد وأحيانًا يكون بكثرة ملفتة للنظر حتى إن بعض الرجال يعلق حجابًا وهو التميمة على صدره وآخر في عضده الخ. ولاحظت من أمرهم عجبًا وهو أنهم يجلسون في السوق حلقا في وسطه وعلى التراب إلا أنه رمل لا يعلق بالملابس كثيرًا، وهم يتحدثون وكأنما لا يشغل بالهم شيء. وربما كان هذا بسبب عطلة العيد إلا أن بعض المقيمين هنا قال: إن التحلق أي الجلوس على هيئة حلقة أو التكوم أي جلوس الناس بعضهم إلى بعض كيفما اتفق هو أمر شائع في هذه البلاد.

حتى التكويع وهو أن يمد المرء جسمه وكأنه يريد أن ينام على جنبه إلا أنه



سوق باماكو

ينصب كوعه أي مرفقه على الأرض ويضع رأسه على يده فيصبح بين المستلقي والجالس.

ويسمون هذه التكويعة وهي جلسة معروفة بل شائعة في هذا الغرب الإفريقي العريق.

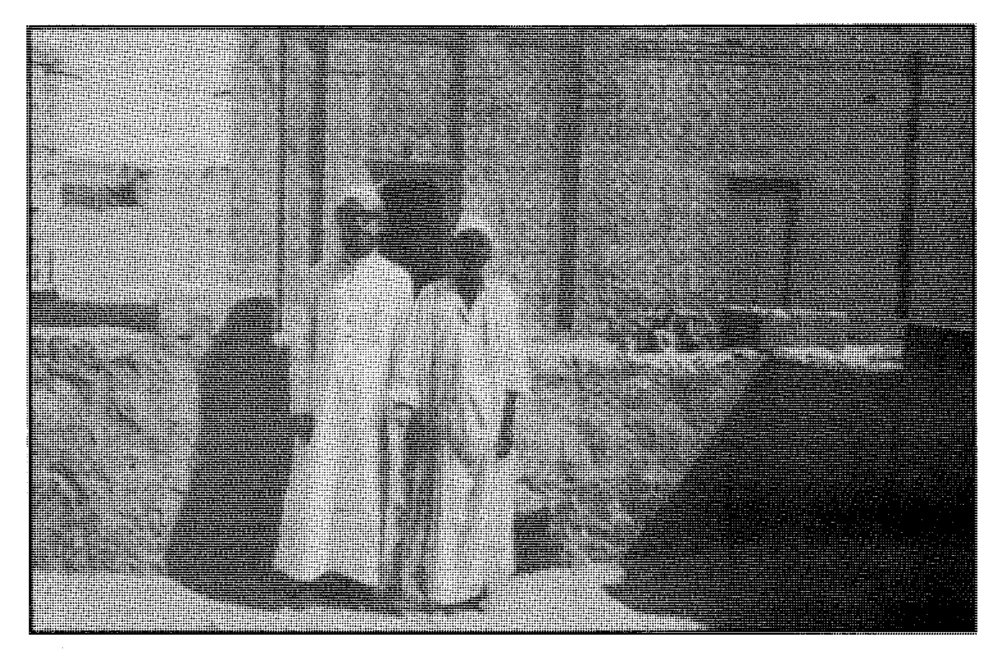
عود إلى مسجد السيد يحيى:

وعدنا ومعنا الأخ الدكتور محمود الزبير إلى المسجد القديم ويسمونه (مسجد سيدي يحيى) وذلك لمحاولة رؤية المسجد من الداخل لأنه كان مغلقاً بالأمس فوجدنا المؤذن في المسجد واسمه (محمد قدو) ومعه شخص آخر هو القيم على المسجد.

فرأينا المسجد قديم البناء قديم الطراز على الطراز السوداني الأصيل وهو أن يكون ذا أعمدة غليظة مسقوفاً بخشب الدوم الأنيق الذي قد شذب وهذب حتى صار جميل المنظر، وفوق خشب الدوم أغصان من أغصان الأشجار وهي تمنع سقوط الطين الذي يوضع فوقها وقد صفوها هنا كما كنا

نضع الجريد في بلادنا عندما كنا نبني بيوتنا من الطين.

وأبواب المسجد من خشب جميل منقوش وقد أكثروا فيها من العوارض



في الزاوية أو الخلوة بجانب مسجد سيدي يحيى مع المؤذن محمد قدو

التي ثبتوها بمسامير حديدية قوية لحماية الأبواب من التشقق أو التمدد بسبب البرد أو الجفاف.

زوايا تنبكتو :

وعدنا أيضًا إلى الحديث عن الزوايا لمناسبة رؤية زاوية بجانب هذا المسجد، وهي محاطة ببناء يعلو إلى صدر الرجل وغير مسقوفة وهي أشبه ما تكون بالمدرسة التي يتلى فيها القرآن الكريم، وتدرس فيها العلوم الإسلامية من الحديث والتفسير والفقه وحتى الذكر الصوفي، وليس لها محراب لأنها ليست معدة للصلاة فالصلاة تكون في داخل المسجد، وإنما

جعلوها هكذا لكي يجلس فيها من لا يكون على وضوء. ومن أجل اجتذاب من يمر بها من العامةلحضور مجالس الذكر لأنها تكون مكشوفة للنظر واضحة للمارة.

وفي تنبكتو عدة زوايا بجانب المساجد وهي الخلاوي - جمع خلوة -.

وهذه فكرة حسنة لأننا كنا نلاحظ في بلادنا عندما كانت الدروس الدينية في المساجد، أنه لا يدخلها إلا من كان على وضوء وعلى استعداد لأداء تحية المسجد ركعتين.

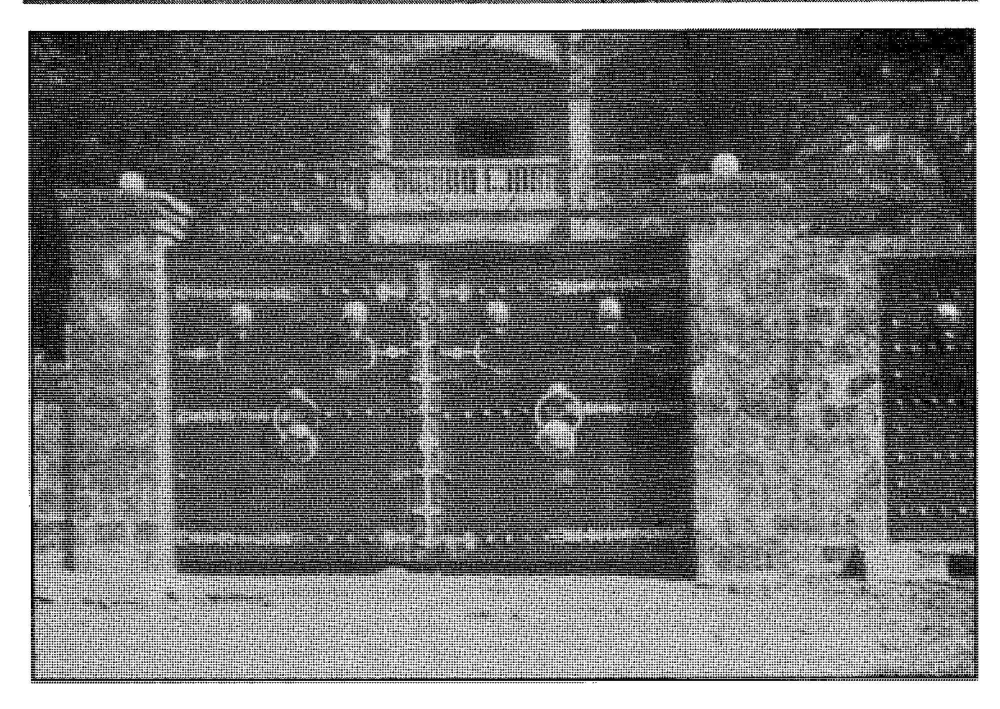
والعود لنصب الاستقلال :

ذهبنا من مسجد (سيدي يحيى) قاصدين نصب الاستقلال من أجل إعادة النظر فيه وقراءة الكتابة العربية فوقه التي كتبت بطريقة غير معتادة لا يستطيع قراءتها إلا خبير بالخطوط رغم كونها بالعربية.

ومررنا ببيوت طينية مشابهة تماماً للبيوت الطينية التي كانت تبنى في بلادنا قبل التطور الاقتصادي الأخير مع كونها أنيقة المنظر معتنى بها في الأصل وتتألف من طابقين وقرأنا العبارة العربية المكتوبة على نصب الاستقلال ونصها: هذا ذكرى لجريح من مات في سبيل حياة مالي، والمراد بجريح هنا (ضريح) أي ذكرى وفاة من مات في سبيل مالي.

هكذا قال لنا إخواننا المرافقون ومنهم المؤرخ القدير الدكتور (محمود الزبير) وفوق النصب تمثال الفارس الأبيض الذي يمتطي حصاناً مجنحاً.

ثم مررنا بباب القصر الذي يقيم فيه حاكم تنبكتو وكنت رأيته بالأمس ولكنني لم أتمكن من تصوير بابه الذي اعجبني وكان من الملفت للنظر فيه أنهم كتبوا عليه بالعربية بخط كوفي وبحروف من حديد كلمة (سلام) على جانبيه لأن الباب مؤلف من جزئين.



مدخل فناء مقر الحاكم العام في تنبكتو

شوارع تنبكتو :

لم أمل من رؤية شوارع مدينة تنبكتو العريقة فهي عجيبة لأنها أولاً من المدن النادرة الباقية في هذا العصر قد أدبرت بعد إقبال وقل عدد سكانها بعد كثرة. وصارت الأبنية الحديثة من الطين فيها أسوأ كثيراً من الأبنية القديمة مما يعطي دليلاً واضحاً على أنها الآن تعيش حالة من التأخر بالنسبة لما كانت عليه في القديم.

ومن ذلك أن البيوت الطينية القديمة قد جملوا ما يحيط بالأبواب والنوافذ العليا من الحجارة المنقوشة وكذلك زوايا الحيطان. أما البيوت الطينية الحديثة فإنها تخلو من ذلك إضافة إلى نفاسة الأبواب الخشبية القديمة وقربها في الشكل من شكل الأبواب في البيوت العربية الاندلسية مما يدل على أن

القائمين عليها أو الصانعين لها كانوا من المغاربة أو من المتأثرين بالفن المغربي في البناء.

ومن المناظر التي لا تدل على الحداثة في المدينة منظر نساء قد اجتمعن في الشارع على مهراس وهن يهرسن ما فيه غير مباليات بالمارة. وشيوخ مسنين قد استندوا إلى أصول الحيطان في الظل. ولا عمل لهم إلا الانتقال من الظل إلى ظل مثله. وبنات صغيرات وأطفال يجلبون الماء بأوعية وأوان صغيرة يحملونها بأيديهم يجلبون الماء إلى بيوتهم من صنبور عند مسجد قريب.

مسجد من الطين في تنبكتو

ورأينا منظر طريف يعد طريف وهو منظر ضابط من الطوارق وعليه الملابس العسكرية المعتادة ماعدا غطاء الرأس فهو قد لبس عمامة بلثام وضعه على فمه محافظة على عادة الطوارق في وضع اللثام على الفم.

وذكروا لنا أن الجنود يلبسون اللباس العسكري المعتاد ولا يجيزون لهم وهم كذلك أي يتلثموا بخلاف الضابط.

علـى أن الإخوة مـن أهل الـبلاد ذكـروا أن هذه لـيسـت قاعـدة عامـة فقـد يقتصر الضباط من الطوارق على اللباس العسكري دون لثام.

وانطلقنا ونحن في عجلة من امرنا حذراً من أن نتأخر عن الطائرة مع أنها قدمت مـن أجلنا ولانـخـشى من فوتـها ولكننـا لا نريد أن تتأخـر من أجلنـا فقد يكون لـها عمل بـعد رحلتـنا يتأثـر إذا تأخرنا فـمررنا بسـوق يسمونـه السوق الصغير وهو ميدان صغير بالفعل على نصفه حوانيت لا بأس بمظهرها.

وبالقرب منه مكتب تفتيش التعليم الابتدائي.

ثم قصـدنا حي البراز الـذي هو حي العرب من أجـل تصوير مسـجده وهو ذو منـارة مستـديرة حديـثة وليسـت على هـيئة الـصوامع الـتي هي المـنارات المربعة المأخوذة من الطراز الأندلسي في الـبناء ومع ذلك فيها بقايا الأخشاب التي تـترك في المنارات والأبـنية السودانيـة الشامخة وفـوقها شعار المسـلمين وهو الهلال والنجمة في وسطه.

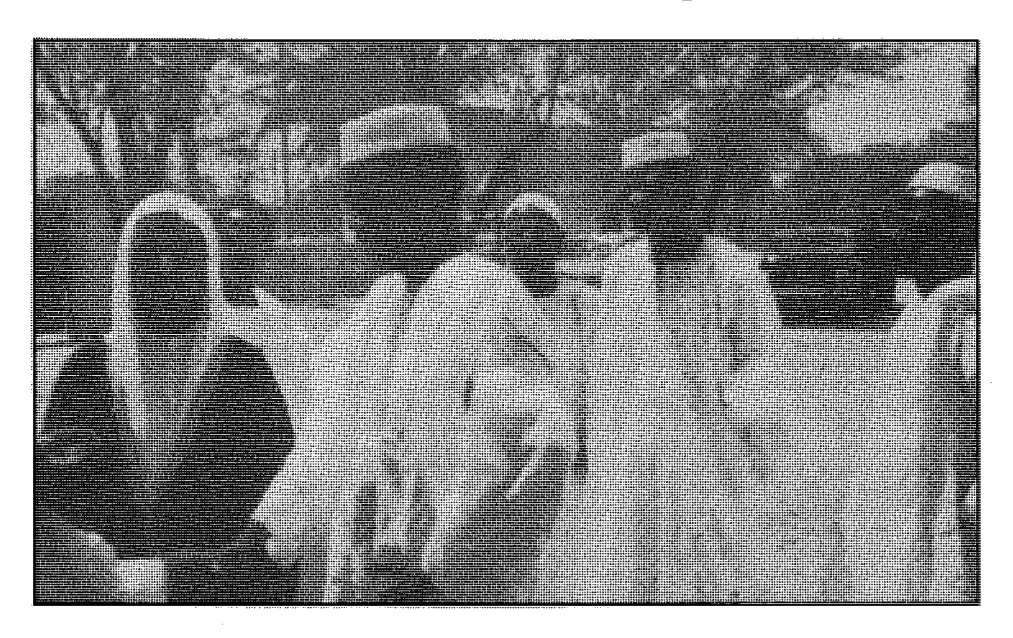
وقيـل لنا الـيوم إن كـثيراً مـن سكان هـذا الحي يعـتبـرون من الأثريـاء في تـنبكتـو رغم مـظهر الحـي الذي لا يوحـي بذلـك لكون بـيوته مـبنـية بالـطين وذكروا أنهم يتاجرون بالمواشي وغيرها.

ثم التـقينا في الحي بـشخص عربي اسـمه (محمد ولد سـيدي حَنَّان) وقال إنه من عرب الـطرشان -جمع أطرش- يـتكلم بالعـربية وذكر لنا أنـه رئيس في حي البراز الغربي.

الوداع يا تنبكتو :

قصدنا مكتـب الحاكم العام الأخ (الامين دامبلي) وهو من جـماعة (بامبرا المعروفة في مالي). فشكرناه على ضيافته وعنايته بنا وما وفره لنا من وسائل

الإطلاع على المدينة وضاحيتها. ورجوناه ألا يخرج إلى المطار لتوديعنا عندما طلب مني ذلك لأن الوقت هو وقت عمل ونحن نعتبر أنفسنا أخوة لأهل هذه البلاد لا داعي للتكلف فيما بيننا.



عند الوداع في حديقة مقر الحاكم في تنبكتو

وخرجنا إلى المطار فتكررت رؤية أشجار الطلح الضخمة التي قاومت المحل والجدب، وحماها قربها من الطريق من القطع للوقود.

ولكن قبل الوداع :

ولكن قبل وداع تنبكتو نحب أن نجهر بكلمة أشرنا إليها إشارة سابقة وهي أن تنبكتو الآن في حالة انحدار، إن لم نقل في حالة احتضار بعد أن كانت في حالة إزدهار.

وكانت موئلا لطلاب العلوم العربية الإسلامية بل كانت مركز إشعاع

فكري إسلامي تعدى حدودها إلى أركان هذه المنطقة السودانية العريقة.

ولذلك نقول: إن العالم العربي بصفة خاصة مدعو لانقاذ تنبكتو ومكافأتها على ماضيها الثقافي العربي العريق.

وذلك بإنشاء المعهد العربي فيها وأن يضمن للمتأهلين من خريجيه مواصلة دراساتهم في الجامعات والمعاهد العربية الإسلامية في أنحاء الوطن العربي وبخاصة في المملكة المغربية والمملكة العربية السعودية ومصر.

وعلى أن يكون ذلك بمثابة البداية لعمل جدي جاد مستمر لإعادة المجد العربي الثقافي لهذه المدينة.

وأمر مهم آخر وهو أن تقوم الدول العربية مجتمعة أو أن يقوم بعضها متضامنة بالعمل على مد قناة كبيرة من مياه نهر النيجر إلى منطقة تنبكتو يخصص فرع منها لإرواء المدينة بالمياه العذبة النقية وادخالها إلى بيوتها.

وتستعمل بقية مياهها في الزراعة حول تنبكتو.

ويكون ذلك تمهيداً لمشروعات زراعية أخرى تعتمد على مياه النيجر وتزرع المنطقة كلها بعد مد شبكات من القنوات المائية تحت إشراف خبراء زراعيين من العرب.

وأمر مهم ثالث وهو كسر طوق العزلة المحيط بتنبكتو ذلك الطوق الذي استحكم حولها منذ أن أضمحل سلطان القوافل التي كانت تنقل الملح من الصحراء إلى تنبكتو فتعيد تصديره إلى إفريقية الاستوائية جنوب نهر النيجر. واضمحل معه السلطان التجاري لتنبكتو التي كانت مقراً لتجارة بيع الرقيق والمتاجرة بالعاج والذهب.

وقد ساء حظها عندما تركتها وسائل المواصلات جانباً فالخط الأسفلتي الذي بدا من باماكو وتقرر أن يمر بها ثم بقاو ثم يمر بنيامي عاصمة النيجر وينطلق منها إلى أغاديس في الصحراء ومنها يخترق الصحراء حتى يقف في مدينة الجزائر.

ذلك الخط قد اكتمل مده إلى مسافات بعيدة ولكنه وقف دون تنبكتو. ومطارها صغير وهو محلي لا تنزل فيه إلا خطوط مالي الصغيرة غير المنتظمة والملاحة النهرية البعيدة المدى فوق نهر النيجر قد عفا عليها الزمن.

لذلك لابد من العمل العاجل على مد الخط الإسفلتي وبخاصة الجزء المتبقي منه الذي يصل تنبكتو بالخط المنطلق من باماكو وبالخط الذي يذهب إلى نيامي.

ولابد للنهوض بتنبكتو أيضاً من خط ينطلق منها جنوب النهر حتى يصل إلى فولتا العليا ويتفرع منه فرع آخر ليصل إلى (بنين الشعبية).

وهناك عمل مهم جداً وهو إنشاء مطار دولي في تنبكتو لكي تكون محطة دولية للاتصالات الدولية الجوية في هذه المنطقة على أن يزود هذا المطار بما تحتاج إليه المطارات المدنية الحديثة من آلات ومعدات ومن موظفين ذوي خبرة في إدارة المطارات، وكل ذلك أمر متيسر لأهل البلدان العربية إذا أرادوه وعزموا عليه.

مغادرة تنبكتو :

قامت الطائرة التي نستقلها في الساعة الحادية عشرة والربع قبل الظهر وجميع مقاعدها مشغولة بالراكبين الذين كانوا كلهم من أهل البلاد ماعداي.

وهي طائرة صغيرة ذات محركين مروحيين ربما كانت هي الطائرة التي قدمنا بها.

وأما الطيار فإنه هو الذي قدمنا معه اسمه (عبدالرحمن سيدي بي) وهو من الفلانيين ومساعده في هذا اليوم يدعى (عمر تال).

وعندما فارقت الطائرة منطقة تنبكتو رأينا قرية من الطين واقعة بجانب البحيرة التي تكونها مياه النيجر وقد أحاطت بها مياه البحيرة إلا من جانب ضيق وليس فيها وما حولها شجرة خضراء واحدة ورأينا بعدها مبدأ القناة القديمة الموجودة في هذه المنطقة وهي عامرة بمياه النهر الآتية من البحيرة إلا أنها رثة متهدمة الجوانب غير مستقيمة المجرى.

ولاحظنا أن بعض ضفافها عارية ليس عليها شيء من الزراعة، كما أن بعض مياهها تتبخر في سماء الصحراء ولكن المياه وفيرة تنتظر من يحسن استغلالها على الوجه المطلوب. وشاهدنا في هذه المنطقة مستنقعات من المياه اسميتها البطائح، لأنها مناقع ضخمة متفرقة خارجةمن مياه البحيرة، وبعضها متسرب من مياه هذه القناة وليس عليه إلا زراعة قليلة.

ثم وصلنا إلى منطقة أخرى من البطائح عليها زراعة جيدة وذلك بعد أن امضت الطائرةساعةإلا ربعاً من الطيران. وأغلب الحقول المزروعة فيها هي من الأرز.

النزول في موبتى :

وموبتى هذه هي التي كان مقرراً أن ننزل فيها عند قدومنا من باماكو إلى تنبكتو ولكن الطائرة لم تفعل وهي مدينة كبيرة فهي الثالثة من مدن مالي بعد العاصمة (باماكو) وسيقو وذلك من حيث عدد السكان.

ومنـذ أن بدأ الطـيار بالتـدني بطـائرته إلـى الأرض قليلاً وهـي تطيـر فوق منطقة زراعية جيدة تكسو الحقول الخضر فيها ضفاف النهر وما حولها.

وتجاوزنا والـطـائرة في تدنيـها تقصد (موبـتى) طريقًا رئيـسة غير مسفلتة وقرية صغيرة جميع بيوتها من الطين وفي وسطها مستنقع من الماء ربما كان مصنوعًا لاستفادة الأهـالي منه. وقرية أخرى بعدها أقرب إلى مـوبتي طينية البيوت أيضًا حولها بعض الأشجار النضرة.

ثم نزلت الطائرة نـزولاً سهلاً ميسرًا بعد أن أكملت ساعـة واحدة بالضبط من الـطيران مـا بين تـنبكـتو و(موبـتي) في مـطار ذي مدارج ازفـلتـية معـلم بعلامات بيـض وصفر وبدت (موبتي) قبـل النزول مباشرة بلدة خـصبة أكبر من تنبكتو وأخصب منها كثيرًا.

وكان المطـار واسعًا لا تصدق وأنـت فيه أنك فـي الساحل أو كـما يسمـونه ويقصدون بـه ساحل الصحراء لولا أن في جـانبه أشياء تذكرك بـالصحراء. منها أشجار من أشجار العشر الصحراوية غير المحببة ونخلة من نخيل التمر لا تثمر.

والملاحظ أن الجو فيه في هذه الساعة من وسـط النهار ليس فيه من سموم (تنبـكتو) الصـحـراوي أي أثر بخـلاف تنبكـتـو التي تكـون فيها الـريح في أول النهار نـسيمًا لا تلبث أن تتحـول إلى سموم في وسط النـهار، شأن الأراضي الصحراوية.

العودة إلى الطيران :

بعد لـبث قصيـر في مطار مـوبتي لم يزد عـلى ٣٥دقيقـة نهضت الـطائرة مواصلة طيرانها بـعد الثانية عشرة إلى باماكو. فمرت بـعد أن قطعت مسافة ٨٠ كيـلو مترًا فـوق منطقـة (حمد الـله) إحدى منـاطق (مالي) ذات الأمـجاد الإسلامية الباهرة التي تكثر في هذه البلاد.

فحمد الله كانت المدينة التي كان يحكمها (أحمد شيخو) ووزيره أحمدو بيلو من حكام الفلانيين. ولكن أحمد شيخو كان (ديمقراطيًا) فقد رأى كثرة العبيد وأراد أن يعالج موضوعهم بشيء يضمن التلاحم والإندماج بين أفراد الشعب من الفلانيين الذي كانوا الطبقة المتميزة وبين طائفة من العبيد الذين كانوا يعتبرون في مرتبة أقل من الناحية الاجتماعية فأوعز إلى الفلانيين أن يتزوجوا من الاماء اللائي في ملكهم ومن غيرهن من أفراد الطائفة وذلك لكي يجيء أولادهم حلقة وصل بين الطبقتين فكانت النتيجة أن حقق هذا الأمر نتيجتين محمودتين أولاهما: المودة والقرب بالمصاهرة والثانية: أن الإماء عتقن بمجرد أن أصبحن أمهات أولاد لأسيادهن وصار أولادهن حلقة الوصل المطلوبة ما بين الفلانيين والعبيد.

وكان أحمد شيخو هذا عالمًا مشجعًا للعلماء حتى قيل إن مجلسه كان يحضره في الغالب أربعون عالمًا من علماء البلاد.

وتجلت طبيعة هذه المنطقة عندما غادرت الطائرة مطار موبتي أرضًا ذات مياه وفيرة، ومزارع نضرة أكثرها ظهورًا للنظر حقول الأرز، وطيور بيض من طير الماء المسمى عندنا بالغرنوق.

ورأينا منظرًا جميلاً هو منظر قرية طينية البيوت تحيط بها مياه النهر، إلا من مخرج واحد قد أصلحوا أرضه بالطين اليابس وتقع على الضفة من نهر النيجر الذي نطير فوقه إذْ النهر هنا له شعبتان التقتا بعد أن أمضينا ثلث ساعة من الطيران بعد مغادرة موبتي.

وظلت حقول الأرز تساير الطائرة تحتنا لفترة من الطيران.

وذكر لنا أن هذه المنطقة تزرع الفول السوداني الذي ربما كانت نسبته في الأصل لهذه البلاد السودانية وليست للسودان العربي الذي يصح أن نسميه

هنا بالسودان الشرقي أو السودان العربي – بالعين المهملة – فالتسمية أقدم من اطلاق اسم السودان على السودان الشرقي التي هي تسمية حديثة بخلاف السودان الغربي هذا فإن تسميته قديمة بل عريقة في القدم في كتبنا العربية التاريخية وهي زاخرة بمعاني الأمجاد كما سيأتي ذكر طرف من ذلك في آخر الكتاب عند الكلام على السودان الغربي في كتبنا القديمة.

ولكن وجود الفول السوداني هنا وزراعته على ضفاف نهر النيجر العظيم وما ذكره ابن بطوطة رحمه الله من وجود أفراس النهر في النيجر وسماها خيل النهر وهي مرادفة للتسمية الشائعة الآن أفراس النهر مما جعله وغيره من المؤرخين العرب القدماء يعتقدون أن نهر النيجر هذا هو نهر النيل نفسه، ولذلك أسموه (نيل السودان) وأرادوا بالسودان هنا أهل هذه المنطقة في بلاد مالي وما جاورها فالتبس ذلك على بعض القارئين والمؤرخين الذين ليست لديهم خبرة بتاريخ البلاد، ولا بصيرة بتعبيرات المؤرخين أن يظنوا أن العرب كانوا يقصدون نيل مصر بحديثهم عن نيل السودان.

والأمر ليس كذلك هذا إذا لم يكن الأمر كما قدمت الإشارة إليه يرجع إلى كون مؤرخينا القدماء، أو بعضهم كانوا يسمون النهر العظيم بالنيل تشبيهاً بنيل مصر. والشاهد على ذلك ما قاله ابن سعيد المغربي. وهو يقصد ما يعرف الآن بنهر السنغال قال: ونيل غانة شقيق نيل السودان ويصب في البحر المحيط الأعظم.

فسمى النهرين الذين يعرفان الآن بنهر النيجر، وهو هذا الذي نطير فوقه الآن ونهر السنغال الواقع الآن على الحدود ما بين السنغال وموريتانيا (نيل غانة) وذلك لكون عاصمة غانة القديمة كانت تقع على ضفتيه كما وردت بذلك نصوص عربية متعددة قد تأتي الإشارة إليها في آخر الكتاب.

وتسميته بنهر السنغال تسميـة استعمارية حديثة لأن اطلاق اسم السنغال نفسـها كان عنـد قدوم المستـعمرين الأوروبيـين الأوائل إلى منـطقة السـنغال وكان هؤلاء من الـبرتغاليين وقـد ذكرت سبب التسمـية بالسنغـال في كتاب: «صلة الحديث عن افريقية».

وقد استمر الطيـران رخوا ممتعاً لا يعكره حتى مكبر الـصوت في الطائرة أو الهاتف الآلي في الطائرة فقد لاحظت وأنا قريب من الطيار أنه لم يتكلم مع أي مطار آخر إلا مع مطار (باماكو) عندما قربنا منه.

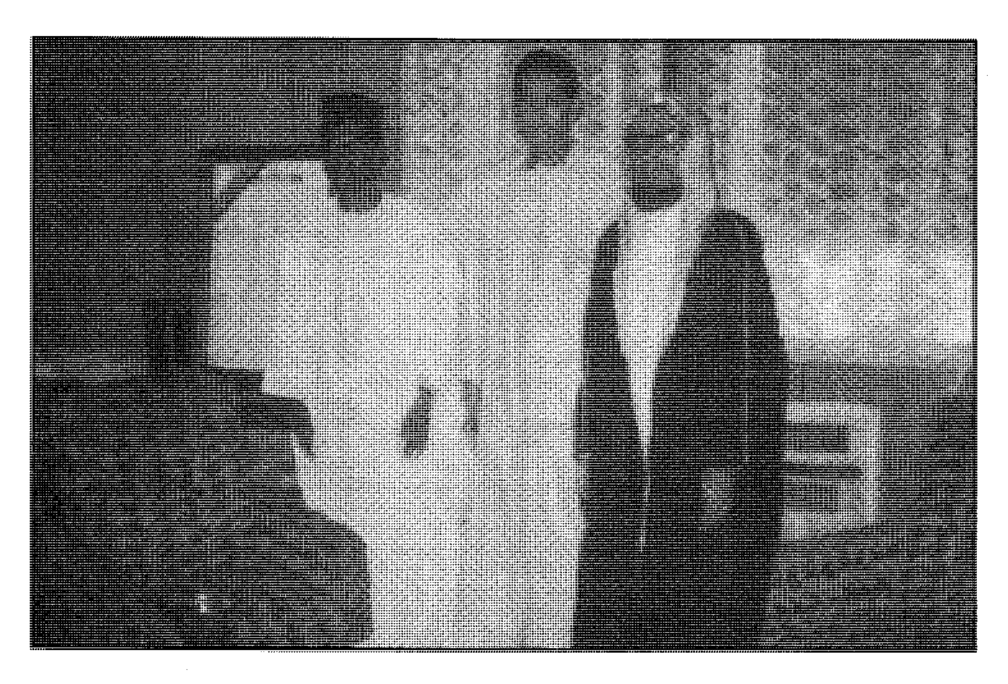
وصلـنا مطـار بامـاكو في الـثانيـة والربـع ظهراً وقـصدنا فـندق إيمـتي أي الصداقة فأقمنا فيه كما فعلنا قبل السفر إلى تنبكتو.

يوم الجمعة: ١٤/١٢/١٤٠٢هـ - ١/١٠/١٩٨٢م :

كان هذا اليوم هو يوم المقابلات إذْ كان مقرراً فيه اللقاء برئيس الجمهورية وعدد من الوزراء، وذلك قبل توديع مالي الوشيك.

في وزارة التخطيط :

تقع هذه الوزارة في هضبة إلى الشمال من قلب العاصمة وكنا نراها من فندقنا في أحناء جبل غير عال. وتسمى (كلوبا) بمعنى الهضبة الكبيرة بلغة البامبرا فكلو: هضبة وبا: كبيرة. وقد يسميها بعضهم هضبة الحكم وذلك لكون مقرر رئاسة الوزارة والمقر السابق لرئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية فيها.



صورة تذكارية مع وزير التخطيط المالي في مكتبه وهو بين المؤلف والشيخ الدكوري

وهي جيدة المظهر ذات أشجار ضخمة وارفة الظلال، وتتألف من دارات

(فيلات) غارقة في الأشجار. وكانت فيها منازل الفرنسيين إبان الاستعمار الفرنسي. ومنها كانوا يحكمون مالي.

وقفنا فيها تحت شجرة كبيرة تسمى (لمباتو) يستعمل الأهالي من حبها دواء لعسر البول ونحوه ويغلون أوراقها وتوضع فوق وجع المفاصل دواء أيضاً. غير بعيد من قصر الرئاسة المهجور الذي كان يشغله الرئيس السابق (موديبو كيتا) ولا ينزل فيه رئيس الجمهورية الحالي (موسى تراوري) لأسباب اختلف محدثونا في ذكرها فبقي هذا القصر مهجوراً.

ويطل موقف سيارتنا على مدينة باماكو القديمة وخلفها نهر النيل المسمى عند الغربيين ومن قلدوهم من قومنا بنهر النيجر.

ومن المناظر التي تشد الانتباه هنا وما جاور هذا المكان من ضواحي مدينة (باماكو) المرتفعة شجر عال أخضر ريان، وأخشاب مركومة، وأثواب منشورة على الحشيش وعلى تلك الأخشاب لتجف بعد الغسل، وخراف من النوع الأبيض اللون، الصغير الحجم، وبرج للحمام من الخشب. ونسوة يغسلن الملابس بأيديهن. ومصلى محاط بجدار من الطين إلى صدر الرجل متروك ليصلي فيه من يعملون من الموظفين في الدوائر الملاصقة له.

ومن الطريف فيما يتعلق بهذا المكان المرتفع الجميل أن أحد الموجودين قال لرفيقي الدكوري بينما كنت أتجول في الحي وأتأمله: إن هذا الحي كان في زمن الفرنسين مليئًا بالأفاعي السامة أما الآن فإنه لا شيء فيه منها.

وعلل ذلك معه الشيخ الدكوري بأن رائحة المطاط المنبعثة من إطارات السيارات كانت تجذبها فتبرز من جحورها فيقتلها الناس. هكذا قال. والله أعلم.

دخلنا وزارة التخطيط فجلسنا في غرفة انتظار صغيرة فيها مكيف

للهواء. وهذا أمر قليل الوجود في مالي وهي مفروشة بالسجاد، وفيها مجلات ومنشورات باللغة الفرنسية لقتل الوقت. وحضر إلينا وزير التخطيط وأصله من الطوارق مديد القامة، قوي الشخصية، صحبنا إلى مكتبه المجاور لغرفة الانتظار.

وبدأ حديثه بشكر المملكة العربية السعودية على مساعداتها لمالي، وقال: مساعدات المملكة العربية السعودية لنا عظيمة، كلما وقعنا في أزمة بادرت المملكة لنجدتنا أكثر من أي دولة أخرى حتى فرنسا الغنية التي كانت تستعمر البلادسابقًا، وتريد المحافظة على نفوذها وتأثيرها الثقافي في البلاد.

ثم تكلم عن الماضي الثقافي لبلاد مالي. وعن مشروع ثقافي تفكر حكومة مالي في تنفيذه في (حمد الله) بغية العمل على إحياء مجدها القديم.

كما تطرق الحديث إلى مدينة تنبكتو وآثارها التاريخية الهامة.

وتكلمت عما شاهدته ولاحظته في تنبكتو وعن رأيي في إحياء المجد القديم لهذه المدينة. كما تحدثت عن الروابط القوية بين المملكة العربية السعودية وبين مالي.

وبعد حديث مفيد استأذنا منه ونحن نغادر مكتبه. وقد أبى إلى أن يودعنا إلى خارج الوزارة بعد أن التقطنا معه صورًا تذكارية.

مقابلة رئيس الجمهورية :

وأخبرني أصحابنا أن المراسم في وزارة الخارجية لم تضع مقابلة رئيس الجمهورية في البرنامج على اعتبار أننا لم نطلب مقابلته وأننا سلمنا عليه حينما صلينا معه صلاة العيد في جامع الملك فيصل في (باماكو) ولكن الرئيس هو الذي طلب وضعها في البرنامج.



الرئيس تراوري رئيس مالي يستقبلني في مكتبه

ويقع مقر رئيس الجمهورية الحالي في مدينة (باماكو) وليس في الهضبة الكبيرة الجيدة هذه التي كان فيها مقر رئيس الجمهورية السابق (موديبو كيتا).

انحدرنا إلى حيث يقع مقر رئيس الجمهورية. وقد استقبلنا موظفو المراسم لرئاسة الجمهورية. ثم دخلنا على الرئيس فوجدته وحده وقد استقبلنا عند باب مكتبه ببشاشة ظاهرة وسماحة غير متكلفة.

وبدأت الكلام معه بشكره على الحفاوة التي غمرنا بها أهل هذه البلاد الإسلامية الشقيقة. وقلت له: لا شك أن ذلك كله كان بتوجيه من فخامتكم، واقتداء بكم في إكرام أخيكم القادم من الحرمين الشريفين، وقلت له: لقد بلغني أنكم أمرتم بأن أسافر إلى تنبكتو على طائرتكم الخاصة وقد طلبت من المراسم أن ينقلوا شكري وتقديري إلى فخامتكم.



رئيس مالي يشير للمؤلف بالجلوس

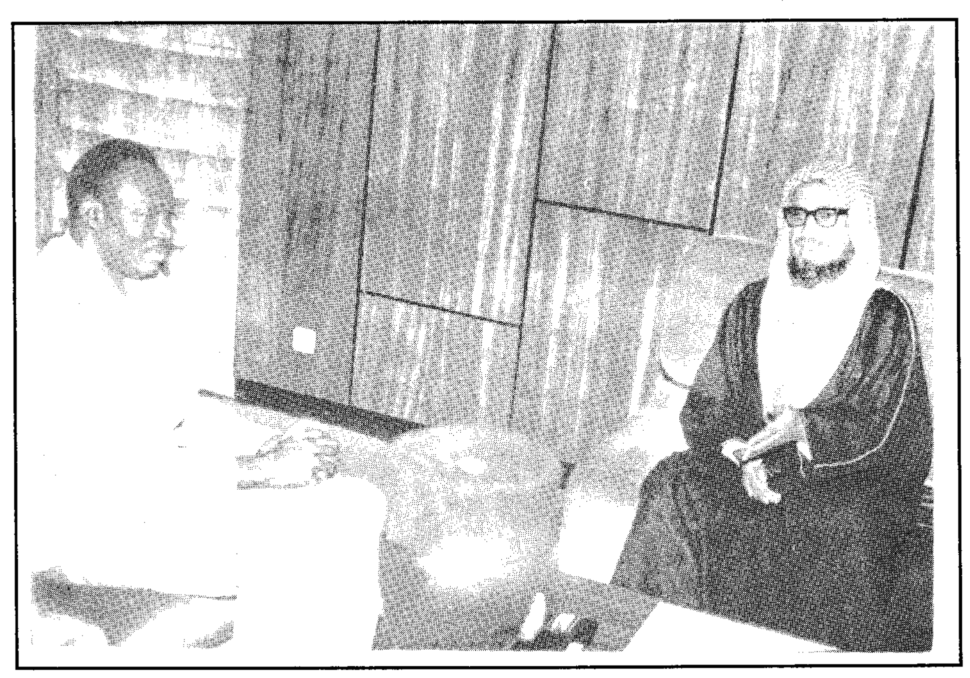
فقال: لقد ابلغوني عن رغبتكم في زيارة تنبكتو، وبما أنني أعرف أن طائرات خطوط مالي صغيرة وضعيفة وربما لا توجد طائرة تسافر إلى تنبكتو فأمرت بأن تكون طائرتي الخاصة برئيس الجمهورية تحت تصرفكم إلى أن أبلغوني أن سفركم مؤكد وأنكم أردتم أن تسافروا مع سائر الركاب.

ثم تكلمت عن التاريخ القديم الحافل بالأمجاد لبلاد (مالي) هذه حتى إنها قد وصلت في حكمها تحت ظل الشريعة الإسلامية منذ سبعة قرون إلى مالم تستطع أن تصل إليه أوربا أو أمريكا حتى الآن من شمول الأمن للغريب والقريب. فقد ذكر ابن بطوطة أن الغريب يسافر في بلاد السودان الشهر والشهرين لا يخشى سارقًا ولا معتديًا. كما ذكر أنه إذا مات أحد من البيضان في بلاد السودان هذه حفظوا ما خلفه من مال من دون أن يتصرفوا فيه حتى

يحضر وارثه أو وكيله ويثبت ذلك بالوجه الشرعي ولا يمسون ماله ولو مضت عليه عشرات السنين. ولو كان مالاً كثيراً.

وأنا عرفت بنفسي كما عرف ذلك سائر الناس الذين سافروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أن المرء لا يأمن الآن على نفسه إذا سار في شوارعها في الليل وحده، بل إن الغريب لا يأمن على نفسه إذا سار وحده في بعض أحيائها.

وفي ذلك الوقت الذي كان فيه أهل مالي يسجلون تقدماً في الإدارة. وضبط البلاد كانت بعض الأقطار الأوربية لم تصل إلى معشار ذلك في الإدارة وتنظيم البلاد.



المؤلف يتكلم ورئيس مالي العقيد تراوري يصغي باهتمام

ثم ذكرت له كيف كان سلطان مالي الدي كان يسمى في بعض المراجع

العربية بسلطان مالي وفي بعضها بسلطان السودان وأخيراً كان يطلق عليه بعضهم سلطان التكرور فكان أحد السلاطين الأربعة في بلاد المسلمين شرقها وغربها.

فسر بذلك وقال: الحقيقة أنك تعرف من تاريخ بلادنا مالا نعرفه نحن وإنني أتمنى أن تطول إقامتك في مالي حتى أسمع منك المزيد من ذلك التاريخ.

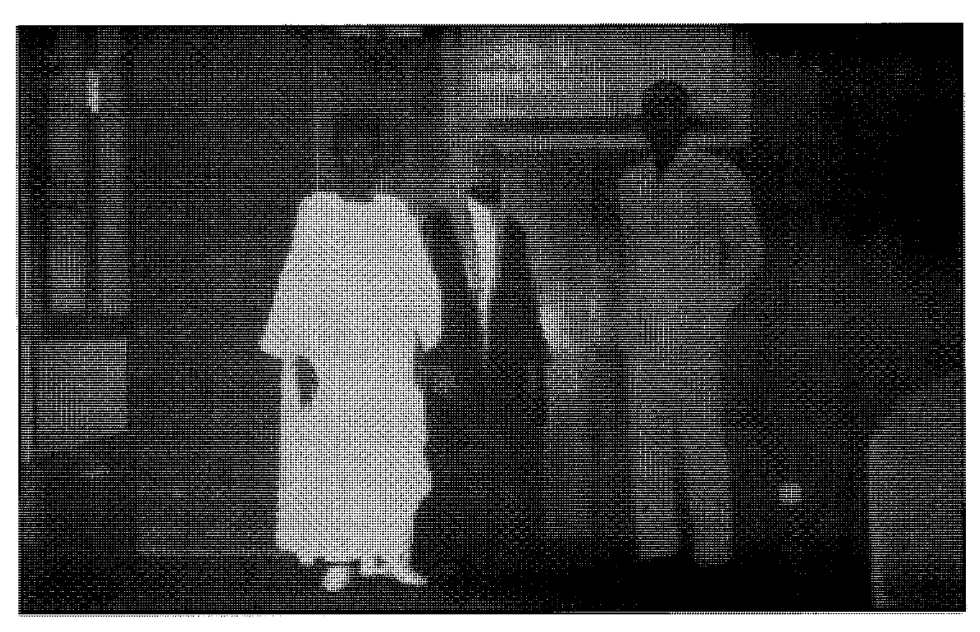
وقال الشيخ الدكوري بعد ذلك إنه قال: حتى أتعلم منك التاريخ.

وقد طالت المقابلة وتشعب معه الحديث فحدثته عن رحلاتي في العالم، وما عرفته من أحوال المسلمين في أنحاء مختلفة متباعدة.

فكان الرجل يصغي باهتمام. وقد ظهر على محياه السرور عندما تكلمت عن الصحوة الإسلامية التي تنتشر الآن في أرجاء العالم.

وقد أخبرني أنه يفكر في إحياء المجد العلمي للبلاد وذلك للبداءة بمشروع إسلامي يتألف من مركز إسلامي ومسجد جامع ومدرسة دينية ومكتبة وقاعة للمحاضرات في مدينة (حمد الله) لأن هذه المدينة كانت ذات مجد إسلامي قديم وكان فيها عدد من العلماء الكبار وبلغ حفظة القرآن فيها في وقت من الأوقات أكثر من أربعة آلاف.

وأشار بقوله هذا إلى أن المشروع يحتاج إلى مساعدة من رابطة العالم الإسلامي أو من المملكة العربية السعودية فقلت له: إنني اعتقد أن إخوتكم في المملكة العربية السعودية يرحبون بالإسهام في إقامة هذا المشروع العلمي المهم وأرى أن تأمروا من ترونه بتقديم المشروع مفصلاً وإنني مستعد أن أحمله بنفسي وأقدمه للجهات المسؤلة كما أعمل على إنجاحه في الأمانة العامة للدعوة الإسلامية التي أتولاها.

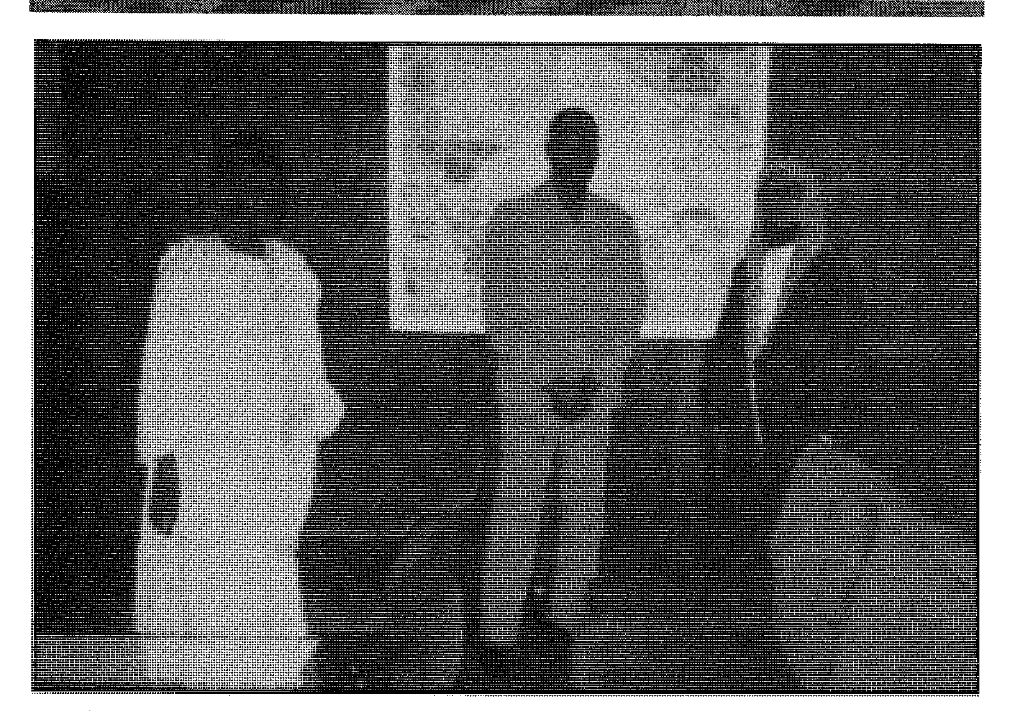


أسفل صورة المسجد الجامع (جامع فيصل) في مكتب رئيس مالي مع الرئيس وهو واقف في أيمن الصورة

وكنت ألمس الإخلاص في حديث الرجل وتفكيره مما رسخ في ذهني الإنطباع بأنه مسلم متدين مخلص وكنت أستأذن في الذهاب فيستبقيني وقال لي: ألا ترى أن زيارتك لمالي هذه قصيرة؟ فقلت: إنها كذلك ولكن لدي عدة مهمات في بلدان أخرى بعد مالي عليَّ أن أنجزها في وقت محدود.

فقال: البلاد بلادك وأرجو أن أراك مرة أخرى بل مرات ولن أنسى هذه المقابلة.

وكان المترجم صديقنا الشيخ عبدالوهاب الدكوري ولم يكن معنا غيره إلا الشيخ (أيوب مختار) وفي نهاية اللقاء اقترح الشيح الدكوري أن نلتقط صورة تذكارية معه، وكان المصورون قد التقطوا الصور المعتادة ولكنه أراد بناء على ماعرفه من رغبتي وعادتي أن تكون الصورة من مصورتي الخاصة وأن تكون تذكارية.



رئيس مالي واقف مع المؤلف بحذا خريطة (مالي) وإلى يسار الصورة الشيخ الدكوري

فأستجاب الرئيس وقال اقترح أن يكون بجوار صورة المسجد وكان مكتبه يزدان بصورة واضحة مفصلة لجامع الملك فيصل في (باماكو) فالتقطنا الصورة ثم قال: وصورة أخرى بجوار خارطة مالي.

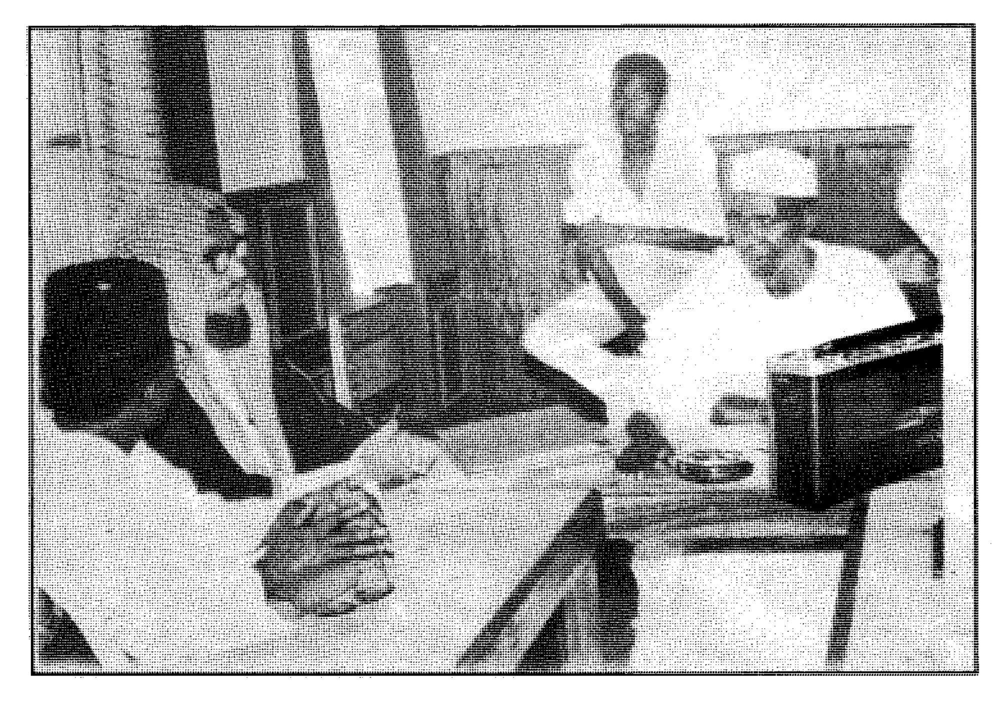
ثم ودعنا الرئيس إلى خارج باب مكتبه.

حديث الإذاعة والصحافة :

وجدنا ممثلين للإذاعة والصحافة ينتظرون خروجنا من عند الرئيس من أجل موعد مقرر لهم معنا من قبل.

فسجلت لهم حديثًا تضمن الشكر لله تعالى الذي قدر لنا الوصول إلى هذه البلاد والاجتماع بقادتها والاطلاع على أحوال شعبها في الأماكن التي زرناها وذكرتها. ثم تكلمت عن الغرض من الزيارة وأنه تم الاتفاق نيابة عن

رابطة العالم الإسلامي مع حكومة مالي على إنشاء مستوصفات خمسة. ستقيمها الرابطة في جهات متفرقة من بلاد (مالي) وتهديها إلى البلاد وإذا أرادت حكومة مالي أن تستمر الرابطة في إدارتها أسوة بما هو موجود من المستوصفات التي أقامتها الرابطة في جمهوريتي النيجر وبنين فإن الرابطة مستعدة لذلك ثم أجبت على أسئلة عدة عن أحوال المسلمين.



المؤلف يتحدث للإذاعة والصحافة في باماكو

وكانت الإذاعة والصحف تتابع نشر أخبارنا قبل هذا الحديث ومن ذلك أن مرافقنا في تنبكتو الأخ أسورا أو عاشورا كان قد بعث برسالة أمس إلى الإذاعة والصحف أذيعت الليلة البارحة وصباح هذا اليوم تضمنت اقامتنا في تنبكتو ومغادرتها إلى باماكو.

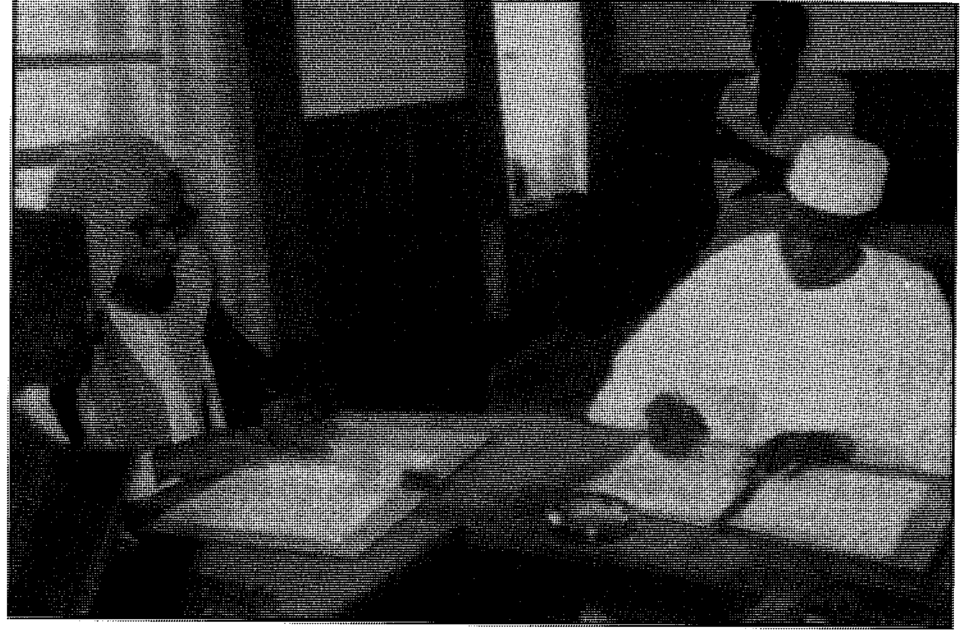
وقد كنت أتكلم لهم بالعربية فيترجمها السفير الدكوري إلى الفرنسية، وقد أذيعت من الإذاعة عدة مرات وترجموها من الفرنسية إلى بعض اللغات

المحلية التي تذيع بها إذاعتهم ونشرتها صحفهم بعد ذلك. وكانوا يذيعون النص بالعربية ثم ترجمته باللغة الأخرى.

مع وزير الأشغال :

كان من المقرر أن أوقع اتفاقية إنشاء المستوصفات الخمسة مع وزير خارجية مالي غير أنه كان غائباً وكان الوزير الذي يقوم مقامه في عمله في غيابه هو وزير الأشغال اسمه (موديبو كيتا) وهو قريب لرئيس مالي السابق.

ذهبنا إليه في وزارة الخارجية وقمنا بتوقيع الاتفاقية التي كانت معدة من



وزير الخارجية بالنيابة يوقع الاتفاقية وعلى يمينه المؤلف يطالعها

قبل باللغتين العربية والفرنسية التي هي اللغة الرسمية للدوائر الحكومية في مالي.

وحضر حفل التوقيع مندوبون للإذاعة والصحافة لذلك ألقى الوزير كلمة

مكتوبة معدة لإذاعة مالي والقيت كلمة مرتجلة سجلوها لتذاع في الإذاعة وتنشر في الصحف.

ثم التقطنا الصور التذكارية لهذه المناسبة إلى جانب الصور الصحفية.

واسرعنا الخروج من وزارة الخارجية لأن لدينا موعداً في وزارة الصحة.

وذلك للاجتماع بوزير الصحة لنبحث موضوع توزيع المستوصفات الخمسة على أنحاء مالي، بعد أن تمت الموافقة عليها وأن نبحث في كيفية إدارتها في المستقبل والحجم الذي ينبغي أن تكون عليه في أول تشغيلها.

وقد استقبلنا وزير الصحة بالترحاب مثل سائر المسؤلين في هذه



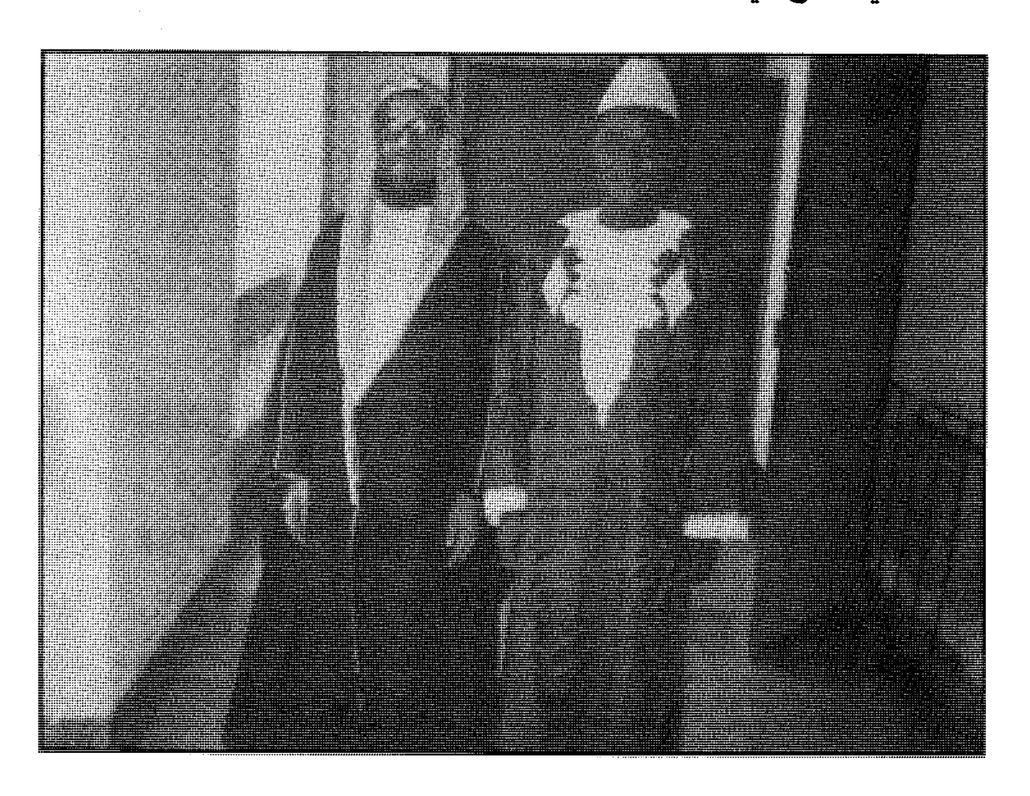
مع وزير صحة مالي في مكتبه

البلاد، وقال: إن إنشاء هذه المستوصفات في مالي يتفق مع خطة وزارة

الصحة التي أقرتها الدولة والتي تضمن إنشاء مستوصفات صحية في عدد من الأماكن في البلاد من أجل رفع المستوى الصحي فيها، وكان موضوع بناء هذه المستوصفات وتمويلها عقبة في سبيل تحقيقها لأن دولة مالي كما تعلمون دولة نامية ولديها مشروعات متعددة وهي تبدأ بالأهم على المهم.

وبهذه المناسبة سألت وزير الصحة عن أكثر الأمراض انتشارًا عندهم؟ فذكر أنها الملاريا. وكان يتكلم بحضور عدد من الأطباء الذين كانوا موجودين في الاجتماع.

ثم غادرنا وزارة الصحة مستعجلين من أجل أن ندرك صلاة الجمعة التي اديناها في جامع في داخل المدينة ليس بكبير.



صورة تذكارية لوزير الصحة في مالي في مقر الوزارة مع المؤلف

في المعهد الإسلامي :

طلب مني الشيخ أحمد حماه الله وهو قديم الاتصال بالمملكة العربية السعودية. وكان زارنا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة قبل خمس عشرة سنة وذكر أنه هو رئيس أنصار السنة في مالي وعرف في المملكة بهذا وحصل على مساعدات من المملكة لهذا المعهد لذلك أردت رؤية المعهد فذهبنا إليه بصحبته في الخامسة من بعد العصر.

فوجدنا المعهد في بناء أسمنتي جيد مكتوباً عليه اسمه بالعربية (بسم الله الرحمن الرحيم. المعهد الإسلامي: «حضانة: إبتدائي ، إعدادي ، ثانوي». ومثل ذلك بالفرنسية.

وتجولنا في فصول الدراسة في المعهد فألفيناها واسعة جيدة قد اثثت تأثيثاً حسناً ولم أر أحداً من الطلاب في المعهد لأنهم في عطلة تنتهي يوم الاثنين المقبل حسبما أخبرنا به الشيخ (أحمد حماه الله). ورأينا مساكن المدرسين مقابلة للمعهد داخل أرض واسعة تضم المعهد وهذه المساكن للمدرسين مبنية من الأسمنت المسلح بناء قوياً والمسجد بجانبه بيت الامام وكله من الأسمنت المسلح.

وقد أعجبني تنظيم المبنى والفصول وغرف الإدارة وتأثيثها الفاخر الذي يقل نظيره في المعاهد والمدارس الخاصة في هذه البلاد. ولا شك أن السبب في ذلك هو قوة اتصال الشيخ أحمد حماه الله بالبلدان العربية، والحصول منها على المساعدات وقد بلغنا أنه تلقى مساعدات مالية من العراق وليبيا أيضاً إضافة إلى مساعدات المملكة كما أن الأزهر قد أرسل إليه ثلاثة مدرسين إسهاماً منه في حسن سير الدراسة في هذا المعهد وكذلك أرسلت رئاسة الإفتاء في المملكة العربية بعض المدرسين منهم الشيخ حسن معلم علي صومالي تعاقدت معه الافتاء وابتعثته لهذا الغرض.

ويقع في حي يسمى (حي مصر القديم) فيه عدة مساجد ذات منارات شامخة.

والشيء الذي يؤخذ على الشيخ (حماه الله) وسمعناه هنا كثيراً أنه لم يسجل هذه المنشآت من المعهد وما يتبعه وقفاً للمعهد وقد فاتحته في ذلك وقلت له ربما يفاجئك ماليس في حسبانك فتذهب تلك العقارات كلها إلى الورثة فوعد بأنه سوف يسجل ذلك كله وقفاً جارياً.

المدارس الإسلامية في باماكو :

يصل عدد المدارس الإسلامية التي أكثرها كتاتيب -جمع كُتَّاب، بتشديد التاء - إلى ٤٠ مدرسة إسلامية في باماكو ولذلك كان من الصعب علينا أن نزورها كلها فاكتفينا بزيارة ما تيسر مع التنويه بعددها وأكثر هذه المدارس لها صلة برابطة العالم الإسلامي ونحوها من المؤسسات في بلادنا.

أما عدد المساجد في المدينة فإنه ٣٦ جامعاً -تقام فيها صلاة الجمعة- ويبلغ عدد المساجد فيها كلها ما بين مسجد جامع ومسجد تصلى فيه الصلوات الخمس دون الجمعة ١٥٢ مسجداً.

يوم السبت ١٥/١٢/١٤٠٢هـ ٢/١٠/١٩٨٢م.

جمعية مالي الإسلامية :

كان هذا الصباح مخصصاً لزيارة الجمعية الإسلامية الرسمية الوحيدة في مالي واسمها جمعية مالي الإسلامية للاتحاد والتقدم ولها فروع في المدن الرئيسة. وقد أنشئت لغرض أن تكون الأنشطة الإسلامية ذات الاتصال بالخارج مقصورة عليها.

وقد حضر إلينا في الفندق رئيس الجمعية الحاج (عمر لي) فذهبنا بصحبة الأخ الدكوري والشيخ أيوب وعثمان الدكوري.

فوقفنا على أرض واسعة في مكان جيد من المدينة ذكروا أن رئيس الجمهورية قد منحهم إياها وأنهم يريدون أن يبنوا عليها مقراً للجمعية ومسجداً ومكاتب تحتها حوانيت من أجل أن تدر ريعاً ثابتاً للجمعية وتقع على شارع الاستقلال الرئيسي في المدينة.

إلا أنهم ذكروا لنا أنهم لم يجمعوا حتى الآن أي شيء من المال لهذه المشروعات.

وانتقلوا بعد ذلك إلى المقر الحالي الذي تقيم فيه الجمعية وفيه مكتبها وهو في إحدى الملحقات في جامع الملك فيصل الكبير واستقبلنا في المكتب الشيح عثمان رجبو أمين الصندوق. وقد عقدنا معهم جلسة بحثنا فيها أوجه التعاون ما بين هذه الجمعية ورابطة العالم الإسلامي، قدموا إلينا منشوراً يتضمن عرضاً لوضع الإسلام في البلاد رأيت أن أثبت ملخصاً له هنا استكمالاً للفائدة :

قال المنشور:

نبذة عن الاتحاد العام للمسلمين في مالي
(جمعية مالي لاتحاد وتقدم المسلمين)

أولاً : الإسلام في مالي :

يرجع دخول الإسلام في مالي إلى القرون الأولى من الهجرة النبوية الشريفة حيث تعمق الفاتحون الأوائل في الصحراء الإفريقية فوصل طلائعهم إلى ربوع مالي منذ أيام فتوحات عقبة بن نافع. وقد انتشر الإسلام في مالي بصورة مستمرة وعاجلة بفضل التجار والعلماء الذين كانو يقومون بالتردد بين الضفة الشمالية والجنوبية من الصحراء الافريقية. وإن سماحة الإسلام وانسجام مبادئه مع الفطرة ساعد كثيراً على ارساخ دعائم الدين الحنيف في بلاد السودان الغربية وهي مالي الحالية فمنذ القرن التاسع الميلادي كان للإسلام شأن يذكر في إمبراطورية غانا في أرض مالي الحديثة. ثم جاءت امبراطورية مالي فبنت مجدها وعزتها على دعائم الإسلام واعتبرته دين الدولة منذ أيام الإمبراطور كانكوموسى الذي قام برحلته التاريخية إلى الحج مع ما يربو على ألف ناقة محملة بالذهب للقيام بأعمال البر في بلاد الحرمين الشريفين.

ومن الوجوه الإسلامية البارزة في تاريخ مالي سلاطين أسرة الاسكيا في غاوو وتنبكتو، وامراء دولة ماسينا في وسط مالي التي أسست على دعائم إسلامية صرفة ومنها كذلك الدولة الإسلامية التي أقامها الحاج عمر الفوتي ومن بعد ابنه أحمد شيخ في مدينة سيقو بالاضافة إلى المحاولات التي قام بها ساموري توري لاقامة دولة إسلامية يكون مركزها مالي وتضم جزءاً كبيراً من السنغال وغينيا وغينيا بيساو وساحل العاج والفولتا العليا والنيجر.

ثم جاء عهد الاستعمار الذي حاول بوسائل شتى منها التحريف والتربية اللادينية والقهر وطمس معالم الإسلام الراسخة. إلا أن الطوائف الإسلامية المختلفة في مالي ومنها الطوائف الصوفية انزوت على نفسها وفرت بعقيدتها

من كيد المستعمرين واستطاعت أن تبقى على الجذوة الإسلامية وقادة في نفوس أبناء مالي إلى أن جاء عهد استرجاع الاستقلال والحرية.

وقد شهد الإسلام في السنوات العشرين الماضية قفزة كبيرة سواء من حيث العدد أو من حيث تعميق الثقافة والعلوم الإسلامية وذلك بفضل المدارس العربية الحديثة التي فتحت أبوابها في جميع ربوع مالي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- مدارس سبيل الفلاح الإسلامية في سيقو.
- مدرسة النجاح والفلاح في سيقو.
- مدرسة التهذيب الإسلامي في سيقو.
- المدرسة الاتحادية للدراسات الإسلامية في براويليى.
- مدرسة سبيل النجاح الإسلامية في سان.
- مدرسة الثقافة الإسلامية في باماكو.
- مدرسة نهر جوليبا الإسلامية في باماكو.
- مدارس الهلال الإسلامية في باماكو.
- مدرسة نور دين الإسلام في موبتي.
- مدرسة التربية الإسلامية في سيكاسور.
- المدرسة العربية الإسلامية في كابى.
- المعهد العربي الفرنسي في تنبكتو.
- المدارس العربية في غاوو.
- مدرسة دار القران والحديث في طوبي.
- المدرسة الفيصلية في بانمبا وغيرها.

وقد ساعدت الحكومة الوطنية بالوسائل المتاحة على نشر الثقافة الإسلامية والعلوم العربية وأدخلت اللغة العربية كلغة إضافية إلى المدارس الفرنسية والحكومية وساعدت رجال الدين والفكر الإسلامي بوسائل شتى وساهمت في إيجاد التعاون المباشر بين المسلمين في مالي واخوانهم في البلدان العربية. ونستطيع اليوم إن نقول بدون أي مبالغة إن المسلمين يمثلون نسبة ٩٥٪ من مجموع سكان مالي وأن الظواهر الدينية الأخرى كالمسيحية والوثنية ظواهر عرضية لن تصمد طويلاً أمام النهضة الإسلامية التي عرفتها البلاد منذ الإستقلال.

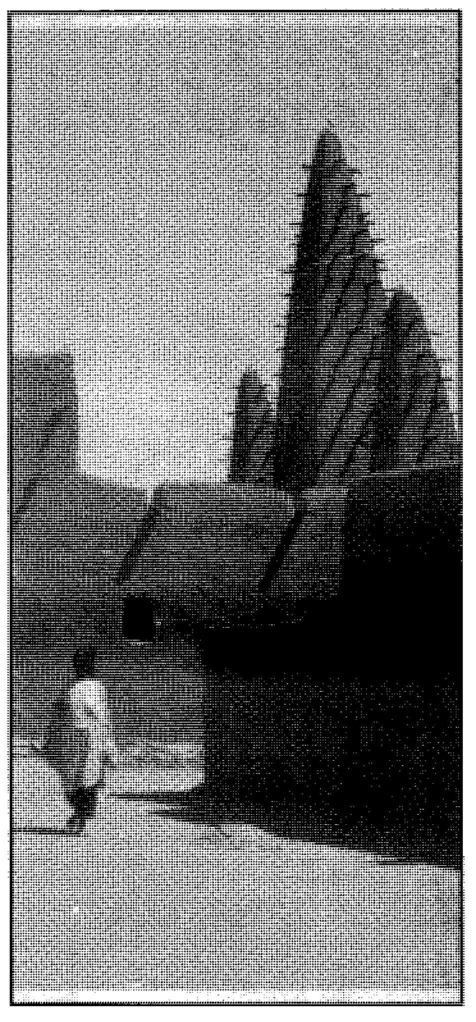
ثانيًا : المسلمون في مالي :

يمتاز المسلمون في مالي بتمسكهم الشديد بمبادئ الإسلام وحرصهم على عقيدتهم إلا أن مالي شأنها شأن أي بلد عريق في الإسلام عرفت تباينا كبيرًا في فهم الإسلام وطوائف إسلامية كثيرة وقد وصل هذا التباين إلى بروز بعض التناقضات الحادة التي أثارت قلقًا شديدًا لدى جميع المسلمين ولولا فضل الله ورحمته لشاعت الفتنة ولوجد أعداء الإسلام بعض المنافذ التي يبثون منها سمومهم.

وقد فطن اولو الحكمة من علماء مالي وقيادتها الدينية إلى ضرورة ايجاد تنظيم عام يضم شمل المسلمين في مالي ويرجع الجماعات الإسلامية نحو الاخاء ويتألف ويتكاتف حول لواء «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وذلك لمصلحة الإسلام والمسلمين ولمواجهة التحديات المختلفة التي مازالت تتربص بنا الدوائر.

فجاء ميلاد الاتحاد العام لمسلمي مالي تعبيرًا صادقًا عن هذه الحاجة الملحة إلى الوحدة لتهيئة الطريق أمام هذا الاتحاد واعترفت به رسميًا وجعلته

الهيئة الوحيدة التي تشاورها وترجع إليها في كل ما يخص شؤون المسلمين في مالي.



مسجد من الطين في مالي

ثالثاً : الاتحاد العام لمسلمي مالي :

لمزيد من المعلومات حول هذا الاتحاد نرفق طيه صورة من دستوره وإن من أهداف هذا الإتحاد كما هو موجود في نظامه على أساس:

(أ) تنمية وتدعيم الوحدة والروابط الأخوية والنظامية بين المسلمين من كل الجنسية. وذلك طبقاً لتعاليم القرآن الكريم، حتى يتسنى لهم اتخاذ سبل التعاون والتفقه في الدين.

(ب) استخدام الوسائل الإعلامية والتربوية الحديثة لتحقيق هذا الهدف.

(ج) إنشاء وتطوير المكتبات، وتأثيث الأماكن الخاصة لنشاطات الجمعية وتأسيس المدارس واداراتها.

(د) تجريد الإسلام من كل تأثير مضر وعمل مفسد حتى يعود إلى نقاوته الأصلية.

(هـ) مساعدة الطلبة في الحصول على المنح الدراسيةوارسالهم إلى حيث

يستطيعون تحسين مستوى معارفهم والاشتراك في الدورات التدريبية.

وقد نجح الاتحاد إلى حد كبير في تحقيق بعض هذه الأهداف فقد أوجد له فروعًا ومكاتب في أقاليم مالي الثمانية ومديرياتها البالغ عددها ستة واربعين (٤٦) مديرية واصبح للإتحاد اليوم شبكة واسعة تغطي أرض مالي بأكملها وتوجه نشاطات المسلمين الوجهة السليمة. وعلى رأس هذه المكاتب والتجمعات الفرعية أسست اللجنة العليا التي تضم نخبة من أئمة الجوامع في مالي وكبار العلماء والشخصيات الإسلامية التي لهارأي مسموع في الأوساط المختلفة.

وكذلك المكتب التنفيذي للاتحاد والامانة الدائمة اللذين يعتبران الجهاز التنفيذي لإرادة مسلمي مالي بإذن الله ومقر الأمانة الدائمة في باماكو (العاصمة).

وكذلك نجح الاتحاد في العمل الإعلامي حيث خصص للبرامج الإسلامية في إذاعة مالي وفي الجريدة الوطنية نصيب كبير لم يسبق له مثيل لا في تاريخ مالي ولا في تاريخ الدول الأفريقية المجاورة وقد بدا الاتحاد موجة من التوعية في المساجد والأماكن العامة مما كان له أكبر الأثر في الانتعاش الإسلامي الكبير الذي يشهده بلدنا كذلك توسط الاتحاد للحصول على المنح الدراسية لصالح كثير من المدارس العربية في مالي حيث أن هذه المدارس الأهلية والدراسة فيها تنتهي نهاية المستوى المتوسط.

وقد نجح الاتحاد كذلك في الحصول على إذن حكومي لبناء معاهد عامة وفنية للمراحل الثانوية وما بعد الثانوية لسد النقص في هذا الميدان وبعد هذا النجاح في المستوى الداخلي تقوم الجمعية الآن بالتوجه نحو التعاون مع الهيئات والمنظمات الإسلامية في الدول الإسلامية الأخرى لما يخدم المصالح

المشتركة وجولة هذا الوفد من الاتحاد في عدد من الدول الإسلامية تدخل في هذا الاطار والغرض منه تبادل الآراء والتجارب مع الاخوان في تلك البلاد وتعزيز روابط التعاون والتعارف معها.

وللاتحاد برنامج عمل على المدى القصير والبعيد وتجدر الإشارة إلى أن تنفيذ هذا البرنامج يتطلب تضافر الجهود الداخلية مع استعدادات الهيئات الإسلامية في الدول الأخرى وكذلك مع أهل الخير من المسلمين مع كل بلد.

والله ولي التوفيق

مغادرة مالي :

غادرنا مالي حينما غادرنا (باماكو) فـي الرابعة والربع بعد ظهر هذا اليوم قاصدين (ابيجان) عاصمة ساحل العاج، ولذلك حديث في كتاب آخر عنوانه «بقية الحديث عن إفريقية» وهو كتاب مطبوع.



الخاتمة



آثرنا أن نختم كلامنا على زيارة (مالي) بنقل كلام للقلقشندي في موسوعته العظيمة: (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) لنبين أن أسلافنا من العلماء والمؤرخين العرب الأعلام كانوا يعرفون عن (مالي) في العصور السحيقة أكثر ما يعرفه عنها أكثرنا الآن وذلك لمحبتهم للمعرفة. لا سيما معرفة الإخوة من المسلمين السودانيين ذوي الأمجاد الإسلامية العظيمة.

وقد جمع القلقشندي وهو (أحمد بن علي القلقشندي المتوفي في عام ٨٢١هـ) في كتابه خلاصة لأكثر ماذكره الجغرافيون والبلدانيون من المؤلفين العرب عن مالي، ولا يقدح فما ذكره كونه ينقل نقلاً عن مصادر كتبت قبل زمنه فقد كانت هذه هي الحالة السائدة في عصره وإن كنا عرفنا أنه حتى في عصره وبعده بقليل عرف عدد من العلماء كالسيوطي والمغيلي سافروا إلى بلاد السودان هذه بحثا عن الاستفادة والإطلاع أو الإفادة بما لديهم من علم.

وقد علقنا تعليقات مختصرة على مواضع قليلة مما يحتاج إلى ايضاح من كلام القلقشندي رحمه الله من أجل المقارنة ما بين الماضي والحاضر أو لتصحيح كلمة أو لفظة تحتاج إلى تصحيح.

قال القلقشندي :

المملكة الخاصة : ممالك الجهة الجنوبية عن مملكة الديار المصرية.

بلاد مالّي ومضافاتها :

ومالّي: بفتح الميم، وألف بعدها لام مشدّدة مفخّمة، وياء مثناة من تحت في الآخر. وهي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور[1].

(١) لم يذكر ابن بطوطة لفظة (التكرور) فربما دل ذلك على عدم شيوعها في بلاده وامثالها في ذلك العصر.

قال في مسالك الأبصار: وهذه المملكة في جنوب المغرب، متصلة بالبحر المحيط.

قال في التعريف: وحدّها في الغرب البحر المحيط، وفي الشرق بلاد البرنو[1]، وفي الشمال جبال البربر، وفي الجنوب الهمج[2].

ونقل عن الشيخ سعيد الدُكالي أنها تقع في جنوب مُرَّاكُش ودواخل برّ العدوة جنوبًا بغرب إلى البحر المحيط.

قال في مسالك الأبصار: وهي شديدة الحرّ، قشِفَةَ المعيشة، قليلة أنواع الأقوات، وأهلها طِوال في غاية السواد، وتفلفُل الشعور. وغالب طول أهلها من سوقهم لا من هياكل أبدانهم.

قال ابن سعيد: والتكرور قسمان: قسم حضر يسكنون المدن[3] وقسم رحَّالة في البوادي[4].

وقد حكى في «مسالك الأبصار» عن الشيخ سعيد الدُكَّالي: أن هذه المملكة مربَّعة. طولها أربعة أشهر أو أزيد، وعرضُها مثلُ ذلك، وجميعُها مسكونة إلاّ ما قلّ. وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين.

---

(١) بلاد البرنو – كما تعرف الآن – ولاية في الشمال الشرقي من نيجيريا إذ كانت من ممالك المسلمين العريقة في الإسلام منها قسم تابع الآن لجمهورية (تشاد).

(٢) المراد بالهمج الذين لا دين لهم من الناس ويراد بذلك من ليس لهم دين سماوي ولا أعراف اجتماعية متحضرة وكان بعض أسلافنا العرب يسمونهم الهمج الذين يأكلون لحوم بني آدم. لأن أكل لحوم بني آدم كان معروفًا في العصور القديمة عن أقوام من سكنة خط الإستواء وما حوله.

(٣) هذا الكلام يصدق على الفلانيين –بالنون– وهم الذين يسمون الآن في بلادنا وفي السودان الشرقي وهو السودان العربي الذي عاصمته الخرطوم بالفلاته أو الفلاتين بالتاء المثناة.

ويعرف الآن أقوام من الفلانيين بالتكرولي وهذا لفظ فرنسي مأخوذ من لفظ (تكرور) القديم، ويطلق الآن على طائفة من الفلانيين أكثر ما يوجدون في جمهورية غينيا وفي شمال السنغال وجنوب موريتانيا.

(٤) لا يزال بعض الفلانيين بدواً وهم في الأصل من رعاة البقر المشهورين المعروفين بذلك.

وتشتمل على ثمان جُمل :

الجملة الأولى

في ذكر أقاليمها ومدنها :

وقد ذكر صاحب «العبر» أنها تشتمل على خمسة أقاليم، كل اقليم منها مملكة بذاتها.

الاقليم الأوّل :

مالّي :

وقد تقدَّم ضبطه. وهو اقليمٌ واسطة الأقاليم السبعة الداخلة في هذه المملكة. واقع بين اقليم صوصو[1] واقليم كوكو. صوصو من غربيّه، وكوكو من شرقيّه.

وقاعدته على ماذكره في «مسالك الأبصار» مدينة بَنْي[2].

قال في مسالك الأبصار: بالباء الموّحدة والنون ثم الباء الموحدة أيضًا[2].

قال: وهي ممتَّدة تقدير طول بريد في عرض مثل ذلك، ومبانيها متفرقة، وبناؤها بالبالستا. وهو أنه يُبنى بالطين بقدر ثلث ذراع، ثم يُترك حتى يجفّ، ثم يُبنى عليه مثله، وكذلك حتى ينتهي. وسقوفُها بالخشب والقصب، وغالِبُها قبابٌ أو جملونات كالأقباء[3]. وأرضهاتُراب مُرمل، وليس لها سور، بل

(١) صوصو، ناحية تقع على بعد ١٧٠ كيلو مترًا من العاصمة (باماكو) جهة الشمال ولم يبق منه إلا قرية تسمى بهذا الاسم فلعلها كانت عاصمة للناحية أو أن العاصمة تغيرت وبقي الاسم على هذه القرية المعروفة به في الوقت الحاضر.

(٢) هذا غلط مرجعه إلى تسمية قصر السلطان (بنبي) كما تقدم وأما عاصمة مالي القديمة فإن اسمها كان (يني) وتقع داخل حدود جمهورية غينيا على بعد ١٠ كيلو مترات من حدودها مع جمهورية مالي. وينبغي أن يلاحظ هنا أن مملكة مالي القديمة كانت واسعة جدًا كما هو مذكور هنا وفي غيره وأن جمهورية (مالي) الحالية لا تشتمل إلا على جزء من تلك المملكة القديمة الواسعة.

(٣) الأقباء: جمع (قبو) ويريد بالجمالونات جمع الجملون وهو سقف مسنم ويعرف الآن في مكة المكرمة بأنه يصنع من الصاج ونحوه.

يستدير بها عدَّة فروع من النيل من جهاتها الأربع، بعضُها يُخاض في أيام قلَّة الماء، وبعضها لا يُعبر فيه إلا في السفن. وللملك عدة قصور ويدور بها سورٌ واحد.

الاقليم الثاني.

صوصو :

بصادينْ مهملتينْ مضمومتين، بعد كُلٍّ منهما واو ساكنة. وربَّما ابدلوا الصاد سينًا مهملة، سُمَّي بذلك باسم سكانه.

قال في «العبر»: وهم يسمُّونها الانكارية[١].

وهو في الغرب عن اقليم مالي المقدّم ذكره، فيما ذكره في العبر عن بعض النقلة.

الاقليم الثالث.

بلاد غانة :

بفتح الغين المعجمة، وألف، ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر، وهي غربيّ اقليم صوصو المقدَّم ذكره، تُجاور البحر المحيط الغربي[٢].

وقاعدته (مدينة غانة) التي قد أضيفَ إليها.

---

(١) يعرفون الآن باسم (ونجرى) –بجيم مصرية– وقد هاجر بعضهم إلى غينيا.

(٢) غانة القديمة واقعة على ضفتي نهر السنغال الذي كان يسمى (نيل غانة) كما قال ابن سعيد المغربي: نيل غانة شقيق نيل السودان، ويصب في البحر المحيط الأعظم، ونيل السودان المراد به هنا (نهر النيجر) وكانت مملكة غانه القديمة تشتمل على جزء من غربي مالي الحالية وجزء من جنوب موريتانيا وأكثر جمهورية السنغال ماعدا جنوبها. وهو اسم على الاقليم كله وعلى عاصمته مثل (مالي) عندما زارها ابن بطوطة.
وليست جمهورية (غانا) الحديثة في موضع مملكة (غانة) القديمة وإنما اسماها أهلها وعلى رأسهم قوامي نكروما غانا تيمنا باسم مملكة غانة القديمة بعد أن كان اسمها الاستعماري (ساحل الذهب). وقد تغلبت مملكة (مالي) على (غانة) القديمة حتى احتوتها.

قال فـي تقويم الـبلدان: ومـوقعهـا خارج الأقـليم الأوَّل من الأقـاليم الـسبعـة إلى الجنوب. قال ابن سعيد: حيثُ الطول تسع وعشرون درجة، والعرض عشر درج.

قال في تقويم البلدان: وهي محلّ سلطان بلاد غانة.

وقد حـكى ابن سـعيد: أن لغـانة نيـلاً شقيـقَ نيل مصـر، يَصُبُّ في البـحر المحيط الغربي عند طول عشر درج ونصف، وعرض أربع عشرة[1]. واليها تسيـر التجَّار المغـاربة من سِجِلْماسة فـي برّ مُقْفِر ومفاوز عـظيمة فـي جنوب الغرب نحو خمسين يومًا. فيكون بين غانة وبين مصبّه نحو أربع درج. وهي مبنيَّة على ضفَّتي نيلها هذا.

قال في العبر: وكان أهلُها قد أسلموا في أول الفتح الإسلامي.

وقد ذكر في تـقويم البلدان أنها مديـنتان على ضفَّتيْ نـيلها احدهما يسـكنها المسلمون، والثانية يسكنها الكفَّار.

وقد ذكـر في «الـروض المعطـار»: أن لصـاحب غانـة مَعْلِفيْن مـن ذهب، يُربط عليهما فَرَسان له أيام مقعده.

الاقليم الرابع.

بلاد كوكو[2]:

وهي شرقي مالي المقدَّم ذكره.

---

(١) الذين نعرفه أن ابن سـعيد لم يقل إن (نيل غانة) هو شقيـق لنيل مصر وإنما قال: هو شقيق لـنيل السودان ونيل السودان هو نهر النيجر، ولـيس نيل مصر، ولاشك في أن مرجع الغلط هنا هو استعمـال اسم (النيل) للنهرين. وإن كان أسلافنا العرب يخصـون نهر النيجر بتسميته بنيل السودان ويخصون نهر النيل بأنه نيل مصر. عندما يتكلمون عليهما معًا هذا إذا لم يغلطوا كما غلط ابن بطوطة فظنوا أن نهر النيجر هو أصل نيل مصر.
ولا شك –أيضًا– فـي أن ابن سعيد يـقصد بنـيل غانة النـهر الذي يسمـى الآن (نهر السـنغال) لأن تسمـية هذا القطر بالسنغـال هي تسمية أوربية محدثة أول من سماهـا بها المكتشفون البرتغاليون الـذي كانوا قد وصلوا إلى هذه المناطق قبل غيرهم من الأوروبيين.

(٢) هي قاو كما سبق.

قال في «الروض المعطار»: وملكها قائم بنفسه، له حشم وقُوَّاد وأجناد وزيٌّ كامل. وهم يركبون الخيل والجمال[1]. ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم. قال: وبها ينبت عود الحيَّة، وهي عودٌ يُشبه العاقرِ قَرْحا، إلاَّ أنه أسود. من خاصتَّه أنه إذا وُضع على جُحْر الحيَّة خرجت إليه بسرعة. ومن أمسكه بيده أخذ من الحيات ما شاء من غير جزع يُدْرِكه أو يقع في نفسه. ثم قال: والصحيح عند أهل المغرب الأقصى أنَّ هذا العود إذا أمسكه ممسك بيده أو علَّقه في عنقه لم تقربه حيَّةُ البتَّة[2].

وقاعدتُه مدينة (كَوْكَوْ) بفتح الكاف وسكون الواو، وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها. وموقعها في الجنوب عن الاقليم الأول. قال ابن سعيد: حيث الطول أربع وأربعون درجة، والعرض عشر درج. قال: وهي مقرّ صاحب تلك البلاد. قال: وهو كافر، يُقاتل مَنْ غربيِّه من مسلمي غانة، ومَنْ شرقيِّه من مسلمي الكانم[3].

وذكر المهلّبي في «العزيزي»: أنهم مسلمون[4]. وبينهما وبين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف.

قال في «الروض المعطار»: وهي مدينة كبيرة على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال. يمرّ بها ويجاوزُها بأيام كثيرة. ثم يغوص في الصحراء في رمال كما يغوص الفرات في بطائح العراق[5].

---

(١) ركوبهم للجمال بسبب مجاورتهم للصحراء، بل إن (قاو) وهو (كاوكاو) في القديم واقعة في الصحراء لولا نهر النيجر مثلها في ذلك مثل بعض البلدان في صعيد مصر التي لولا قربها من ضفة النيل لعدت بلاداً صحراوية وكوكو في جمهورية مالي الآن.

(٢) لا يزال هذا العود معروفًا عندهم باسم (ساجري) ومعناه: شجرة الأفعى، فسا: تعني الأفعى و(جرى): شجرة بلغة البامبارا. وهذا العود موجود الآن حتى في باماكو.

(٣) هذا قبل اسلامه.

(٤) هذا يدل على أنهم أسلموا بعد زمن ابن سعيد. وأما تقدير المسافة فإنه صحيح.

(٥) الظاهر أن المقصود بهذا بحيرة (فاقبين) وأصل تسميتها بالسراقولية (فام منى) ومعناه: البحر الأسود، وهي على هيئة فرع يخرج من نهر النيجر، ويقف في الصحراء غرباً من مدينة تنبكتو.

قال ابن سعيد: وكَوْكَوْ في شرقيَّ النهر. ولباسُ عامَّة أهلها الجلود يسترون بها عوراتهم. وتُجَّارهم يلبسون الأكسية، وعلى رؤوسهم الكرازين، ولبس خواصهم الأزرق.

قال في «مسالك الأبصار» وسُكَّانها قبائل يرنان[1] من السودان.

الاقليم الخامس.

بلاد تكرور :

وهي شرقي بلاد كَوْكَوْ المقدَّم ذكره. ويليه من جهة الغرب مملكة البرنو المتقدمة الذكر[2]. وبها عُرفت هذه المملكة على كبرها واشتهرت[3].

وقاعدته (مدينة تكرور)، بفتح التاء المثناة فوق، وسكون الكاف، وضمّ الراء المهملة، وسكون الواو، وراء مهملة في الآخر.

قال في «الروض المعطار»: وهي مدينة على النيل على القرب من ضفافه أكبر من مدينة سلا من بلاد المغرب. وطعام أهلها السمك والذرة والألبان. وأكثر مواشيهم الجمال والمعز. ولباس عامة أهلها الصوف. وعلى رؤوسهم كرازين صوف. ولباس خاصتهم القطن والمآزر. قال: وبينها وبين سجلماسة من بلاد المغرب أربعون يوماً بسير القوافل. وأقرب البلاد إليها من بلاد لَمْتونة بالصحراء آسِفي بينهما خمس وعشرون مرحلة.

قال: وأكثر ما يُسافر به تُجَّار المغرب الأقصى اليها الصوف، والنحاس

---

(١) لانعرفها بهذا الاسم.

(٢) ربما يدل هذا على وجود مملكة أو سلطنة للفلانيين المعروفين بالتكرور. داخلة تحت طاعة سلطان (مالي) لم تعمر طويلاً وإن كان الذين يعرفون بالتكرولي من الفولانيين الآن موجودين في شمال السنغال وجنوب موريتانيا. وهذا مجرد افتراض.

(٣) ولا تزال بلاد البرنو معروفة بهذا الاسم حتى الآن.

والـخَرَز، ويخرجون منها بالتبر والخدم[١].

قلـتُ: وذكر في «مـسالك الأبـصار» أن هذه المـلكة تـشتمـل على أربـعة عشر اقليماً، وهي: غـانة، وزافون[٢]، وتُرنْكـا[٣]، وتكـرور، وسنغـانة[٤]، وبـانْبُغُو[٥]، وزرنطابـنا[٦]، وبيـترا[٧]، ودمـورا[٨]، وزاغـا[٩]، وكابـرا[١٠]، وبـراغـوري[١١]، وكَوْكَوْ، ومالّي. فذكـر أربعة من الأقاليـم الخمسة المتـقدَّمة الذكر. وأسقط اقليم صوصو، وكأنها اضمحلت[١٢]، وزاد باقي ذلك. فيحتمل أنها انضافت إلى صحابها يومئذ بالفتح والاستيلاء عليها[١٣].

قال في «مسالك الأبصار»: وفي شماليّ بـلاد مالي قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها: وهم نيتصر[١٤]، ونيغراسن[١٥]، ومديونة[١٦]، ولمتونة.

---

(١) لا تعـرف هذه المدينـة الآن بهذا الاسم، كـما ذكر أهل الـبلاد ومنهم الشيـخ محمد بـيللو صـاحب كتاب «إنـفاق الميسور..» وقد نقلنا كلامه في هذا الموضوع في المقدمة.

(٢) زافون: قرية واقعـة الآن غربي باماكو شمال النهـر على بعد مائة كيلو مـتر تقريباً من نهر النيـجر، اسمها الآن (جافون) قال لي صديقنا الشيخ عبدالوهاب الدكوري: إن اجداده كانوا من منطقة (جافون).

(٣) تعرف الآن باسم (تر نقمبي) وهي في الشمال الغربي من (باماكو).

(٤) هي سنغي أو سنغاي التي عاصمتها (قاو) وكانت مملكة الاسكيا من السنغي تسمى (مملكة سنغي).

(٥) بابنغو: سلطنة لا تزال تعرف الآن بهذا الاسم تقع شرقي باماكو فيما بينها وبين سيقو.

(٦) غير معروفة ولعلها (كُرَطا) وهي ناحية واقعة إلى الشمال الغربي من (باماكو).

(٧) بيترا: غير معروفة. وربما كانت تنيرا بمعنى الصحراء بلغة الطوارق.

(٨) لم يعرفها أهل المنطقة الذين سألتهم عنها.

(٩) لا تزال (زاغا) معـروفة باسمها الـقديم لم يتغير، وتـقع على بعد حـوالي ٢٠ كيلو مترا شـمال نهر النيـجر، بعد مدينتي سيقو وموبتي.

(١٠) معروفة الآن باسم (كَبَرى) في غرب مدينة تنبكتو.

(١١) لا يعـرف الآن في جمـهورية (مـالي) بلـدة أو منطـقة بهـذا الاسم ويقـول الأستاذ الـدكوري: إنهـا الآن خارج جمهورية مالي في منطقة تتقاسمها جمهوريات فولتا العليا (بوركينا فاسو) وبنين والنيجر.

(١٢) وجودها حتى الآن باسم (صوصو) يدل على أنها لم تضمحل ولعل أهميتها أو السلطة الاقليمية فيها هي التي اضمحلت وبقيت البلدة التي هي قاعدتها باقية باسمها القديم.

(١٣) هذه تقسيمات إدارية داخلية وإلا فإن أكثـرها معروف أنه داخـل في مملكـة مالي منذ الـقديم، ولم نضم إلـيها حديثًا بالفتح كما استظهر القلقشندي.

(١٤) ربما كانت محرفة عن (كلنصر).

(١٥ ، ١٦) نيتغراسن ومديونة لم نهتد إلى الاسم الحالي لهما.

ولهم أشياخ تحكم عليهم إلا نيتصر. فإنهم يتداولهم ملوك منهم تحت حكم صاحب مالي.

قال: وكذلك في طاعته قومٌ من الكفَّار بعضهم يأكل لحم الآدميين.

ونقل عن الشيخ سعيد الدُكَّالي: أن في طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب، وهم بلاد همج. وعليهم اتاوة من التبر تُحمل اليه في كل سنة. ولو شاء أخَذَهم. ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه ما فُتحت مدينة من هذه المدن وفشا بها الإسلام، ونطق بها داعي الأذان، إلا قلَّ بها وجود الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم ويزداد فيما يليه من بلاد الكفَّار. فرضوا منهم ببذل الطاعة وحمل ما قُرِّر عليهم[1].

وذكر نحو ذلك في «التعريف» في الكلام على غانة.

الجملة الثانية :

في الموجود بهذه المملكة :

قد ذكر في (مسالك الأبصار) عن الشيخ سعيد الدُكَّالي أن بها الخيل من نوع الأكاديش التتريَّة. قال: وتجلبُ الخيلُ العِراب إلى ملوكهم يتغالون في أثمانها، وكذلك عندهم البغال والحمير والبقر[2] والغنم، ولكنها كلّها صغيرة الجُثَّة، وتلد الواحدة من المعز عندهم السبعة والثمانية، ولا مرعى لمواشيهم إنما هي جلالة على القمامات والمزابل[3]. وبها من الوحوش الفيلة والآساد

---

(١) المراد بنقص الذهب في البلاد التي يدخلها الإسلام استنفاده بكثرة التعدين واستخراج الذهب من الأرض بخلاف البلاد التي أهلها من الهمج بمعنى البدائيين، فإن وسائلهم لاستخراج الذهب قاصرة، واستخراجهم له قليل.

(٢) البقر هنا منه ماهو كبير. وما هو متوسط أو صغير، وبخاصة في منطقة (باماكو) وأما شمال البلاد فإن بقره كبير. وأما الضأن من الغنم فإنها قسمان كبير وصغير وكله موجود لديهم الآن. أما الماعز فأكثرها في جنوب الصحراء وهي صغيرة جداً.

(٣) هذا غير صحيح، ولا يمكن أن يعيش العدد الكثير من المواشي على المزابل، وربما يكون قد شاهد مواشي بعض المدن تكون كذلك لأن مزابلهم تكون فيها أوراق الأشجار وإلا فإن (مالي) معروفة في الوقت الحاضر بكثرة إنتاج الماشية إذْ تكتفي بإنتاج اللحوم وتصدر الماشية إلى عدة بلدان مجاورة.

والنمورة، وكلّها لا تؤذي من بني آدم إلاّ من تعرَّض لها. وعندهم وحش يُسمَّى تُرُمّي(١) بضم التاء المثناة والراء المهملة وتشديد الميم، في قدر الذئب، يتولّد بين الذئب والضبع لا يكون إلا خُنْثى له ذكر وفرج، متى وجد في الليل آدميًا صغيرًا أو مُراهقًا أكله. ولا يتعرَّض إلى أحد في النهار وهو ينعر كالثور، وأسنانه متداخلة.

وعندهم تماسيحُ عِظامٌ منها مايكون طوله عشرة أذرع وأكثر. ومرارته عندهم سمٌ قاتل تُحمل إلى خزانة ملكهم.

وعندهم بقر الوحش، وحمير الوحش والغزلان(٢).

وفيما يُسامتُ سِجلماسة من بلادهم جواميسُ متوحشة تُصاد كما يُصاد الوحش.

وبها من الطيور الدواجن الإوزّ والدجاج والحمام.

وبها من الحبوب الأرز والغوثي(٣)، وهو دق مُزغب، يُدرسُ فيخرج منه حب أبيض شبيه بالخردل في المقدار أو أصغر منها. فيغسل ثم يُطحن ويُعمل منه الخبز. وهذا الحب هو والأرز هما غالب قوتهم.

وعندهم الذرة. وهي أكثر حبوبهم، ومنها قوتُهم وعليق خيولهم ودوابهم، وعندهم الحنطة على قِلَّة فيها.

أما الشعير فلا وجود له عندهم البتة.

وعندهم من الفواكة البستانية الجِميْزُ وهو كثير لديهم، وعندهم أشجار

---

(١) لا يزال معروفًا باسم (تُرُومِّي) وهو نوع من الضباع المحلية.

(٢) لا يزال عرب هذه المنطقة الذين يعيشون على حدود الصحراء يسمون تلك الأصناف من الصيد الوحش وقد يخصصون الظباء بنعت الوحش.

(٣) الصحيح (الفوني) ويسميه المعاصرون من أهل المنطقة. فونو، كما سبق. وهو كما وصفه، وقد أكلت منه مرارًا في المنطقة فوجدت الطعام يصنع منه ويقدم للأكل أشبه شيئ بالكسكسو.

بريَّة ذوات ثمار مأكولة مستطابة، منها شجرٌ يُسمى تادموت[1] يحمل شيئًا مثل القواديس كبرًا، في داخلها شيء شبيه بدقيق الحنطة، ساطع البياض، طعمه مُرٌ لذيذ يأكلون منه، وإذا جفّ جعلوه على الحنّاء فيسوّده كالنوشادر.

ومنها شجر يُسمَّى زبيزور تخرج ثمرته مثل قرون الخرّوب فيخرج منها شيءُ شبيه بدقيق الترمس حلوٌ لذيذُ الطعم، له نوىً[2].

ومنها شجر يُسمّى قومي يحمل شبيه السفرجل، لذيذ الطعم يشبه طعم الموز، وله نوى شبيه بغضروف العظم يأكله بعضهم معه.

ومنها شجر اسمه قاريتي[3] حمله شبيهٌ بالليمون، وطعمه يشبه طعم الكمثري، بداخله نوىً مُلحم، يؤخذ ذلك النوى وهو طريٌ فيطحن فيخرج منه شيء شبيه بالسمن يجمدُ وتُبَيَّضُ به البيوت وتوقدُ منه السُرُج، ويُعمل منه الصابون، وإذا قُصد أكلُه وُضع في قدرٍ على نارٍ ليِّنة. ويُسقى الماء حتى يقوى غليانه وهو مغطّى الرأس، ويُسارق كشف الغطاء في افتقاده، فإنه متى كُشف القدرُ فار ولحق بالسقف. وربَّما انعقد منه نار فأحرق البيت، فإذا نضِج بُرِّد، وجُعل في ظروف القَرْع، وصار يُستعمل في المأكل كالسمن. ومتى جُعل في غير ظروفِ القَرْعِ من الآنية خرقها[4].

ويوجدُ بها من الثمرات البريَّة ما هو شبيه بكل الفواكه البستانية على اختلاف أنواعها، ولكنَّها حرِيفة لا تُستطاب يأكلها الهمجْ من السودان، وهي قوتُ كثير منهم.

---

(١) تعرف هذه الأشجار باللهجة الموريتانية المسماة بالحسانية بلفظ (تيدوم) ويسمى الدقيق المستخرج منها تيجمغت وتسمى أوراقها (تغمة).

(٢) لم نعرفه.

(٣) هو (القرتي) الذي سبق الكلام عليه.

(٤) هذا كان في القديم، وقد تطورت طريقة استخراج الزيت منه فأصبح يستخرج في مصانع أحدها مشهور أقيم في (كو ليكورو) على بعد ٥٠ كيلو متر من باماكو.

وبها من الخضروات اللوبياء، واللفْت، والثوم، والبصل، والباذنجان، والكرنب، أما الملوخيَّة فلا تطلع عندهم إلاَّ بريَّة. والقرعُ عندهم بكثره[1]. وعندهم شيء شبيه بالقلقاس، يُزرع في الخلاء، فإن سرق منه سارق قطع الملك رأسه وعلَّقه مكان ما قطع منه. عادةٌ عندهم يتوارثونها خلفًا عن سلف، لا توجدُ فيها رخصة، ولا تنفع فيها شفاعة[2].

وجبالها ذوات أشجار مشتبكة، غليظة السوق إلى الغاية، تظل الواحدةُ منها خمس مئة فارس.

وفيها بِغانة، وما وراءها في الجنوب من بلاد السودان الهمج معادنُ الذهب[3].

وقد حكى في (مسالك الأبصار) عن الأمير أبي الحسن عليّ بن أمير حاجب عن السلطان منسا موسى سلطان هذه المملكة: أنه سأله عند قدومه الديار المصريَّة حاجًا، عن معادن الذهب عندهم – فقال:

توجد على نوعين: نوع في زمان الربيع ينبُت في الصحراء، له ورق شبيه بالنخيل، أصوله التبر[4]. والثاني يوجد في أماكن معروفة على ضفَّات مجاري النيل، تُحفر هناك حفائر فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى، فيؤخذ.

قال: وكلاهما هو المسمَّى بالتبر.

---

(١) لا تزال الملوخية البرية كثيرة في مالي يأكلها الناس كذلك، ولا يحتاجون إلى زراعتها لهذا السبب، وهي تعرض للبيع في سوق باماكو وتنبكتو.

(٢) لا تعرف هذه العادة في الوقت الحاضر.

(٣) يريد بالهمج الذين ليست لهم ديانة سماوية ولا أعراف اجتماعية مدنية، وكلامه قبل أن يتعلم أهل تلك البلاد، ويصبحوا مثل غيرهم كما هو ظاهر.

(٤) ذلك لكون مياه السيول تكشف عنه في الصحراء عند جريانها وليس لكونه ينبت نباتًا كما هو واضح.

ثم قال: والأوَّل أفحلُ في العِيار وأفضلُ في القيمة.

وذكر في «التعريف» نحوه.

وذكر عن الشيخ عيسى الزواوي عن السلطان منسا موسى المقدَّم ذكره أيضًا أنه يُحفر في معادن الذهب كلّ حفيرة عمق قامة أو ما يُقاربها، فيوجد الذهبُ في جنبَاتها. وربَّما وُجد مجتمعًا في سُفْل الحفيرة. وأنَّ في مملكته أممًا من الكفَّار لا يأخذ منهم جزية، إنما يستعملهم في إخراج الذهب من معادنه[1].

ثم قد ذكر في «مسالك الأبصار» أن النوع الأوَّل من الذهب يوجد في زمن الربيع عقيب الأمطار ينبُت في مواقعها[2] والثاني يوجد في جميع السنة في ضفَّات مجاري النيل.

وذكر في «التعريف»: أنَّ نبات الذهب بهذه البلاد يبدأ في شهر (أغشت) حيث سلطان الشمس قاهر، وذلك عند أخذ النيل في الارتفاع والزيادة. فإذا انحطَّ النيل تُتُبِّعَ حيث ركب عليه من الأرض، فيوجد منه ما هو نبات يشبه النخيل وليس به، ومنه ما يوجد كالحصى، فجعل الجميع مما يحدث في هذا الزمن في أماكن النيل خاصَّة، وفيه مخالفةٌ لما تقدَّم. بل قد قال: إنَّ شهر أغشت الذي يطلعُ فيه الذهب، وهو من شهور الروم، ويقع، والله أعلم، أنه يركّب من تمُّوز وآب، يعني من شهور السريان. وهذا غلط فاحش. فقد تقدَّم في المقالة الأولى أن شهور الروم منطبقة على شهور السريان في الابتداء والانتهاء، دون ابتداء أوَّل السنة. وشهر أغشت من شهور الروم هو شهر آب من شهور السريان بعينه.

---

(١) هؤلاء من أهل الأقاليم الجنوبية في مالي، وبعضهم لا يزال وثنيًا، أو لنقل -بتعبير المحدثين- إنه بدائي.

(٢) تقدم التعليق عليه قريبًا بأن ذلك لكون مياه السيول تكشف عنه عند جريانها.

ثم قد حكى في «مسالك الأبصار» عن والي مصر عن منسا موسى المقدَّم ذكره أنَّ الذهب ببلاده حِمىً له، يُجمع له متحصِّله كالقطيعة، إلاَّ ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة.

وحكى عن الشيخ سعيد الدُّكَّالي أنه إنما يُهادي بشيء منه كالمصانعة، وأنَّه يتكسَّبُ عليهم في المبيعات لأن بلادهم لا شيء بها.

ثم قال: وكلام الدُّكَّالي أثبت، وعليه ينطبق كلامه في التعريف حيث ذكر غانة. ثم قال: وله عليها إتاوة مقررَّة تُحمل إليه في كلِّ سنة.

وبهذه البلاد أيضًا معدن نُحاس، وليس يوجد في السودان إلا عندهم. قال الشيخ عيسى الزواوي: قال لي السلطان موسى إنَّ عنده في مدينة اسمها «نكوا» معدن نحاس أحمر، يجلب منه قضبان إلى مدينة بَنْي[1] قاعدة مالّي، فيبعث منه إلى بلاد السودان والكفَّار، فيُباع وزن مثقال بثُلُثَي وزنه من الذهب، يُباع كلَ مئة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً، وثلثي مثقالٍ من الذهب.

وبهذه البلاد مَعْدِن مِلْح[2]، وليس في شيء من السودان الوالجين في الجنوب والمسامتين لسِجلْماسة وما وراءها ملحٌ سواه. قال المقرُّ الشهابي بن فضل الله حدَّثني أبو عبدالله بن الصائغ أنَّ الملح معدوم في داخل بلاد السودان. فمن الناس من يُغَرِّر ويصلُ به إلى أناس منهم يبذلون نظير كلِّ صُبْرة ملح مثله من الذهب. قال ابن الصائغ: وحُدِّثتُ أنَّ من أمم السودان الداخلة مَنْ لا يظهر لهم، بل إذا جاء التجار بالملح وضعوه ثم غابوا، فيجيء السودان فيضعون إزاءه الذهب. فإذا أخذ التجار الذهب أخذ السودان الملح[3].

(١) الصحيح (يني) بالياء المثناة.
(٢) الصحيح: معادن ملح، وكلها في الصحراء، ومعادن الملح القديمة توجد الآن في جمهوريتي النيجر ومالي.
(٣) ربما كان هذا خوفًا من أن يختطفهم التجار فيسترقونهم ويبيعونهم عبيدًا. كما جرت العادة في الاسترقاق في بعض المناطق الإفريقية.

قال في مسالك الأبصار: قال لي الدُكَّالي: وأهل هذه المملكة كثيرٌ فيهم السحر، ولهم به عناية، حتى إنهم في بلاد الكفَّار منهم يصيدون الفيل بالسحر حقيقةً لا مجازًا، وفي كُلِّ وقت يتحاكمون عند ملكهم بسببه ويقولُ أحدهم: إن فلانًا قَتَلَ أخي أو ولدي بالسحر، والسلطان يحكم على القاتل بالقصاص وقتلِ الساحر.

وحكى عنه أيضًا أنَّ السموم بهذه المملكة كثيرة، فإن عندهم حشائش وحيوانات يركّبون منها السموم القتَّالة، ولا سيَّما من سمكٍ يوجد عندهم.

قال الشيخ سعيد الدُكَّالي: ومن خصيصة هذه البلاد أن يُسْرِع فيها فسادُ المدَّخرات، لا سيِّما السَّمْن، فإنه يفسد ويُنتِنُ فيها في يومَيْن.

الجملة الثالثة.

في معاملة هذه المملكة :

ذكر في مسالك الأبصار عن ابن أمير حاجب: أن المعاملة عندهم بالوَدَع، وأنَّ التجَّار تجلبه اليهم كثيرًا، فتربح فيه الربح الكثير. كأن هذا في المعاملات النازلة من مثل المآكل وما في معناها، وإلاَّ فالذهب عندهم على ما تقدَّم من الكثرة.

الجملة الرابعة.

في ذكر ملوك هذه المملكة :

قد تقدَّم أنَّ هذه المملكة قد اجتمع بها خمسة أقاليم: وهي: اقليم مالّ، وإقليم صُوصُو، وإقليم غانة من الجانب الغربيّ عن مالي، وإقليم كُوْكُوْ وإقليم تكرور في الجانب الشرقي عن مالي، وأنَّ كلَّ إقليم من هذه الخمسة كان مملكة مستقَّلة، ثم اجتمع الكُلُّ في مملكة صاحب هذه المملكة. وأن مالّي هي أصل مملكته.

قال في مسالك الأبصار: وهو وإن غلب عليه عند أهل مصر اسم سلطان التكرور فإنه لو سمع هذا أنِفَ منه، لأن التكرور إنَّما هو إقليم من أقاليم مملكته، والأحبّ إليه أن يُقال صاحب مالّي، لأنه الاقليم الأكبر، وهو به أشهر.

ونقل عن الشيخ سعد الدُكَّالي. إنه ليس بمملكته مَنْ يُطلق عليه اسم ملك إلاَّ صاحب غانة، دون غيره لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاءً كُليًا. فقد قال في «التعريف»: وأمَّا غانة فإنه لا يملكها وكأنه مالكُها، يتركها عن قُدرة عليها، لأن بها وبما وراءها جنوبًا منابت الذهب[1]. وذكر ما تقدَّم من أن بلاد منابت الذهب متى فشا فيها الإسلام والأذانُ، عُدِمَ فيها نباتُ الذهب. وصاحب مالّي يتركها لذلك لأنه مسلم، وله عليها إتاوة كبيرة مُقرّرة تُحمل إليه في كُلّ سنة.

وقد ذكر صاحب العبر أنَّ هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة، وكان من أعظمها مملكة غانة. فلما أسلم الملثّمون من البربر تسلّطوا عليهم بالغزو حتى دان كثيرٌ منهم بالإسلام، وأعطى الجزية آخرون، وضَعُفَ بذلك مُلْكُ غانة واضمحلّ، فتغلّب عليهم أهل صُوصُو المجاورون لهم، وملكوا غانة من أيدي أهلها. وكان ملوكُ مالي قد دخلوا في الإسلام منذ زمن قديم.

قال: ويُقال إنَّ أوَّل مَنْ أسلم منهم مَلِكٌ اسمه (بَرَمِنْدانَة) بباء مُوَّحدة وراءٍ مُهملة مفتوحتين، وميم مكسورة، ونونٍ ساكنة ودالٍ مهملة بعدها ألف، ثم نونٌ مشدّدة مفتوحة وهاءٌ في الآخر فيما ضبطه بعضُ علمائهم. ثم حجّ بعد اسلامه فاقتفى سنته في الحجّ ملوكهم من بعده.

---

(١) يريد بذلك جهة جنوب غينيا وسيراليون وغانا الحديثة التي كانت تسمى قبل استقلالها ساحل الذهب وهي بعيدة جدًا جهة الجنوب عن موقع (غانة) القديمة وإنما سميت بذلك تيمنًا باسم (غانة) القديمة وتخليدًا لذكرها كما سبق.

ثم جاء منهم ملك اسمه (ماري جاظة)[1]، ومعنى (ماري) الأمير الذي يكونُ من نسل السلطان، ومعنى (جاظة) الأسد. فقوي مُلْكُهُ وغلب على صُوصُو، وانتزع ما كان بأيديهم من مُلْكهم القديم ومُلْك غانة الذي يليه إلى البحر المحيط. ويُقال إنَّه ملك عليهم خمسة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ابنه (مَنْسا ولي). ومعنى (مَنْسا) بلغتهم السلطان. ومعنى (ولي) عليَ[2]. وكان من أعظم ملوكهم وحَجَّ أيام الظاهر بيبرس صاحب مصر.

ثم ملك من بعده أخوه (والي).

ثم ملك من بعده أخوه (خليفة)، وكان أحمق، يغلبُ عليه الحمقُ فيرمي الناس بالسِّهام فيقتلهم، فوثب به أهلُ مملكته فقتلوه.

وملك بعده سِبْطٌ من أسباط (ماري جاظة) المقدَّم ذكره، اسمه (أبو بكر) على قاعدة العجم في تمليك البنْتِ وابنِ البِنْتِ.

ثم تغلّب على المُلْك مولى من مواليهم اسمه (ساكَبُورة). ويُقال (سيكُرُه)، فاتَّسع نِطاق مملكته، وغلب على البلادِ المجاورة له. وفَتحَ بلاد كَوْكَوْ، واستضافها إلى مملكته، واتصل ملكُه من البحر المحيط الغربيّ إلى بلاد التَّكْرُور، فقوي سلطانه، وهابه أمم السودان، ورحل إليه التجَّار من بلاد الغرب وافريقية. وحجّ أيَّام السلطان الملك الناصر (محمد بن قلاوون) ورجع فقُتِل إثر عَوْدِه.

وملك بعده (قو)[3] بن السلطان (ماري جاظة).

---

(١) معنى (ماري جاطة) بالطاء المهملة: أسد مالي، وينطق بها في لغتهم الآن (ماري جاتا) بالتاء.

(٢) يقول الشيخ عبدالوهاب الدكوري: معنى ولي أحمر وليس بعلي فمعنى اسمه. هو: السلطان الأحمر.

(٣) يجب أن تلفظ «جو» بالجيم الفارسية.

ثم ملك من بعده (محمد بن فو). ثم انتقل الملك من ولد (ماري جاطة) إلى ولد أخيه أبي بكر.

فولي منهم (مَنْسا موسى) بن أبي بكر، وقال في العبر: وكان رجلاً صالحًا، وملكًا عظيمًا، له أخبار في العدلِ تؤثرُ عنه. وعظُمت المملكةُ في أيامه إلى الغاية، وافتتح الكثير من البلاد.

قال في «مسالك الأبصار»: حكى ابنُ أمير حاجب والي مصر عنه أنه فتح بسيفه وحده أربعًا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع.

قال في «مسالك الأبصار»: قال ابن أمير حاجب: سألتُه عن سبب انتقال الملك إليه فقال: إنَّ الذي قبلي كان يظنّ أن البحر المحيط له غاية تُدرك. فجهز مئين سفن، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر مَنْ فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادُهم. فغابوا مدَّةً طويلة ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها، فسأله عن أمرهم، فقال: سارت السفن زمانًا طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجّة وادٍ له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب، وكنتُ آخر القوم فرجعتُ بسفينتي.

فلم يصدّقه، فجهّز ألفَيْ سفينة، ألفًا للرجال وألفًا للأزواد، واستخلفني، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك. فكان آخر العهد به وبمن معه[1].

قال في «العبر»: وكان حجّه في سنة أربع وعشرين وسبع مئة في الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون».

---

(١) هذا يدل على أنهم فكروا قبل الأوروبيين في اجتياز المحيط الأطلسي الذي يفصل بين العالم القديم والعالم الجديد، مدفوعين بحب المعرفة وليس بالطمع في أفاويه الهند الغالية في أوروبا في ذلك الوقت الذي حدا بالأوروبيين إلى اجتياز المحيط، وظني أن ما ذكره عن الجرية في البحر التي يقول إنها واد ابتلع السفن إما أن يكون إعصاراً معتاداً، وأن يكون ذلك من باب الخيال وإنما نفد الزاد والاستعداد الذي مع أهل السفن فهلكوا.

قال في «مسالك الأبصار»: قال لي المهمندار: خرجتُ لملتقاه من جهة السلطان، فأكرمني إكراماً عظيماً وعاملني بأجمل الآداب، ولكنه كان لا يُحدثني إلاَّ بترجمان مع إجادة اللسان العربي.

قال: ولما قدِم قدم للخزانة السلطانية حِمْلاً من التبْر، ولم يترك أميرًا ولا ربَّ وظيفة سلطانيَّة إلاَّ وبعث إليه بالذهب.

وكنت أحاوله في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية فيأبى، خشية تقبيل الأرض للسلطان، ويقول: جئتُ للحج لا لغيره، ولم أزل به حتى وافق على ذلك.

فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له: قَبِّل الأرض. فتوقف وأبى إباءً ظاهرًا وقال: كيف يجوز هذا؟

فأسَرَّ إليه رجلٌ كان إلى جانبه كلامًا – فقال:

– أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني.

ثم سجد.

وتقدم إلى السلطان، فقام له بعض القيام، وأجلسه إلى جانبه وتحدّثا طويلاً.

ثم قام السلطان موسى، فبعث إليه السلطان بالخِلع الكاملة له ولأصحابه، وخيلاً مُسْرَجة ملجمة. وكانت خلعته طَرْدَ وَحْشٍ بقصبٍ كثير، بسِنْجاب مُقَنْدَس، مطرّز بزَرْكش، على مفرج اسكندري، وكلّوته زِرْكش، وكلاليب ذهب، وشاش بحرير، ورَقْم خليفتي، ومنطقة ذهب مرصّعة، وسيف مُحلّى، ومنْديل مُذْهب خزّ، وفرسيْن ملْجَمَيْن بمراكب وبغل محلاَّة، وأعلام، وأَجرى عليه الأنزال والإقامات الوافرة مدَّة مقامه.

ولمَّا آن أوان الحجّ بعث إليه بمبلغ كبير من الدراهم، وهُجُن جليلة كاملة الأكوار والعُدَّة لمركبه، وهُجن أتباع لأصحابه، وأزوادٍ جمَّة، وركز له العليق في الطرق، وأَمر أمير الركْب بإكرامه واحترامه.

ولما عاد بعث إلى السلطان من هدية الحجاز تبرّكًا، فبعث إليه بالخلع الكاملة له ولأصحابه، والتحف والألطاف من البزّ السكندري والأمتعة الفاخرة، وعاد إلى بلاده.

وذكر عن ابن أمير حاجب والي مصر أنَّه كان معه مئة حمل ذهبًا أنفقها في سَفْرَته تلك على مَنْ بطريقه إلى مصر من القبائل، ثُمَّ بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز، توجهًا وعَوْدًا حتى احتاج إلى القَرْض، فاستدان على ذمته من تُجَّار مصر بمالهم عليه فيه المكاسب الكثيرة، بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلاث مئة دينار سبع مئة دينار، ربحًا. وبعث إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده.

قال في «العبر» ويُقال إنَّه كان يحمل آلته اثنا عشر ألف وصيفة لابساتٍ أقبية الديباج.

قال في «مسالك الأبصار»: وذكر لي عنه ابنُ أمير حاجب أنه حكى له أنَّ من عادة أهل مملكته أنَّه إذا نشأ لأحدٍ منهم بنت حسناء، قدَّمها له أَمَةً موطوءة. فيملكها بغير تزويج، مثل مُلْكِ اليمن(١). فقلتُ له: إنَّ هذا لا يحلّ لمسلمٍ شَرْعًا.

فقال: ولا للملوك؟

فقلت: ولا للملوك، وأسأل العلماء(٢).

(١) هذا تحريف صوابه: اليمين. وملك اليمين. كما هو معروف – أن تكون الجارية مملوكة للشخص.

(٢) لا تزال بقايا هذه العادة موجودة حتى الآن في المنطقة إذْ يقدم بعض الناس بناتهم هدايا لمن يتوسمون فيهم =

فقال: والله ما كنتُ أعلمُ ذلك. وقد تركتُه من الآن.

قال في «العبر»: ودام مُلكُه عليهم خمساً وعشرين سنة ومات.

فملك بعده ابنه (منسا مَغَا). ومعنى (مَغَا) عندهم (محمد). يعنون السلطان محمد. ومات لأربع سنين من ولايته.

وملَكَ بعده أخوه (مَنْسا سليمان) بن أبي بكر، وهو أخو منسا موسى المقدَّم ذكره.

قال في «مسالك الأبصار»: واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السودان، وأضافه إلى بلاد الإسلام، وبنى به المساجد والجوامع والمنارات، وأقام به الجُمع والجماعات والأذان، وجلَبَ إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وتفقه في الدين.

قال في «العبر»: ودام مُلْكُه أربعًا وعشرين سنة، ثم مات.

وولي بعده ابنه (قنبتا[٢] بن سليمان) ومات لتسعة أشهر من مُلْكه.

وملك بعده (ماري جاطة) بن منسا مَغَا بن منسا موسى. فأقام أربع عشرة سنة أساء فيها السيرة، وأفسد مُلْكَهُم، وأتلف ذخائرهم بسرفه وتبذيره، حتى انتهى به الحالُ في السَّرف أنَّه كان بخزائنهم حجر ذَهبٍ زنته عشرون قنطارًا منقولاً من المعدن من غير مَسْبك ولا علاجٍ بالنار. وكانوا يرونْه من أنفَسِ ذخائرهم لندور وجود مثله في المعدن. فباعه على تُجَّار مصر المتردِّدين عليه بأبخس ثمن، وصرَف ذلك كله في الفسوق. وكان آخر أمره أن أصابته علَّةُ النومْ - وهو مَرَض كثيرًا ما يصيبُ أهلَ تلك البلاد - لا سيمًّا الرؤساء

(=) الصلاح والدين من العلماء وأعرف منهم شخصًا اعترف لنا بذلك وأنه تقبل أولئك البنات واعتبرهن من مُلك اليمين لذلك أخذهن للفراش زيادة على نساءٍ له أربع من الحرائر وقد قل ذلك الآن.

(٢) معناه في لغتهم «الضخم الرقبة».

منهم، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يفيق[1]. فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبع مئة.

وملك بعده ابنه (موسى) فنكب عن طريق ابيه، وأقبل على العدْلِ وحُسْنِ السيرة.

وتغلَّب على دولته وزيره (ماري جاطة). فحجره وقام بتدبير الدولة، وكان له فيها أحسنُ تدبير، وبقي مَنْسا موسى حتى مات سنة تسع وثمانين وسبع مئة.

ومَلَكَ بعده أخوه (منسا مَغَا)، وقُتِل بعده بسنةٍ أو نحوها.

وملك بعده (صندكي) زوجُ أمّ موسى المقدَّم ذكره. ومعنى صندكي الوزير. ووثب عليه بعد أشهر رجلٌ من بيت ماري جاطة.

ثم خرج من ورائهم من بلاد الكَفَرَة رجلٌ اسمه محمد يُنسب إلى (منساقو[2]) ابن منسا ولْي، بن ماري جاطة. ولقبه منسا مغا. وغلب على الملك في سنة ثلاث وتسعين وسبعماية.

قال في التعريف: وصاحب التكرور هذا يدَّعي نَسَبًا إلى عبدالله بن الصالح، بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجوههم.

قلتُ: هو صالح بن عبدالله بن موسى بن عبدالله أبي الكِرام، بن موسى الجَوْن، بن عبدالله بن حسن المُثَنَّى بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد ذكر في «تقويم البلدان» أنَّ سلطان غانة يدِّعي النسب إلى الحسن بن

(١) هو مرض النوم المعروف يسببه لدغ ذبابة (تسي تسي).

(٢) كذا «قو» وتلفظ القاف مثل الجيم الفارسية كما مر.

عليّ عليهما السلام، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة، لأنَّ من جملة مَنْ هو في طاعته غانة، أو مَنْ كان بها في الزمن القديم قبل استيلاء أهل الكفر عليها.

الجملة الخامسة.

في أرباب الوظائف بهذه المملكة :

قد ذكر في «مسالك الأبصار» أنَّ بهذه المملكة: الوزراء، والقُضاة، والكتاب، والدواوين. وأنَّ السلطان لا يكتُب شيئًا في الغالب، بل يَكِلُ كُلَّ أَمْرٍ إلى صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصله. وكتابتهم بالخطّ العربيّ على طريقة المغاربة.

الجملة السادسة.

في عساكر سلطان هذه المملكة وأرزاقهم :

أمَّا مقدار العساكر فقد ذكر الشيخ سعيد الدُكَّالي أنَّ مقدار عسكره مئة ألف نفر، منهم خيالة نحو عشرة آلاف فارس، وباقيهم رَجَّالة لا خَيْل لهم.

وأمَّا الإقطاعات لأمراء هذا السلطان وجنده والانعامات عليهم فقد قال الدُكّالي: إنَّ من أكابرهم مَنْ يبلغ جملة ماله على المِلك في كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب، وأنه يتفقّدهم مع ذلك بالخيل والقماش، وأنَّ همَّته كلّها في تجميل زيّهم وتمصير مُدُنهم.

الجملة السابعة.

في زي أهل هذه المملكة :

قال الدُكّالي: لباسُهم عمائم بحنكٍ مثل العرب، وقماشهم بياضٌ من ثياب قطن تُنسَجُ عندهم في نهاية الرقة واللطف تُسَمَّى الكميصا. ولبسهم شبيه

بلبس المغاربة: جبابٌ ودراريع بلا تفريج، والأبطالُ من فرسانهم تلبس أساور من ذهب. فمن زادت فروسيته لبس معها أطواقًا من ذهب، فإذا زادت لبس مع ذلك خلاخل من ذهب. وكُلَّما زادت فروسيَّة البطل ألبسه الملك سراويل مُتَّسعة. وسروايلاتهم ضيّقة أكمام الساقين، متسعة الشرج.

وأهل هذه المملكة يركبون بالسروج، وهم في أغالب أحوالهم في الركوب كأنهم من العرب، إلاَّ أنَّ هؤلاء يبدأون في الركوب بأرجلهم اليمنى بخلاف غيرهم من سائر الناس جميعًا. ولا يُعرف عندهم ركوب جَمَلٍ بكور.

الجملة الثامنة.

في ترتيب هذه المملكة :

أمَّا جلوس السلطان في قصره فإنه يجلس على مصطبة كبيرة على دكة كبيرة من ابنوس، كالتخت، على قدر المجلس العظيم المتَّسع، عليها أنيابُ الفيلة في جميع جوانبها، النابُ إلى الناب. وعنده سلاحٌ له من ذهب كله: سيفٌ، ومِزْراق، وقوس، وتركاش، ونُشّاب، وعليه سراويل كبير، مُفَصَّل من نحو عشرين نِصفيَّة، لا يلبس مثله أحدٌ منهم، بل هو من خصوصيته، ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكًا من التُرك وغيرهم ممن يُبتاع له من مصر. بيد واحدٍ منهم جتر من حرير عليه قبة، وطائرٌ من ذهب صِفَةُ بازي يُحمل على يساره. وأمراؤه جلوس حوله يمينًا وشمالاً. ثم دونهم أعيانٌ من فرسان عسكره جلوس، وبين يديه شخصٌ يغنِّي له، وهو سيَّافُه. وآخرُ سفيرٌ بينه وبين الناس يُسَمَّى الشاعر، وتُنْهى إليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه. ولا يكتب شيئًا في الغالب، بل يأمر بالقول بلسانه. وحوله أناس بأيديهم طبولٌ يَدُقّون بها، وأناسٌ يرقصون وهو يضحك منهم.

وخلفه صَنْجَقان منشوران.

وأمامه فَرَسَان مشدودان محصّلان لركوبه متى أحب.

ومَنْ عَطَسَ في مجلسه ضُرِبَ ضَرْبًا مؤلمًا، ولا يُسامحُ أحدٌ في مثل ذلك. فإن بَغَتَ أحدًا منهم العُطاسُ انبطح في الأرض وعَطَسَ حتى لا يُعلم به(١). أمَّا الملكُ فإنه إذا عَطَسَ ضَرَبَ الحاضرون بأيديهم على صدورهم.

ولا يدخلُ أحدٌ دارَ السلطنة منتعلاً كائنًا مَنْ كان، ومَنْ لم يخلع نعليْه قُتِلَ بلا عفو، عامدًا كان أو ساهيًا(٢).

وإذا قَدِم عليه أحدٌ من أمرائه أو غيرهم وقَفَ أمامه زمانًا، ثم يوميءُ القادم بيده اليمني مثل مَنْ يضربُ الجوك ببلاد توران وايران من بلاد المشرق.

وصِفَةُ ذلك أن يكشف مقدمْ رأسه ويرفع الذي يضربُ الجوك يده اليمنى إلى قريب أذُنه، ثم يضعها وهي قائمة منتصبة، ويُلقيها بيده اليُسرى فوق فخذه. واليد اليُسرى مبسوطة الكفّ لتلقى مرفق اليُمنى، مبسوطة الكف مضمومة الأصابع، بعضها إلى جانب بعض كالمشط، تماسُّ شحمة الأذن.

قال ابنُ أمير حاجب: وقد رأيتُ هذا عند خدمتهم للسلطان موسى لما قَدِم الديار المصرية.

فإذا أنعم على أحدٍ بإنعام أو وَعَدَه وعْدًا جميلاً، أو شكره على فِعْل، تمرَّغَ المنعم عليه بين يديه من أوَّل المكان إلى آخره. فإذا وصل إلى آخر المكان أخذ غِلمان المُنْعَم عليه أو مَنْ هو مِنْ أصحابه من رماد يكون موضوعًا في آخر مَجلس الملك مُعدًا لهذا الشأن فَيَذُرُّ في رأس المنعم عليه، ثم يعودُ ويتمرَّغ إلى أن يصل بين يديْ الملك، ويضربُ جوكًا آخر بيده.

---

(١) هذا من ناحية الأدب مع السلطان، لأن من يعطس يخرج من أنفه شيء في الغالب، ولم تكن المناديل التي يتقي بها العاطس ما يخرج من أنفه معروفة في ذلك الوقت.

(٢) هذه عادة لا تزال موجودة عند بعضهم وقد رأيتها في مدينة (صوكتو) في شمال نيجيريا حيث يجب على من يدخل على أمير المؤمنين أن يخلع نعليه كائنًا من كان.

وأمَّا في الركوب فقد جَرَت عادةُ سلطان هذه المملكة أنَّه إذا قَدِمَ من سَفَر أن يحمل على رأسه الجتر راكبٌ، ويُنشر على رأسه علمٌ، وتُضرب أمامه الطبول والطنابير، والبوقات بِقرونٍ لهم فيها صناعةٌ محكمة.

قال ابنُ أمير حاجب: وشِعارُ هذا السلطان أعلامٌ وألويةٌ كبار جداً. ورنكُه أصفرُ في أرضٍ حمراء.

وأمَّا غير ذلك من سائر أموره، فقد ذكر الشيخ سعيد الدُكّالي: أنَّ من عادة هذا السلطان أنَّه إذا عاد إليه أحدٌ ممن بعثه في شُغل له أو أمرٍ مُهِمٍّ أن يسأله عن كُلٍّ ما حدث له من حين مفارقته له والى حين عَوْدِهِ مُفَصَّلا.

قال ابن أمير حاجب: وقد رأيتُ السلطان موسى وهو بمصر لا يأكل إلاَّ منفرداً وحده، لا يحضره عند الأكل أحدٌ البتَّة(١).

انتهى الكتاب

(١) صبح الأعشى ج٥ ص٢٨٢-٣٠١.

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

١ - في إفريقية الخضراء مشاهدات وإنطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٢ - رحلة إلى جزر مالديف احدى عجائب الدنيا، نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣ - مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين نشره النادي الأدبي في الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤ - جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي الرياض المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٥ - رحلة إلى سيلان نشرته الجمعية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.

٦ - صلة الحديث عن افريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧ - مشاهدات في بلاد العنصريين رحلة إلى جنوب افريقية وحديث في شؤون المسلمين نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٨ - اطلالة على نهاية العالم الجنوبي نشره نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٩ - زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية الرياض ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

١٠- شهر في غرب افريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين الرياض ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

١١- في نيبال بلاد الجبال رحلة وحديث في شؤون المسلمين الرياض مطابع الفرزدق التجارية في الرياض. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٢- رحلات في امريكا الوسطى المطابع الأهلية للأوفست في الرياض ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٣- إلى اقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي الرياض ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٤- على ضفاف الامازون رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل، نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٥- على قمم جبال الانديز الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٦- في غرب البرازيل الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

١٧- في بلاد المسلمين المنسبين بخارى وما وراء النهر طبع بمطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٨- بقية الحديث عن افريقية مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام١٤١٢هـ.

١٩- جولة في جزائر البحر الكاريبي مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢٠- جولة في جزائر جنوب المحيط الهاديء مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢١- داخل أسوار الصين (مجلدان) مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٢٢- بلاد الداغستان طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام١٤١٣هـ.

٢٣- الرحلة الروسية مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

٢٤- مع المسلمين البولنديين مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

٢٥- جمهورية اذربيجان طبع مطابع الفرزدق الأهلية للأوفست عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٢٦- في أعماق الصين الشعبية نشرته مجلة المنهل.

٢٧- بين الارغواي والباراغواي مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٢٨- بورما الخبر والعيان طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

٢٩- مقال عن بلاد البنغال طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٣٠- ذكريات من يوغسلافيا مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٣١- كنت في بلغاريا مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٣٢- في جنوب الصين، طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

٣٣- كنت في البانيا مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

٣٤- ذكرياتي في افريقيا محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

٣٥- أيام في النيجر طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

٣٦- على أرض القهوة البرازيلية مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

٣٧- نظرة في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد الشيوعية طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

٣٨- بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

٣٩- من انقولا إلى الرأس الأخضر مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

٤٠- سياحة في كشمير مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٤١- يوميات أسيا الوسطى مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

٤٢- نظرة في وسط افريقية مطابع الفرزدق عام١٤١١هـ/١٩٩١م.

٤٣- بلاد القرم نشرته دار القبلة في جدة.

٤٤- قصة سفر في نيجيريا (مجلدان). طبعته مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ (مجلدان).
٤٥- حديث قازاقستان نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).
٤٦- المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.
٤٧- في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.
٤٨- رحلات في امريكا الجنوبية: غيانا وسورينام.
٤٩- إطلالة على استراليا: طبع مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.
٥٠- «أيام في فيتنام» نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.
٥١- راجستان: بلاد الملوك: زيارة وحديث عن أحوال المسلمين، مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ.
٥٢- في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية، نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.
٥٣- «إطلالة على موريتانيا» نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.
٥٤- حديث قيرغيزستان: دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية، نشر دار خضر للطبع والنشر في بيروت عام ١٩٩٧م.
٥٥- زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطبع والنشر في بيروت عام ١٩٩٧م.
٥٦- سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور: رحلة إلى مالي وحديث عن ماضيها المجيد، وحاضرها الجديد، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض (وهذا هو).

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

١ – معجم بلاد القصيم في ستة مجلدات نشرته دار اليمامة وطبع بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

٢ – أخبار أبي العيناء اليمامي طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

٣ – الأمثال العامية في نجد خمسة مجلدات ساعدت دارة الملك عبدالعزيز في الرياض على طبعه ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

٤ – كتاب الثقلاء نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٥ – نفحات من السكينة القرآنية طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس ونشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

٦ – مأثورات شعبية نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٧ – سوانح أدبية طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام١٤٠٩هـ.

٨ – صور ثقيلة مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

٩ – العالم الإسلامي والرابطة نشرته رابطة العالم الإسلامي وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

١٠– المقامات الصحراوية.. طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ.

١١– نظرة في العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء، طبع المطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ.

فهرس المحتويـــات

الموضوع	الصفحة

اليوميات المالية

مطبعة النرجس التجارية
NARJIS PRINTING PRESS
تلفون : ٢٣١٦٦٥٣ / ٢٣١٦٦٥٤
فاكس : ٢٣١٦٨٦٦ الرياض